

ف.إ. لينين

في الأدب والفن

الجزء الأول



ترجمة عن الروسية:
يوسف معلوف

ف.إ. لسين

في الأدب ولفسن

ترجمة عن الروسية :
يوسف حلاوي

دمشق — ١٩٧٢

منشورات وزارة الثقافة

المَسَائِلُ الْعَامَّةُ

مصادر الماركسية الثلاثة ومكوناتها الثلاثة

تثير تعاليم ماركس ، في العالم المتمدن كله ، عدااء العلم البرجوازي ، الرسمي والليبرالي ، وحقده الكيبرين . إذ انه يرى في الماركسية نوعاً من «بدعة ضارة» ، ولا يمكننا أن نتوقع من هذا العلم موقفاً آخر ، فلا يمكن أن يوجد في مجتمع قائم على الصراع الطبقي علم « غير متحيز » ، فالعلم الرسمي ، والليبرالي منه ، يدافع كله بشكل أو بآخر عن عبودية العمل المأجور ، في حين أن الماركسية أعلنت حرباً لا هوادة فيها على هذه العبودية . انها لسذاجة بليدة أن نتوقع علماً غير متحيز في مجتمع قائم على عبودية العمل المأجور ، كسذاجة من يتوقع من أصحاب المصانع عدم التحيز في مسألة ما إذا كان يجدر بهم أن يقللوا من أرباحهم ليزيدوا من أجور العمال .

ولكن هذا غير كافٍ ، فتاريخ الفلسفة وتاريخ علم الاجتماع يظهران بوضوح كامل أنه لا يوجد في الماركسية شيء يشبه « البدعة » ، بمعنى تعاليم مغلقة على نفسها وجامدة ، نشأت بمعزل عن الخط الرئيسي لتطور الحضارة العالمية . بل بالعكس فإن عبقرية ماركس كلها تقوم ، بالضبط ، في أنه قدم أجوبة للمسائل التي كان الفكر الانساني التقدمي قد طرحها . وكانت تعاليمه امتداداً مباشراً وطبيعياً لتعاليم كبار ممثلي الفلسفة والاقتصاد السياسي والاستراكية .

إن تعاليم ماركس كلية القدرة لأنها صحيحة . إنها كاملة وبحكمة البنيان تعطي الناس نظرة متكاملة الى الكون ، لانهادن أي خرافات أو رجعية أو أي دفاع عن الظلم البرجوازي . إنها الوريث الشرعي لأفضل ما أبدعته الانسانية في القرن التاسع عشر متمثلاً في الفلسفة الالمانية والاقتصاد السياسي الانكليزي والاستراكية الفرنسية .

وستوقف قليلاً عند هذه المصادر الثلاثة للماركسية التي تؤلف في الوقت نفسه مكوناتها الثلاثة .

- ١ -

إن المادية هي فلسفة الماركسية . وعلى امتداد تاريخ أوروبا الحديث ، وخصوصاً في فرنسا نهاية القرن الثامن عشر ، حيث احتدمت معركة حاسمة ضد نفايات القرون الوسطى كلها ، ضد الاقطاعية في المؤسسات والافكار ، كانت المادية الفلسفة الوحيدة المتأسكة والأمنية لتعاليم العلوم الطبيعية كلها ، والمعادية للخرافات والمراعاة وغيرها .. ولهذا السبب حاول أعداء الديمقراطية بكل قواهم أن « يدحضوا » المادية وينسفوها ويفتروا عليها . وقد دافعوا عن مختلف اشكال المثالية الفلسفية التي تنتهي بشكل أو بآخر الى حماية الدين أو دعمه .

لقد ذاد ماركس وانغلز بكل حزم عن المادية الفلسفية ، وأوضحا أكثر من مرة الخطأ الفادح في أي انحراف عن هذا الاساس . وقد بسطت آراؤهما بأكثر ما يكون وضوحاً وتفصيلاً في مؤلفي انغلز « لودفيغ فيورباخ » و « ضد ديوهرنغ » اللذين يعتبران ، كاليان الشيوعي ، المرجع لكل عامل واعٍ .

لكن ماركس لم يقف عند مادية القرن الثامن عشر ، بل دفع بالفلسفة الى الامام ، فأغناها بانجازات الفلسفة الكلاسيكية الالمانية ، وخصوصاً فلسفة هيغل التي أدت بدورها الى مادية فيورباخ . وأهم هذه الانجازات الديالكتيك أي نظرية التطور في شكله الاكثر كمالاً وعمقاً وبعداً عن النظرة الاحادية الجانب ، نظرية نسبة المعرفة الانسانية التي تعطينا انعكاساً للمادة المتطورة أبداً . وقد أكدت الاكتشافات الجديدة في العلوم الطبيعية (الراديوم ، الالكترونات ،

تحوّل العناصر) مادية مار كس الديالكتيكية تأكيداً رائعاً على الرغم من تعاليم الفلاسفة البرجوازيين ومحاولاتهم العودة « من جديد » الى المثالية القديمة والعفنة . إن مار كس ، بتعميقه وتطويره المادية الفلسفية ، قد أوصلها الى غايتها ، فجعلها تشمل معرفة المجتمع الانساني إلى جانب معرفة الطبيعة . ولهذا كانت مادية مار كس التاريخية أعظم منجزات الفكر العلمي ، فاستبدلت الفوضى والعشوائية السائدتان حتى الآن في النظرة إلى التاريخ والسياسة بنظرية علمية مدهشة في تكاملها وإحكام بنائها ، تظهر كيف ينشأ ويتطور من وضع اجتماعي وضع آخر أرقى نتيجة لقوى الانتاج . فالرأسمالية ، مثلاً ، تنشأ من الاقطاعية .

وتعكس معرفة الانسان الاجتماعية (أي مختلف النظريات والتعاليم الفلسفية والدينية والسياسية وغيرها) بنية المجتمع الاقتصادية ، تماماً كما تعكس معرفته الطبيعة ، أي المادة المتطورة بشكل مستقل عنه . فالمؤسسات السياسية ليست الا بنية فوقية لاساس اقتصادي . ونحن نرى مثلاً كيف أن الاشكال السياسية المختلفة للدول الاوروبية المعاصرة تهدف الى تمكين سيطرة البرجوازية على البروليتاريا .

إن فلسفة مار كس هي المادية الفلسفية وقد بلغت كمالها ، وهي تضع بين يدي الانسانية ، والطبقة العاملة بوجه خاص ، أدوات عظيمة للمعرفة .

- ٢ -

بعد أن أعلن مار كس أن البنية الاقتصادية هي الاساس الذي تقوم عليه البنية الفوقية السياسية ، خصص جل اهتمامه لدراسة هذه البنية الاقتصادية . ومؤلفه الرئيسي (الرأسمال) مكرس لدراسة بنية المجتمع المعاصر (أي الرأسمالي) الاقتصادية .

نشأ الاقتصاد السياسي الكلاسيكي قبل ماركس في انكلترا ، أكثر البلدان الرأسمالية تطوراً . فقد وضع آدم سميث ودافيد ريكاردو أساس نظرية القيمة من حيث العمل ، حين بحثا في البنية الاقتصادية . وأكمل ماركس عملها فطور هذه النظرية تطويراً متماسكاً وأرساها على أسس ثابتة ، موضحاً أن قيمة أي سلعة تحدّد بكمية زمن العمل الاجتماعي الضروري لإنتاجها .

لقد كشف ماركس عن علاقة بين الناس حيث رأى الاقتصاديون البرجوازيون علاقة بين الأشياء (ابدال سلعة بسلعة) . إن تبادل السلع يعبر عن علاقة بين بعض المنتجين بواسطة السوق بينما يعني النقد أن هذه العلاقة أصبحت أوثق ، وذلك بربطها الحياة الاقتصادية لهؤلاء المنتجين وصهرها في كل واحد . أما رأس المال فيعني تطوراً أبعد لهذه العلاقة ، إذ تصبح قوة العمل عند الانسان سلعة . فالعامل المأجور يبيع قوة عمله لصاحب الارض أو المعمل أو أدوات العمل . فالعامل يصرف جزءاً من يوم عمله ليغطي نفقات عيشه وعيش أسرته (الاجرة) ، بينما يعمل القسم الآخر من يومه دون مقابل ، خالفاً بذلك فضل القيمة للرأسمالي ، أي مصدر ربح وغنى طبقة الرأسماليين . وهكذا فإن فضل القيمة هو حجر الزاوية في نظرية ماركس الاقتصادية .

إن رأس المال الناشئ من عمل العامل يسحق العامل ويجرّب صغار الملاك ويخلق جيشاً من العاطلين ، وانتصار الانتاج الكبير في الصناعة ظاهرة بارزة للعيان مباشرة . ولكننا نرى في الزراعة ايضاً الظاهرة نفسها ، إذ يزداد تفوق الزراعة الرأسمالية الكبيرة وينمو استعمال الآلات ، فتتسع الاستثمارات الفلاحية تحت وطأة رأس المال النقدي ، ويقلس هذا الرأسمال تحت وطأة التقنية المتخلفة . وتختلف أشكال هذا

الانهيار في الانتاج الصغير ، وفي الزراعة عنها في الصناعة ، لكن الانحطاط نفسه واقع لا شك فيه .

ويؤدي رأس المال ، بتحطيمه للانتاج الصغير ، الى زيادة إنتاجية العمل ، والى خلق وضع احتكاري لاتحادات كبار الرأسماليين . ويصبح الانتاج اجتماعياً أكثر مما كان ، إذ يشد مئات آلاف العمال وملايينهم الى جهاز اقتصادي منظم ، بينما تستأثر حفنة من الرأسماليين بنتاج العمل العام ، وتشد فوضى الإنتاج والأزمات والركض المحموم وراء الأسواق وعدم ضمان العيش لسواد الناس .

إن النظام الرأسمالي يخلق قوة عظيمة من العمل الموحد ، إذ يزيد من ارتباط العمال برأس المال .

وقد تابع ماركس تطور الرأسمالية من بذورها الأولى في اقتصاد السلعة ، من التبادل البسيط حتى أشكالها العليا ، أي الانتاج الكبير .

وتظهر تجربة البلدان الرأسمالية كلها قديمها وحديثها بكل وضوح وسنة بعد اخرى صحة تعاليم ماركس لأعداد متزايدة من العمال .

لقد انتصرت الرأسمالية في العالم بأسره ، لكن هذا الانتصار ليس إلا مقدمة لانتصار العمل على رأس المال .

- ٣ -

عندما سقطت الاقطاعية ورأى المجتمع الرأسمالي « الحر » النور ، تبين مباشرة أن هذه الحرية تعني نظاماً جديداً من اضطهاد الكادحين واستغلالهم ، ولم تلبث أن نشأت تعاليم اشتراكية مختلفة انعكاساً لهذا الظلم واحتجاجاً عليه . لكن الاشتراكية الأولى كانت في البدء اشتراكية طوباوية إذ كانت تنتقد المجتمع الرأسمالي وتدينه وتلعنه ، وتحلم بتقويضه وبنظام أفضل ، محاولة إقناع الأغنياء بلاء أخلاقية الاستغلال .

لكن الاشتراكية الطوباوية لم تستطع ان تشير الى المخرج الحقيقي .
لم تعرف ان تبين ماهية عبودية العمل المأجور في الرأسمالية ، ولا أن تكتشف
قوانين تطوره ، او تجسد تلك القوة الاجتماعية القادرة على ان تصبح خالقة
المجتمع الجديد .

وفي الوقت نفسه فإن الثورات العاصفة التي رافقت سقوط الاقطاعية في
كل مكان من اوربا ، وخصوصاً في فرنسا ، كشفت بوضوح متزايد عن أن
صراع الطبقات هو أساس التطور كله وقوة الحركة .

فما من انتصار انتزعت الحرية السياسية من طبقة الاقطاعيين بدون مقاومة
مستميتة . وما من بلد رأسمالي قام على اساس حر ديمقراطي ، الى هذا الحد او ذاك ،
دون صراع حياة أو موت قام بين مختلف طبقات المجتمع الرأسمالي .

ومن عبقرية ماركس أنه اول من استخلص هذه النتيجة التي يعلمنا إياها
التاريخ البشري كله ، وطبقها تطبيقاً متمسكاً الى النهاية . وهذه النتيجة هي نظرية
الصراع الطبقي .

لقد كان الناس دائماً وسيبقون أبداً ، في السياسة ، ضحايا أغبياء لخداع
الآخرين وخداع النفس ما لم يتعلموا أن يبحثوا عن مصالح هذه الطبقة او تلك
وراء التعابير والتصريحات والوعود الاخلاقية والدينية والسياسية والاجتماعية .
وسيطل المدافعون عن القديم يحدّرون دعاة الإصلاح والتحسين ما لم يفهم هؤلاء
أن أية مؤسسة قديمة ، مهما بدت متعفنة ومتوحشة ، تستند الى قوى هذه الطبقة
المسيطرة او تلك . ولا سبيل لسحق مقاومة هذه الطبقات إلا بوسيلة واحدة فقط ،
هي ان نجند في المجتمع المحيط بنا نفسه قوى تستطيع ان تشكل — لا بل من
واجبها بحكم وضعها الاجتماعي ان تشكل — القوة القادرة على محو القديم وخلق
الجديد ، ومن ثم تثقيف هذه القوة وتنظيمها للنضال .

مادية ماركس الفلسفية هي وحدها التي دلت البروليتاريا على مخرج من العبودية الروحية التي غرقت فيها الطبقات المضطهدة حتى الآن . ونظرية ماركس الاقتصادية هي وحدها التي أوضحت الوضع الحقيقي للبروليتاريا في البنية العامة للرأسمالية .

إن المنظمات البروليتارية المستقلة تتكاثر في العالم كله ، من أمريكا الى اليابان ، ومن السويد حتى جنوب افريقيا . وتتعلم البروليتاريا وتربى وتتحور من أوهام المجتمع البرجوازي ، وتزداد تلاحماً على الدوام فيما هي تمارس نضالها الطبقي وتتعلم ان تحدد مدى انتصاراتها وتعزز قواها وتنمو نمواً لا يقاوم .

طبعت في آذار ١٩١٣

المؤلفات الكاملة ، الطبعة الخامسة جزء ٢٣ ص (٤٠-٤٨) (*)

(*) سنكتفي فيما بعد بذكر الجزء والصفحة فقط .

من كتاب

« المادة والتجربة الانتقادية »

« ملاحظات انتقادية حول احدى الفلسفات الرجعية » ٢

... يعلن انغلز في مؤلفه « لودفيغ فيورباخ » ان المادة والمثالية هما الاتجاهان الرئيسيان في الفلسفة . فالمادية تعتبر ان الأولوية للطبيعة وأن الروح هي الثانوية أي تضع الوجود في المقام الأول والتفكير في المقام الثاني . أما المثالية فتقف موقفاً عكسياً . ويضع انغلز في رأس الزاوية هذا الفرق الجذري « بين المعسكرين الكبيرين » اللذين ينقسم اليهما فلاسفة « مختلف مدارس » المثالية والمادية . وهو يتهم انهما مباشراً بالتضليل من يستعمل بغير هذا المعنى تعبير « المادة والمثالية » . يقول انغلز إن المسألة الأولى في الفلسفة كلها ، والسؤال الجوهرى الأعظم في الفلسفة كلها ، وخصوصاً الفلسفة الحديثة ، هو علاقة التفكير بالوجود ، علاقة الروح بالطبيعة .

وبعد ان يقسم انغلز الفلاسفة الى « معسكرين كبيرين » من حيث موقفها من هذه المسألة الرئيسية ، يشير الى « وجود جانب آخر » من هذه المسألة الفلسفية الرئيسية ، هو على وجه التحديد : « ما هي علاقة أفكارنا عن العالم المحيط بنا بهذا العالم نفسه ؟ هل بإمكان تفكيرنا أن يعرف العالم الواقعي ؟ وهل نستطيع بتصوراتنا ومفاهيمنا عن هذا العالم الواقعي أن ننشئ انعكاساً أميناً للواقع » (*).

(*) يترجم شيرنوف كلمة Spiegelbild الألمانية الى « انعكاس كما في المرآة » ويتهم بليخانوف بأنه ينقل نظرية انغلز « نقلاً ضعيفاً الى درجة كبيرة » حين يترجم الكلمة الى « انعكاس » فقط وليس الى « انعكاس كما في المرآة » وهذه ماحكة بلا سبب إذ أن كلمة Spiegelbild تستعمل في الألمانية بمعنى Abbild أي انعكاس ، تصوير ، صورة .
(هيئة التحرير)

ويقول انغلز: « ان الغالبية العظمى من الفلاسفة تحل هذه المسألة حلاً
 ايجابياً ». وهو لا يعني بذلك الماديين فقط ، بل أكثر المثاليين تماسكاً ، كالمثالي
 المطلق هيغل الذي يعتبر العالم تحقيقاً « لفكرة مطلقة » أزلية سابقة في حين أن
 الروح الانساني يتعرف في العالم الواقعي ، ومن خلاله حين يعرفه معرفة صحيحة ،
 إلى « الفكرة المطلقة » . « والى جانب هذا » (اي الى جانب الماديين والمثاليين
 التماسكين) « توجد مجموعة من الفلاسفة الآخرين الذين يشككون في امكانية
 معرفة العالم ، او على الاقل معرفته معرفة كاملة . ومن هؤلاء هيوم وكنط من
 الفلاسفة المحدثين وقد لعبا دوراً هاماً جداً في التطور الفلسفي » ...

وبعد ان يشير انغلز الى أن هيغل أورد حججاً « حاسمة » ضد هيوم
 وكنط ، وان فيورباخ أكمل هذه الحجج بملاحظات ذكية أكثر بما هي عميقة
 يتابع كلامه فيقول : « إن الدحض الحاسم لهذه الترهات الفلسفية وغيرها
 هي الممارسة ، وبالضبط التجربة ، الصناعة . فاذا كنا نستطيع أن نبرهن على
 صحة فهمنا لظاهرة طبيعية معينة بأن نحدثها ، نستدعيها من ظروفها ذاتها ونجعلها
 فوق ذلك ، نخدم أهدافنا ، تكون نهاية « الشيء في ذاته » الذي لا يدرك بحسب
 كنط قد حلت . (« unfassbaren الذي لا يدرك » هذه الكلمة الهامة قد
 أسقطها كل من بليخانوف وتشيرنوف في الترجمة) . فالمواد الموجودة في أجسام
 الحيوانات والنباتات بقيت « أشياء في ذاتها » الى ان بدأت الكيمياء العضوية تحضرها
 الواحد تلو الآخر . وهكذا أصبحت الأشياء في ذاتها « أشياء من أجلنا » ،
 كالإليزابين مثلاً ، وهو المادة الملونة اللقوة . فنحن نحصل عليه الآن لا من جذور
 القوة النابتة في الحقل ، بل من قطران الفحم الحجري وبصورة أبسط وأرخص .
 ... يقول انغلز مباشرة وبوضوح إنه يعارض هيوم وكنط معاً ، مع
 العلم أن هيوم لا يتكلم أبداً عن « أشياء في ذاتها لا يمكن أن تعرف » . فهاهو

القاسم المشترك بينها ؟ هو أنها يعزلان مبدئياً « الظواهر » عما هو موجود (ظاهر) ، الاحساس عن موضوع الإحساس ، الشيء لأجلنا عن الشيء في ذاته ، مع العلم ان هيوم يعترف بشيء اسمه « الشيء في ذاته » ويعتبر ان هذه الفكرة غير واردة فلسفياً ، فهي ميتافيزيكية (كما يقول الهيوميون والكنطيون) ، أما كمنظ فيسلم بوجود « الشيء في ذاته » ولكنه يعلن أنه لا يمكن ان يعرف ، فهو متميز ، مبدئياً ، عن الظاهرة ، وانه ، من حيث المبدأ ، من مستوى مختلف ، هو العالم الآخر ، وانه مغلق على المعرفة مفتوح على الايمان .

ما هو جوهر اعتراضات انغلز ؟ بالأمس لم تكن ندري بوجود الأليزارين . في قطران الفحم الحجري ، أما اليوم فنعرف بوجوده . ونسأل هل كان الأليزارين موجوداً بالأمس في قطران الفحم ؟

أجل بالطبع ، واي شك في هذا ما هو إلا سخرية من العلوم الطبيعية المعاصرة . وإذا كان الجواب نعم فيمكننا ان نستخلص ثلاثة استنتاجات معرفية هامة :

١) توجد الأشياء مستقلة عن وعينا ، مستقلة عن احساسنا ، خارجنا . إذ من المؤكد أن الأليزارين كان موجوداً بالأمس في قطران الفحم الحجري ، ومن المؤكد ايضاً اننا لم نكن نعرف عن هذا الوجود ولم نكن نحس به .

٢) لا يوجد ولا يمكن أن يوجد قطعاً أي فرق مبدئي بين الظاهرة والشيء في ذاته . إن الفرق هو ، بكل بساطة ، بين ما عُرِف وما لم يُعرف بعد . أما الاختلافات الفلسفية القائلة بوجود حدود خاصة بين الأمرين وبأن الشيء في ذاته يقع « خارج حدود الظواهر » (كمنظ) او بأن من الواجب والممكن ان يحيط الانسان نفسه بمجاز فلسفي يفصل ما بينه وبين مسألة عالم لم يعرف بعد

في هذا او ذاك من جوانبه ، لكنه موجود خارجاً عنا (هيوم) ، ليس هذا كله إلا هراء وتلفيقاً .

٣) وفي نظرية المعرفة ، كما في فروع العلم الاخرى كلها ، علينا أن نفكر ديبالكتيكياً ، اي علينا الافتراض ان معرفتنا شيء جاهز لا يتبدل بل علينا أن نحلل كيف تنمو المعرفة من الجهل وكيف تصبح معرفتنا الناقصة غير الدقيقة أكمل وأدق . فاذا ما اخذتم بوجهة نظر تطور المعرفة الانسانية من الجهل سترون ان ملايين الامثلة البسيطة ، كاكشاف ألابازارين في قطران الفحم الحجري وملايين الملاحظات المأخوذة ليس فقط من تاريخ العلم والتقنية بل من حياة كل فرد منا ، تبين للانسان تحول « الاشياء في ذاتها » إلى « أشياء من أجلنا » ، نشوء « الظواهر » عندما تتلقى حواسنا منبهات خارجية من هذا الشيء أو ذاك ، وزوال « الظواهر » حين يمتنع عائق ما شيئاً معروفاً وجوده بالنسبة لنا من قبل ، من امكانية التأثير على حواسنا . والنتيجة الوحيدة والحتمية لهذا كله ، النتيجة التي يستخلصها الناس كلهم في ممارستهم الانسانية الحية ، والتي تضعها المادية عن وعي في اساس نظريتها المعرفية ، هي ان الاشياء والاجسام والمواد توجد خارجنا ومستقلة عنا او ان حواسنا صور للعالم الخارجي ...

... . المادة مقولة فلسفية تدل على واقع موضوعي معطى للإنسان في

حواسه ، وهذه الحواس تنسخ هذا الواقع وتصوره (فوتوغرافياً) مع وجوده مستقلاً عنها . ولذا فالقول بأن هذا المفهوم قد « يشيخ » ليس إلا كلام أطفال ، ليس إلا ترديد « ببغاوي » لحجج الفلسفة الرجعية الشائعة هذه الأيام . فهل شاخ صراع المثالية والمادية خلال ألفي عام من تطور الفلسفة ؟ أو صراع اتجاهات افلاطون وديمقريط في الفلسفة ؟ أو صراع الدين والعلم ؟ أو نفي الحقيقة الموضوعية والاعتراف بها ؟ أو صراع أنصار المعرفة فوق الحسية مع أعدائهم ؟

إن القبول بفهم المادة أو رفضه مسألة تتعلق بثقة الإنسان في معطيات حواسه ، وبمصدر معرفتنا . وهي مسألة طرحت ونوقشت منذ نشوء الفلسفة ، ويستطيع الأساتذة المهرجون أن يلبسوها ألف زي وزي ، لكنها لا يمكن أن تشيخ ، تماماً كما لا يمكن أن تشيخ مسألة ما إذا كان مصدر المعرفة الإنسانية هو النظر واللس ، السمع ، والشم . أن نعتبر حواسنا صوراً للعالم الخارجي - أن نأخذ بالنظرية المادية في المعرفة - أن نعترف بالحقيقة الموضوعية - هذا كله شيء واحد

... وهكذا فإن التفكير الإنساني قادر بطبيعته ذاتها أن يعطينا الحقيقة المطلقة المكونة من مجموع حقائق نسبية . وتضيف كل مرحلة من مراحل تطور العلم بذوراً جديدة إلى حاصل الحقيقة المطلقة . لكن حدود الحقيقة لأي موضوع علمية هي حدود نسبية ، قد تضيق أو تتسع تبعاً لتطور المعرفة اللاحق . . .

إن حدود اقتراب معارفنا من الحقيقة الموضوعية المطلقة مشروطة تاريخياً في نظر المادية المعاصرة ، أي الماركسية . أما ما هو غير مشروط فوجود هذه الحقيقة واقترابنا المستمر منها . أطر اللوحة مشروطة تاريخياً ولكن غير المشروط هو أن هذه اللوحة تصور نموذجاً أولاً موجوداً ووجوداً موضوعياً . إن المشروط تاريخياً هو الزمن والظروف التي تحركت فيها معرفتنا لما هي الأشياء ، حتى توصلنا إلى اكتشاف الأليزارين في قطران الفحم الحجري ، وإلى اكتشاف الإلكترونات في الذرة . ولكن ما هو غير مشروط أن أي اكتشاف جديد ما هو إلا خطوة إلى الأمام ، نخطوها « المعرفة الموضوعية حتماً » . وبكلمة ، فإن أي ايدولوجيا مشروطة تاريخياً ، ولكن ما هو غير مشروط أن أي ايدولوجيا علمية (تمييزاً لها من الدينية مثلاً) تقابل حقيقة موضوعية ، طبيعة مطلقة .

وقد نقولون إن هذا التفريق بين الحقيقتين ، المطلقة والنسبية ، « غير محدد » ،

وجوابي : انه غير محدد بقدر يكفي ليمنع العلم من أن يتحول إلى عقيدة (بالمعنى السيء لهذه الكلمة) ، إلى شيء ميت ، متحجر ، جامد ، ولكنه في الوقت نفسه « محدد » بالقدر اللازم لتمييز بشكل حاسم ونهائي عن الإيمان والادارية ، عن المثالية الفلسفية ، وعن سفسطة أتباع هيوم وكنط .

لقد أوضح هيجل أن الديالكتيك يتضمن وقت النسبية ، النفي ، الشك ، ولكنه لا يقتصر على النسبية وحدها . والديالكتيك عند ماركس وانغلز يتضمن قطعاً النسبية ، ولكنه لا يقتصر عليها ، أي أنه يعترف بنسبية معارفنا كلها ، لا بمعنى نفي الحقيقة الموضوعية ، بل بمعنى الشرطية التاريخية لحدود اقتراب معارفنا من هذه الحقيقة .

ومن الواجب أن تكون وجهة نظر الحياة والممارسة هي الأولى والأساسية في نظرية المعرفة . وتؤدي هذه النظرة بالضرورة إلى المادية ، إذ ترفض منذ البداية اختلافات الأساتذة السكولاستيكيين التي لا حصر لها . . . علينا ألا ننسى بالطبع أن مقياس المعرفة لا يستطيع بطبيعته ان يؤكد او يدحض تماماً أي تصور انساني مهما كان . فهذا المقياس غير محدد هو الآخر بقدر لا يسمح لمعارف الإنسان أن تتحول إلى « مطلق » ، ومحدد في الوقت نفسه ، لدرجة تمكنه من أن يقود نضالاً لا هوادة فيه ضد جميع أشكال المثالية والادارية . . .

.. . لقد تلقف ماخيونا الذين يودون أن يكونوا ماركسيين موضوعات بليخانوف في « الهيروغليف » أي نظريته القائلة بأن أحاسيس الإنسان وتصوراته ليست نسخة من الأشياء الواقعية ، وعمليات الطبيعة ليست تصويراً لها ، بل إشارات اصطلاحية ، رموزاً ، هيروغليفاً . الخ . . .

إن بازاروف يسخر من هذه المادية الهيروغليفية ، إلا أنه من الضروري أن نشير إلى أنه كان محقاً لو رفض المادية الهيروغليفية لصالح المادية غير الهيروغليفية

لكن بازاروف يستعمل مرة أخرى أسلوب الشعوذة ، إذ يهرب انفصاله عن المادية تحت علم نقد « الهيروغليفية » . إن انغاز يتكلم لا عن الرموز ولا عن الهيروغليف ، بل عن النسخ والصور والتصوير وعكس الأشياء كما في مرآة . وبدل ان يظهر بازاروف الخطأ الكامن في تراجع بليخانوف عن المادية كما صاغها انغاز، نراه يستر حقيقة انغاز عن القراء بخطأ بليخانوف . . .

. . . إن الوجود الاجتماعي والوعي الاجتماعي ، تماماً كالوجود والوعي بشكل عام ، ليسا متطابقين . وإذا كان الناس يباشرون علاقات فيما بينهم ، ويباشرونها بوصفهم كائنات واعية ، فلا يعني هذا بأي شكل من الأشكال أن الوعي الاجتماعي مطابق للوجود الاجتماعي . فالناس لا يعون ، وهم يباشرون علاقاتهم ، (مهما كانت البنى الاجتماعية معقدة وخصوصاً في المجتمع الرأسمالي) ما هي العلاقات الاجتماعية التي تنشأ من اتصالهم ، ولا القوانين التي تتطور بموجبها هذه العلاقات . فالفلاح الذي يبيع القمح مثلاً ، يباشر علاقة مع المنتجين العالمين للقمح في السوق العالمي ، لكنه لا يعي هذا ولا يعي العلاقات الاجتماعية التي تنشأ من هذا التبادل . الوعي الاجتماعي يعكس الوجود الاجتماعي - هذه هي نظرية ماركس - . قد يكون العكس نسخة أمينة إلى حد كبير لما يُعكسُ ، لكن الحديث عن التطابق ليس أمراً مقبولاً . الوعي يعكس بوجه عام الوجود . هذه هي الموضوعة العامة للمادية كلها ، ومن غير الممكن ألا نرى علاقتها المباشرة التي لا تنفصل بموضوعة المادية التاريخية القائلة بأن الوعي الاجتماعي يعكس الوجود الاجتماعي . . .

. . . ان أي منتج في الاقتصاد العالمي يعي أنه يدخل تغييراً ما في تقنية الانتاج ، واي مالك يعي انه يبادل منتجات بأخرى ، لكن هؤلاء المنتجين وهؤلاء المالكين لا يعون انهم يغيرون بذلك الوجود الاجتماعي . وليس بمقدور (٧٠) ماركساً ان يحيطوا بجملة هذه التغيرات في تشعباتها كلها في الاقتصاد

الرأسمالي العالمي . الا ان الشيء الأهم هو ان قوانين هذا التطور قد اكتشفت ،
 وظهر المنطق الموضوعي لهذه التغيرات ولتطورها التاريخي في عناصره الرئيسية
 والأساسية ، وهذا المنطق الموضوعي ليس بمعنى ان مجتمع الكائنات الواعية - اي الناس -
 يستطيع ان يوجد ويتطور مستقلاً عن وجود كائنات واعية ، (وبوغدانوف لا يؤكد
 بنظرية الا على هذه السخافات) بل بمعنى ان الوجود الاجتماعي مستقل عن الوعي
 الاجتماعي للناس . فمن حيث أنكم تعيشون وتشتغلون ، تلدون الاطفال وتنتجون المواد
 وتبادلونها ، تنشأ سلسلة من الحوادث ضرورية موضوعياً ، سلسلة تطور مستقلة
 عن وعيكم الاجتماعي الذي لا يمكنه أبداً ان يحيط بها إحاطة كاملة . إن اكبر
 مهمة أمام الإنسانية هي ان تحيط بالمنطق الموضوعي للتطور الاقتصادي (تطور
 الوجود الاجتماعي) في خطوطه العامة الرئيسية ، حتى تكيف معه وعيها الاجتماعي
 ووعي الطبقات التقدمية في البلدان الرأسمالية كلها تكيفاً أكثر ظهوراً
 ووضوحاً ونقدية .

ويعترف بوغدانوف بهذا كله . فما معنى ذلك ! معناه انه يسقط ، عملياً ،
 « تطابق الوجود الاجتماعي مع الوعي الاجتماعي » وتبقى نظريته إضافة فارغة
 وسكولاستيكية لا معنى لها ، تماماً كـ نظرية التعويض والابدال العام او نظرية
 العناصر إلى آخر هذا الهراء الماخوي . « لكن الميت يمك بالحي » ، وإضافة
 بوغدانوف الميتة ، السكولاستيكية ، تحول نظريته ، رغم ارادته وبشكل مستقل
 عن وعيه ، إلى اداة تخدم امثال شوبرن وزولدرن وغيرهم من الرجعيين الذين يبشرون
 بألف شكل ، ومن على مئات المنصات ، بهذا الميت على انه حي ، وضد الحي
 ليخنقوا الحي . إن بوغدانوف شخصياً هو عدو لدود لكل رجعية ، وللرجعية
 البرجوازية بشكل خاص . لكن نظريته في الابدال وتطابق الوجود الاجتماعي
 مع الوعي الاجتماعي تخدم الرجعية . وهذا واقع مؤسف ، لكنه واقع .

المادية تعترف ، بوجه عام ، بالوجود الواقعي الموضوعي (المادة) مستقلاً عن وعي الانسان واحساسه وتجربته الخ . . والمادية التاريخية تعترف بالوجود الاجتماعي مستقلاً عن الوعي الاجتماعي للانسان . وفي كلتا الحالتين ليس الوعي الا عكساً للوجود ، وليس في احسن الاحوال الا عكساً أميناً على وجه التقريب (مساوياً ، دقيقاً بشكل مثالي) . وفي فلسفة الماركسية المسكوبة من قطعة واحدة من الفولاذ ، لا يمكننا ان نخذف اي شيء أساسي ، واي قسم جوهري ، دون ان نبتعد عن الحقيقة الموضوعية ودون ان نقع في احضان الدجل البرجوازي الرجعي .

... تتبعنا في كل ما أوردناه سابقاً من مسائل المعرفة والفلسفة التي طرحتها الفيزياء الحديثة ، وفي كل مسألة تطرقنا إليها ، الصراع القائم بين المادية والمثالية ، وكنا نكتشف في زحمة التلاعب بالتعابير الجديدة وراء نثار سكولاستيكية هيلر ، خطين رئيسيين ، اتجاهين رئيسيين في حل المسألة الفلسفية . هل نعتبر الطبيعة ، المادة ، ما هو فيزيائي ، العالم الخارجي اولياً ، والروح ، الوعي ، الإحساس (التجربة حسب التعبير الشائع في أيامنا) ، ما هو نفسي ثانوياً . هذه هي المسألة الجذرية التي لا زالت بالفعل تشق صفوف الفلاسفة الى معسكرين كبيرين . ومصدر آلاف وآلاف الأخطاء والتشويش في هذا المجال هو ، بالضبط ، اغفال هذين الاتجاهين الرئيسيين وراء مظاهر التعابير والتحديدات والتلفيقات السكولاستيكية والتلاعب بالكلمات . (فبوغدانوف مثلاً لا يريد أن يعترف بمثاليته ، لهذا تراد يستبدل مفاهيم « غيبية ميتافيزيكية » « كالطبيعة » « والروح » بمفهوم التجربة الفيزيائية والنفسية . لقد استبدل كما ترون كلمة صغيرة بأخرى) . وجوهر عبقرية ماركس وانغلز أنها طوراً والماديه خلال فترة طويلة تقارب نصف قرن ، ودفعنا الى الأمام باتجاه اساسي في الفلسفة ، ولم يقف

عند تكرار مسائل معرفية محلولة ، بل طبقا لهذه المادية نفسها على العلوم الاجتماعية تطبيقاً متمسكاً ، أي أظهرها كيف يجب تطبيقها ، مشيرين بدون هوادة إلى أن المحاولات التي لاحصر لها الهادفة إلى « اكتشاف » خط « جديد » في الفلسفة ، واختراع اتجاه جديد الخ .. ماهو إلا هراء ، لغو مزوق . إن الطابع اللفظي لهذه المحاولات والتلاعب السكولاستيكي بـ « — إيات » (— isme) فلسفية جديدة * وتشويه جوهر الموضوع باختلافات غاية في التفنن ، وعدم المقدرة على فهم صراع هذين الاتجاهين المعرفيين الجندريين ، والتصور الواضح له ، هو ما كان يتابعه انغلز وماركس ويحاربانه طوال فترة نشاطهما .

قلنا : قرابة نصف قرن ، لأنه في عام ١٨٤٣ بالفعل ، حينما لم يكن ماركس قد أصبح ماركساً ، أي مؤسساً للاشتراكية بوصفها علماً ، مؤسساً للعادية الحديثة الأغنى محتوى والأشد تمسكاً بما لا يقاس من أشكال المادية السابقة كلها ، في ذلك الوقت ألمح بوضوح مدعش إلى الاتجاهين الجندريين في الفلسفة ، إذ يورد كارل غرون رسالة من ماركس إلى فيورباخ بتاريخ ٢٠ تشرين الاول ١٨٤٣ يدعو فيه إلى كتابة مقال في مجلة « دوتش فرنزوسيش جهر بوشره » ضد شلينغ . ويقول ماركس في رسالته : إن شلينغ هذا مغرور ، فارغ بادعائه الإحاطة بالاتجاهات الفلسفية السابقة كلها وتجاوزها ، فهو ، أي (شلينغ) يقول للرومنطيين والصوفيين الإفرنسيين : أنا وحدة الفلسفة واللاهوت ، وللماديين الإفرنسيين : أنا وحدة الجسد والفكرة ، وللمتشككين الإفرنسيين : أنا هادم « العقائدية » . وكان ماركس يرى منذ ذلك الوقت أن « المتشككين » ، مهما اختلفت تسمياتهم (هيوميين أو كنطيين أو مآخيين في القرن العشرين) ، يزعمون ضد « العقائدية »

(*) المقصود بالإيات كل فلسفة أو مذهب اجتماعي تصاغ نهاية كلمته بالألف والياء والتاء مثل : اشتراكية ، هيكلية . الخ .

في المادية والمثالية معاً ، وقد استطاع دون أن يؤخذ بواحدة من هذه النظم الفلسفية الوضيعة والكثيرة جداً ، أن يسير من خلال فيورباخ على طريق المادية ضد المثالية . وبعد ذلك بثلاثين سنة ، يقابل مار كس ، في تذييله للطبعة الثانية للجزء الأول من « رأس المال » ، بالوضوح نفسه منهجه المادي بالمنهج الهيغلي ، أي المنهج المثالي الأكثر تطوراً وتماسكاً ، متجاوزاً باحتقار ، وضعية كونت ، وناعتاً الفلاسفة المعاصرين الذين يتوهمون أنهم حطموا هيغل ، بينما هم بالفعل يعاودون تكرار أخطاء كنط وهيوم قبل الهيغلية ، بالمقلدين البائسين .

كما يستخف مار كس في رسالة منه إلى كوغلمان بتاريخ ٢٧ حزيران ١٨٧٠ . ببوخنر ولانجي وديوهرنغ وفيختو لعدم استطاعتهم فهم دياكتيك هيغل واستهانتهم به^٦ . وخذوا أخيراً ملاحظات مار كس الفلسفية المتفرقة في رأس المال وغيره من مؤلفاته ، تجدوا نعمة أساسية لا تتغير ، هي إصراره على المادية ، وسخريته من أي إخفاء لها وتشويش عليها أو تراجع عنها نحو المثالية . وحول هذين المحورين الرئيسيين المتعارضين تدور ملاحظات مار كس الفلسفية كلها . ونقطة الضعف فيها ، من وجهة نظر الفلسفة الأكاديمية ، تكمن في ضيق أفقها وأحادية جانبها . أما في الواقع ، فإن في هذا الرفض لإقامة أي اعتبار لمشاريع المصالحة بين المادية والمثالية يكمن الفضل الأعظم لمار كس الذي سار في طريق فلسفية محددة بوضوح .

ويقابل أنغلز في مؤلفاته الفلسفية كلها ، وبروح مار كس تماماً وبالتعاون الوثيق معه ، وبإيجاز ووضوح الخط المادي بالخط المثالي ، في كافة المواضيع ، دون أن يجمع على محمل الجد لا في عام ١٨٧٨ ولا في ١٨٨٨ ولا في ١٨٩٢ المحاولات التي لا حصر لها ، الهادفة إلى « تجاوز » أحادية الجانب في المادية والمثالية وإعلان خط جديد ، أكان ذلك « الوضيعة » أو « الواقعية » أو أي شعوذة

أكاديمية أخرى. وقد شن انغاز صراعاً كاملاً ضد ديوهرنغ تحت شعار المادية المتأسكة متهماً المادي ديوهرنغ بتشويه جوهر القضية ، بالتلاعب بالألفاظ ، بالكلام الفارغ وبأساليب محاكماته التي تشكل تراجعاً أمام المثالية وانتقالاً إلى مواقع المثالية . فإما مادية متأسكة حتى النهاية وإما دجل المثالية الفلسفية وتشويهاً – هكذا يطرح انغاز المسألة في كل مقطع من « ضد ديوهرنغ » ، ولا يستطيع أن يلاحظ ذلك إلا أناس ذوو أدمغة أفسدها الفلسفة الرجعية الأكاديمية . سوحن في عام ١٨٩٤ ، عندما كتب انغاز مقدمة « ضد ديوهرنغ » بطبعته الأخيرة المعاد النظر فيها والمضاف إليها ، استمر يتتبع الفيزياء وعلم الطبيعة الحديثين ، وظل يصر بالحزم السابق نفسه على موقفه الصلب والواضح ، مشيراً إلى تلفيقات النظم والنظريات الصغيرة الجديدة .

ومن الواضح أن انغاز كان يتتبع الفلسفة الجديدة منذ كتابة « لودفيغ فيورباخ » ، ففي مقدمة الكتاب لعام ١٨٨٨ ، يتكلم عن ظاهرة بعث الفلسفة الألمانية الكلاسيكية في انكلترا والبلاد الاسكندنافية . أما عن الكنتية والهيومية الساندتين ، فليس لدى انغاز (في المقدمة وفي متن الكتاب) من كلمات إلا تلك التي تعبر عن منتهى الازدراء . ومن الجلي تماماً أن انغاز كان مستعداً ، وهو يرصد ما تردده الفلسفة الإنكليزية والألمانية الشائعة من أخطاء الكنتية والهيومية القديمة العائدة إلى ما قبل هيغل ، لأن ينتظر خيراً حتى من العودة إلى هيغل (في انكلترا أو البلاد الاسكندنافية) ، آملاً أن يستطيع الديالكتيكي والواقعي الكبير المساعدة على رؤية الضلالات الميتافيزيكية والمثالية التافهة . ويرفض انغاز ، مباشرة ، التراجع الرئيسي للكنتية الجديدة في ألمانيا والهيومية في انكلترا عن المادية ، دون أن يدخل في مناقشة العدد الكبير من الفروق داخل كل منها ، ويدعو بجمل الاتجاه في هاتين المدرستين « خطوة علمية إلى الوراء » . وكيف يقيم الميل الذي لاسك في « وضعيته » (من وجهة نظر التعابير الشائعة) وفي « واقعته » هؤلاء

الوضعين الجدد والمهيومين الذين يعرف واحداً منهم على الأقل هو هيكسلي ؟ . هذه «الوضعية» وهذه «الواقعية» اللتان تغريان عدداً لاحصر له من المضللين ، أعلن انغلاز أنه يراهما ، في أحسن الأحوال ، أسلوباً مرئياً للتسلل إلى المادية سرّاً ثم التشهير بها علناً ، ثم التبرؤ منها .

ويكفي أن نفكر لحظة بمثل هذا التقييم الذي قيمّ به انغلاز هيكسلي ، أكبر عالم طبيعي ، والأكثر وضعية وواقعية بما لا يقاس من ماخ وأفيناريوس وشركائهما ، لنفهم مقدار الازدراء الذي كان انغلاز سيقابل به الشغف الحالي بالوضعية الحديثة والرائعية الحديثة عند فئة من الماركسيين .

كان ماركس وانغلاز ، منذ البداية وحتى النهاية ، حزبين في الفلسفة ، وكانا يعرفان كيف يكتشفان أي تراجع عن المادية ، واية مسيطرة للمثالية والإيمانية في الاتجاهات « الحديثة » كلها . فلماذا قima هيكسلي ، من وجهة نظر الانسجام مع المادية حصراً . ولهذا أخذنا على فيورباخ كونه لم يسر بالمادية حتى نهاية الشوط إذ ارتدّ عن المادية بسبب أخطاء بعض الماديين ، و كونه حارب الدين بهدف تجديد أو إنشاء دين جديد ، ولم يعرف أن يبتعد عن اللغو المثالي في علم الاجتماع ويصبح مادياً ...

... ومن سوء حظ الماخيين الروس أنهم ، وقد فكروا « بالتوفيق » بين الماخية والماركسية ، أولوا اساتذة الفلسفة الرجعيين كل ثقتهم ، وبعدها أخذوا ينزلقون في منجد خطر .

إن اساليب محاولاتهم في تطوير الماركسية وإكmalها كانت غير ذكية بالمرّة . فهم يقرؤون أوستوالد ، ويثقون بأوستوالد ، ويرددون أوستوالد ، ثم يسمون هذا ماركسية . يقرؤون ماخ ويثقون بماخ ويرددون ماخ ، ثم يسمون هذا ماركسية . يقرؤون بوانكاريه ويثقون ببوانكاريه ويرددون بوانكاريه

ويسمون هذا مار كسية ! لا يمكن تصديق أي كلمة يتفوه بها أي من هؤلاء الاساتذة المؤهلين لأن يعطوا أمن المعلومات في مجالات اختصاصهم ، سواء كانت الكيمياء أو التاريخ أو الفيزياء ، عندما يتطرق الحديث الى الفلسفة ، لماذا ؟ للسبب نفسه الذي لا يجوز لنا بموجبه ان نشق بأي استاذ اقتصاد سياسي مؤهل لأن يقدم اجائاً قيمة جداً من حيث الوقائع ، عندما يتطرق الكلام الى النظرية العامة للاقتصاد السياسي. لأن الاقتصاد السياسي ، كنظرية للمعرفة ، علم حزبي في المجتمع المعاصر ، ولأن اساتذة الاقتصاد هم بالتمام والكمال « حانوتيون علماء » لدى طبقة الرأسماليين ، كما أن اساتذة الفلسفة حانوتيون علماء لدى اللاهوتيين .

ومهمة الماركسيين ، هنا وهناك ، ان يأخذوا ويتمثلوا منجزات هؤلاء « الحانوتين » (فلن نخطوا خطوة واحدة في دراسة الظواهر الاقتصادية الجديدة ، مثلاً ، ما لم تستفيدوا من مؤلفات هؤلاء « الحانوتين ») ثم ان يعرفوا كيف يجتثون اتجاههم الرجعي ، ويطبقون خطهم ويناضلون ضد خط القوى والطبقات المعادية لنا كله . وهذا ما لم يستطع ان يفعله ماخيونا الذين انقادوا انقياداً أعمى وراء الفلسفة الرجعية لهؤلاء الاساتذة . « قد نكون ضللنا ولكننا نجث » هذا ما يقوله لونا تشارسكي باسم مؤلفي « مقالات »^٦ . . لستم انتم الذين تبجثون ولكنهم هم الذين يبعثون عنكم ، وهذه هي المصيبة ! لستم انتم الذين تتناولون من وجهة نظركم ، أي وجهة النظر الماركسية ، (فأنتم تودون ان تكونوا ماركسيين) كل انعطاف في تقلبات الفلسفة البرجوازية ، بل إن التقلية هي التي تأتي اليكم وتفرض عليكم تعريفاتها المفعمة بروح المثالية ، اليوم على طريقة اوستوالد ، وغداً على طريقة ماخ ، وبعد غد على طريقة بوانكاريه . وتلك التحايلات « النظرية » الغبية (كالطاقة ، والعناصر الخ ..) التي تصدقونها بسذاجة تبقى في حدود مدرسة ضيقة . أما الاتجاه الفكري والاجتماعي لهذه التحايلات فإنه يحقق

ما يرمي اليه ، وهذا ما يدركه مباشرة ، الأول ورديون ، والتجريبيون الانتقاديون ، وأصحاب نظرية التداخل ، واللاباتينيون ، والذرائعيون . إن الإفتتان بالتجريبية الانتقادية والمثالية « الفيزيائية » يمر بسرعة ، كالافتتان بالكنطية الجديدة والمثالية « الفيزيولوجية » ، أما الايمانية فتغنم من مثل هذا الافتتان ، ملونة بألف لون تخايلاتها لمصلحة المثالية الفلسفية .

إن الموقف من الدين والموقف من العلوم الطبيعية يوضحان ، بشكل ممتاز ، هذا الاستخدام الطبقي الفعلي للتجريبية الانتقادية من قبل الرجعية البرجوازية .

خذوا المسألة الأولى . ألا تعتقدون أنها محض صدفة ان يكون لوناشارسكي قد توصل ، في مؤلف جماعي ضد فلسفة ماركس ، الى حد تأليه القدرات الانسانية العليا ، حتى « الإلحاد الديني » الخ .. ؟

إذا كنتم تفترضون هذا ، فما ذلك إلا لأن الماخين الروس لم يوضحوا للجمهور بشكل صحيح التيار الماخي كله في اوربا ، وموقف هذا التيار من الدين . فنحن لا نجد شيئاً من هذا عند ماركس وانغاز وديتسغن أوحى عندفيورباخ ، بل نجد العكس مباشرة ، بدءاً من تصريحات بيتسولت الذي يقول إن التجريبية الانتقادية لا تتعارض مع الايمان ولا مع الإلحاد ، الى تصريح ماخ بأن الآراء الدينية قضية شخصية ، وانتهاءً بالايمانية الصريحة وبرجعية كورنيليوس السوداء الصريحة ، وهو الذي كان يمدح ماخ وماخ يمدحه ويمدح كاروس وأصحاب نظرية التداخل جميعاً . وما حياد الفيلسوف ، في هذه المسألة ، إلا خضوع للإيمانية ، فلم يرتفع ماخ وأفيناريوس ولا كان بإمكانهما ان يرتفعا الى أعلى من الحياء بسبب منطلقات نظريتهما في المعرفة . بما أنكم تنكرون الواقع الموضوعي المعطى لنا في إحساسنا ، فقد فقدتم كل سلاح ضد الايمانية ، لأنكم تكونون قد انزلتم الى اللادرية ، أو الذاتية ،

وهذا ما تحتاجه الايمانية . إذا كان العالم الحسي واقعاً موضوعياً ، فالباب مغلق أمام أي حقيقة أو شبه حقيقة أخرى (تذكروا أن بازروف صدق بواقعية التداخلين الذين أعلنوا أن الله « مفهوم واقعي ») . وإذا كان العالم مادة متحركة فمن الممكن والواجب دراسة هذه الحركة دراسة لا حدود لها في تجلياتها وأشكالها الجزئية المعقدة الى ما لا نهاية . ولكن خارج هذه المادة ، خارج العالم الفيزيائي ، « والخارجي » المعروف لنا جميعاً ، لا يمكن ان يوجد شيء . ان العداء للمادية وسيل الافتراءات الموجهة الى الماديين وكل هذا في اوربا ، اوربا المتمدنة والديمقراطية ، هو موضوع الساعة ولا يزال مستمراً حتى الآن ، ويخفيه عن الجمهور الماخيون الروس ، الذين لم يحاولوا ولو مرة واحدة ان يقارنوا تهجمات ماخ وأفيناريوس وبيسولت وشركاهم على المادية بتصریحات فيورباخ وماركس وانغلز وديتسغن لصالح المادية. غير ان « إخفاء » علاقة ماخ وأفيناريوس بالايمانية لن يساعدكم في شيء . ان الوقائع تفصح عن نفسها، ولن تستطيع جميع المحاولات في العالم ان تمحو العار الذي لوئتهم به قبلات أوورد والانتقادين الجدد وشووبي وشوبرت زولدبيرن ولكير والذرائعيين الخ ... وتأثير هؤلاء الاشخاص، فلاسفة واساندة ، وانتشار افكارهم في الجمهور « المثقف » ، أي البرجوازي ، والمؤلفات التي نشروها ، أوسع وأغنى عشرات المرات من مدرسة ماخ وأفيناريوس الصغيرة الخاصة . ان هذه المدرسة تخدم من يجب أن تخدمه وتُستغل كما يجب ان تستغل .

إن الأشياء المعيبة التي انحدر اليها لوناتشارسكي ليست استثناءً ، بل وليدة التجربة الانتقادية الروسية والألمانية معاً ، . ولا يمكن الدفاع عنها « بنوايا مؤلفها الطيبة » أو بالمعنى الخاص لكلماته : فلو كان هذا المعنى مباشراً وعادياً ، أي إيماناً ، لما تحدثنا إلى المؤلف في هذا الموضوع ، لانه لا يوجد على الأرجح

ماركسي إلا ويعتبر أن هذه التصريحات تضع أناتولي لوناتشارسكي على قدم المساواة تماماً مع بيوتروستروفي . وإذا كان هذا لم يتم ، (وهو لمّا يتم) فحصرأ لاننا نرى معنى « خاصاً » لكلماته ، ونحاربه ما دامت هناك أرضية لحرب رفاقية ، والعار في تصريحات لوناتشارسكي هو ، على وجه الدقة ، أنه استطاع أن يربطها بنواياه الطبية .

والشر الناجم عن نظريته هو أنها تترك مجالاً لمثل هذه الوسائل أو الاستنتاجات في تحقيق النوايا الطبية . والمصيبة هي أن النوايا الطبية تبقى في أحسن الأحوال قضية ذاتية تتعلق بكارب أو بطرس أو سيدور ، أما المعنى الاجتماعي لتصريحات كهذه فحتمي ومؤكد ، لا تستطيع أي تحفظات أو توضيحات أن تخفف منه .

على الإنسان أن يكون أعمى كي لا يرى القوابة الفكرية بين نأليه الطاقات الانسانية العليا عند لوناتشارسكي « والاستبدال العام » للطبيعة الفيزيائية كلها بما هو نفسي عند بوغدانوف . إنها فكرة واحدة ، جرى التعبير عنها في الحالة الأولى من وجهة نظر جمالية بالدرجة الأولى ، ومن وجهة نظر معرفية في الحالة الثانية . إن « الاستبدال » يقترب بصمت من الناحية الأخرى ، مؤلهاً القدرات الانسانية العليا ، عازلاً ما هو نفسي عن الإنسان ، ومستبدلاً الطبيعة الفيزيائية كلها بما هو واسع بلا حدود ، بما هو مجرد وإلهي ميت ونفسي بوجه عام . وماذا عن « لوغوس » يوشكافيتش المدرج في « التيار اللامعقول لما هو معطى » ؟

يقول مثل المعروف : « عندما يُنشَب الخلب فقل على صغار الطير السلام » . وما خيونا كلهم قد غرقوا في المثالية ، أي في الإيمان الرقيقة ، غرقوا منذ اللحظة التي اعتبروا فيها أن الاحساس ليس صورة للعالم الخارجي ، بل « عنصراً »

خاصاً . إن الأحساس ، النفسية ، الروح ، الإرادة لا تخص أحداً - إلى هذا
ننحدر حتماً إن لم نعتزف بالنظرية المادية القائلة بقدرة وعي الإنسان على عكس
العالم الخارجي الواقعي الموضوعي . . .

كتب في شباط - تشرين الأول

عام ١٩٠٨

ج ١٨ ص : ٩٨ - ٩٩ - ١٠٠ ، ١٠١ - ١٠٣ ، ١٣١ -

١٣٢ ، ١٣٧ ، ١٣٨ - ١٣٩ ، ١٤٥ - ١٤٦ ، ٢٤٤ -

٢٤٥ ، ٣٤٣ ، ٣٤٥ - ٣٤٦ ، ٣٥٦ - ٣٦٠ ، ٣٦٣ -

. ٣٦٧

إسهام في مسألة الديالكتيك

إن انشطار ماهو واحد ومعرفة أجزائه المتناقضة (انظر ما أورده فيلون عن المعرفة عند هيراقليط في بداية القسم الثالث من كتاب لاسال «فلسفة هيراقليط») هما ماهية الديالكتيك (إحدى ماهياته ، إحدى خصائصه أو سماته الأساسية ، إن لم تكن خاصته ، سمته الرئيسية) . هكذا بالضبط يطرح هيغل المسألة أيضاً . كما أن أرسطو يدور في كتابه - الميتافيزيكا - دوماً حول هذا ، ويناقش بالتالي هيراقليط وأفكاره . يجب أن توضع صحة هذه الناحية من مضمون الديالكتيك على محك تاريخ العلم ، ذلك أن هذه الناحية من الديالكتيك تولى قدراً غير كاف من الاهتمام بوجه عام (كما عند بليخانوف مثلاً) ، فتشابه المتناقضات يُؤخذ على أنه محصلة أمثلة (الحبة مثلاً ، الشيوعية البدائية مثلاً) والأمر نفسه موجود عند انغلز ولكن هذا يحدث في سبيل تيسير فهم الموضوع لا بوصفه قانوناً للمعرفة (وقانوناً للعالم الموضوعي) .

في الرياضيات + و - التفاضل والتكامل

في الميكانيك - الفعل وردّ الفعل .

في الفيزياء - الكهرباء الموجبة والسالبة .

في الكيمياء - اتحاد الذرات وانغلاقها وتفككها .

في علم الاجتماع - الصراع الطبقي .

إن تشابه المتناقضات (ألا يكون من الأصح أن نقول وحدتها ؟ مع أن الاختلاف بين التعبيرين ليس جوهرياً هنا ، وكلاهما صحيح بوجه عام) هو الاعتراف (اكتشاف) باتجاهين متناقضين ، متعارضين ، ينفي أحدهما الآخر ، في

مظاهر الطبيعة وعملياتها كلها (بما في ذلك الروح والمجتمع) . إن الشرط اللازم لمعرفة هذه العمليات كلها « في حركتها الذاتية » ، في تطورها العفوي ، في حياتها الحية ، هو معرفتها بوصفها وحدة متناقضات . التطور هو « صراع » المتناقضات . إن المفهومين الأساسيين (أو الممكنين؟ أو الملاحظين خلال التاريخ؟) في التطور هما : التطور بوصفه صغراً وكبراً ، وتكراراً ، والتطور بوصفه وحدة متناقضات (انشطار الواحد الى متناقضين ينفي أحدهما الآخر ويرتبط به) . ففي المفهوم الأول للحركة تهمل الحركة نفسها ، قوتها المحركة ، مصدرها ، الدافع اليها (أو أن هذا المصدر ينسب الى ما هو خارجي : الله ، الذات الخ . . .) وفي المفهوم الثاني يركز الانتباه بالضبط على معرفة مصدر الحركة الذاتية .

المفهوم الأول ميت ، باهت ، جاف . أما الثاني فنباض بالحياة . وهو - المفهوم الثاني - وحده يعطينا المفتاح لمعرفة « الحركة الذاتية » لكل ما هو كائن ، اذ يفسر « القفزات » ، « الإنقطاع في التطور » ، الانتقال إلى الضد والقضاء على القديم ونشوء الجديد .

وحدة المتناقضات (تطابقها ، تشابهها ، فعلها المتساوي) شيء مشروط ، مؤقت ، عابر ، نسبي . أما صراع المتناقضات التي تنفي إحداها الأخرى فمطلق ، كما هو مطلق التطور أو الحركة .

ملاحظة: اختلاف الذاتية (الرببية والسفسطائية الخ . .) عن الديالكتيك يقوم في أن الاختلاف بين النسبي والمطلق هو ذاته نسبي في الديالكتيك الموضوعي . فالنسبي يتضمن المطلق في الديالكتيك الموضوعي . أما بالنسبة للذاتية والسفسطائية فالنسبي نسبي فقط وينفي المطلق .

ففي كتاب رأس المال لكارل ماركس يجري تحليل أبسط علاقة في المجتمع البرجوازي (السلمي) وأهمها ، وأكثر ما نرى انتشاراً وجاهيرية ، العلاقة التي نراها مليارات المرات الا وهي تبادل السلع . ويكشف التحليل ، في هذه الظاهرة المتناهية البساطة ، في هذه الحلية الصغيرة للمجتمع البرجوازي ، عن تناقضات المجتمع المعاصر كلها (وبالتالي بدور تناقضاته كلها) .

كذلك يكشف لنا الكتاب ، في ما يتبع من عرضه للأمور ، تطور هذه التناقضات ، نموها ، حركتها ، وتطور هذا المجتمع في محصلة أجزائه المختلفة ، منذ البداية وحتى النهاية .

هكذا يجب أن يكون المنهج في عرض (وبالتالي دراسة) الديالكتيك عامة ، (إذ أن ديالكتيك المجتمع البرجوازي عند ماركس ليس الا حالة خاصة من الديالكتيك) ، أي الانطلاق من أبسط الفرضيات وأكثر ما نصادف منها انتشاراً وجاهيرية : اوراق الشجر خضراء ، ايفان انسان ، جوتشكا كلب - الخ . . . فهنا (كما لاحظ هيجل بعقريه) يوجد ديالكتيك : فالخاص هو عام (انظر ارسطو - الميتافيزيكا - جزء ٢ ص ١٠ ؛ الكتاب الثالث الفصل الرابع ، ترجمة شفيغلر . - البيت بوجه عام - فنحن لا نستطيع ان نقبل بوجود بيت ما ، بوجه عام ، الى جانب بيوت أخرى) اذا ان المتناقضين (الخاص يناقض العام) متشابهان ، الخاص لا يوجد الا في تلك العلاقة التي تؤدي الى العام . والعام يوجد فقط في الخاص ومن خلاله . فكل ما هو خاص هو ، بوجه أو بآخر ، عام . وكل ما هو عام هو جزء من ، أو جانب أو ماهية الخاص ، وكل ما هو عام لا يحيط الا بشكل تقريبي بالأشياء الأخرى الخاصة ، وكل ما هو خاص يدخل بشكل غير كامل فيما هو عام الخ الخ .. ان كل ما هو خاص مرتبط بآلاف السبل بأشياء ومظاهر وعمليات من نوع آخر الخ .. فتصبح عندنا هنا

عناصر، بذور مفهوم الضرورة والعلاقة الموضوعية في الطبيعة الخ. فالصدفة والضرورة، الظاهرة والماهية موجودتان هنا، فنحن اذ نقول : ايفان انسان، جوتشكا كلب، هذه ورقة شجرة، نتخلى عن مجموعة من العلامات بوصفها أموراً طارئة، ونبرز الجوهر من العارض، ونقابل أحدهما بالآخر.

وهكذا، من الممكن (ومن الواجب) أن نكشف في كل فرض، كما في البويضة أو الحلية، عن بذور عناصر الديالكتيك كلها، ونظهر أن الديالكتيك بوجه عام من خواص المعرفة الإنسانية كلها. ان العلوم الطبيعية تظهر لنا (ويجب ابراز ذلك في أبسط الأمثلة) الطبيعة الموضوعية في صفاتها كلها، كما تظهر تحول الخاص الى عام، والعارض الى ضروري، والممرات والتعرجات والعلاقة المتبادلة بين الأضداد. وما الديالكتيك الا نظرية المعرفة عند (هيجل) وفي الماركسية. هذا هو جانب الموضوع (ليس جانبه بل جوهره) الذي لم يعره بليخانوف، بله سواء من الماركسيين، انتباهها.

* * *

إن هيجل (انظر كتابه المنطق) وبول فولكمان (*) العالم المعاصر في نظرية المعرفة في العلوم الطبيعية والانتقائي وعدو الهيغلية (التي لم يفهمها) يمثلان معاً المعرفة بشكل مجموعة من الحلقات.

الحلقات في الفلسفة (هل من الضروري الترتيب الزمني بالنسبة للأشخاص ؟ كلا !)
 الفلسفة القديمة : من ديمقريط حتى أفلاطون وديالكتيك هيراقليط .
 فلسفة عصر النهضة : ديكرت الى غاسندي (سبينوزا ؟) .
 الفلسفة الجديدة : هولباخ - هيجل (عبر بركلي، هيوم، كنت) هيجل -
 فيورباخ، ماركس .

ان الديالكتيك، بوصفه معرفة حية (ذات جوانب متعددة تتزايد

(*) انظر كتابه : نظرية المعرفة في العلوم الطبيعية .

باستمرار) ، ينطوي على عدد لا يحصى من الفروق في تناول الواقع والاقتراب منه ، (مع نظام فلسفي ينمو متكاملًا من كل فرق) . ان هذا الديالكتيك أغنى من حيث المضمون بما لا يقدر من المادية « الميتافيزيكية » ، إذ ان عيها الرئيسي هو عدم قدرتها على استخدام الديالكتيك في نظرية الانعكاس ، وفي عملية المعرفة وتطورها .

ليست المثالية الفلسفية إلا هراء من وجهة نظر المادية الفجة ، البسيطة ، الميتافيزيكية . لكن المثالية الفلسفية من وجهة نظر المادية الديالكتيكية هي ، على العكس ، تطور وحيد الجانب ، مبالغ فيه (تورم ، انتفاخ) لأحد جوانب المعرفة أو سماتها أو حدودها ، يدفع به الى درجة المطلق ، المؤله ، المعزول عن المادة ، عن الطبيعة . المثالية كهنوتية . هذا صحيح . ولكن المثالية الفلسفية هي ، بالإضافة الى ذلك وبشكل أدق ، طريق الى الكهنوتية من خلال أحد فروع المعرفة المعقدة تعقيداً لا نهاية له عند الانسان (المعرفة الديالكتيكية) .

ليست معرفة الانسان خطأ مستقيماً ، وبالتالي فهي لا تسير وفق هذا الخط ، بل انها خط متعرج يقترب دائماً من مجموعة حلقات ذات شكل حلزوني . إن أي جزء ، قطعة ، كسرة ، من هذا الخط المتعرج ، يمكن أن يتحول ، من جانب واحد ، الى خط مستقيم ، مستقل ، متكامل يقود (إذا لم نكن بعيدي النظر) الى المستنقع ، الى الكهنوتية ، حيث تدعمه مصلحة الطبقات الحاكمة . ان المباشرة وأحادية الجانب ، ان التجبر والتبمس ، إن الذاتية والعمى الذاتي ، هي الجذور المعرفية للمثالية . وللکهنوتية (المثالية الفلسفية) جذورها المعرفية بالطبع ، فهي ليست فاقدة الأرضية . انها زهرة عقيمة دون سوك ، لكنها زهرة عقيمة تنمو على شجرة حية ، شجرة المعرفة الانسانية الحلقة الحصة الحقيقية القوية الكلية القدرة ، الموضوعية والمطلقة .

كتب عام ١٩١٥

ج ٢٩ ص ٣١٦ - ٣٢٢ .

الدّفاتر الفلسفيّة

من ملخص كتاب هيغل « علم المنطق » .

هيغل يحق تماماً ، من حيث الجوهر ، بالنسبة الى كنت . فالتفكير ، بانطلاقه من الشخص الى المجرّد ، لا يبتعد عن الحقيقة اذا كان صحيحاً (ملاحظة هامة) بل يقترب منها ، (و كنت ، كالفلسفة لهم ، يتحدث عن التفكير الصحيح) . ان تجريدات كالمادة وقانون الطبيعة والقيمة الخ ، وبكلمة واحدة ، التجريدات العلمية كلها (التجريدات الصحيحة ، الجادة ، الحقيقية) تعكس الطبيعة عكساً اعمق وأصدق وأكمل . فمن التأمل الحي الى التفكير المجرد ومنه الى الممارسة - هذه هي الطريق الديالكتيكية الى معرفة الحقيقة ، الى معرفة الواقع الموضوعي . ان كنت يحط من قدر المعرفة ليمهد الطريق للايمان ، اما هيغل فيرفع من قدرها مؤكداً ان المعرفة هي معرفة الله . أما المادي فيرفع من قدر معرفة المادة ، الطبيعة ، واضعاً الله والفلسفة التي تدافع عنه جانبا .

المعرفة التحليلية هي المقدمة الأولى للاستنتاج كله ، اي علاقة المفهوم المباشرة بالموضوع ، ولهذا فالتطابق هو ذلك التحديد الذي تقبل به المعرفة . وما هذه المعرفة إلا فهم ما هو موجود . اما المعرفة التأليفية فتسعى الى فهم ما هو موجود ، اي الى الإحاطة بتنوع التحديدات في وحدتها . ولهذا فهي الحد الثاني من الاستنتاج ، حيث يكون الشيء المتباين ، بما هو كذلك ، مترابطاً . فالضرورة هي هدفه بوجه عام (٢٨٨) .

ويرد هيغل الملاحظة التالية الذكية بصدد الطرق التي تتبعها بعض العلوم (كالفيزياء) بهدف « التوضيح » ، حين تأخذ « قوى » مختلفة وتحشر الوقائع وتقطها قسراً :

صحيح وعميق
بشكل رائع

قارن هذا الكلام
(بالاقتصاد السياسي)
للبرجوازية

ضد الذاتية والنظرة
الاحادية الجانب

أي أن كمنط لم يفهم
القانون العام لـ «الكتيك»
«النهائي» ؟

« إن ما يسمى بشرح المادة المشخصة المصححة في النظريات والبرهان عليها ، هو ، في بعضه ، ترديد فارغ ، وفي بعضه الآخر ، تشويه لوضع الأشياء الحقيقي ؛ وكثيراً ما استخدم هذا التشويه لإخفاء خداع المعرفة التي كانت تنتقي التجارب بشكل مجزوء . وبذلك كان هذا التشويه قادراً هو وحده على أن يصل بها إلى تعاريف وبراهين بسيطة . أما الاعتراض النابع من التجربة ، فقد كان هذا النوع من المعرفة يتجاوزه بالادعاء بأنه يفهم التجربة ويفسرها ، لا على أنها كل « مشخص » ، بل على أنها مثل ، ويفهمها في الوقت نفسه من الناحية التي تناسب فرضياته ونظرياته . إن خضوع التجربة المشخصة للتحديدات المسبقة يشوش أساس النظرية ويظهرها في جانبها المؤكد للنظرية فقط » (٣١٥ - ٣١٦) .

يزعمون أن كمنط وجاكوبي اسقطا الميتافيزيكا القديمة (ميتافيزيكا فولف مثلاً) [التباهي المضحك بالتوافه الخ] . لقد اظهر كمنط أن « البراهين الصارمة تؤدي إلى النقيض » (Antinomie) .

« لكن كمنط لم يفكر في الطبيعة ذاتها لهذا البرهان المرتبط بضمون نهائي ما ، في حين أن عليها أن يسقطا معاً » (٣١٧) .

المعرفة التأليفية معرفة غير تامة ، إذ أن « المفهوم لا يصبح وحدة ذاته مع ذاته في موضوعه أو في حقيقته . . ولهذا فإن الفكرة لا تصل في هذه المعرفة إلى الحقيقة نتيجة

عدم تطابق الموضوع مع المفهوم الذاتي - لكن مستوى الضرورة هو أعلى نقطة للوجود والانعكاس ، فتنحول بذاتها إلى حرية المفهوم ويتحول التشابه الداخلي إلى تجليه الذي هو المفهوم بما هو مفهوم ..

فالفكرة تصبح فكرة عملية ، فعلاً طالما أن المفهوم لذاته أصبح مفهوماً محدداً بذاته ، (٣١٩) .
عنوان المقطع الثاني هو : فكرة الخير .

هيفل

عن الممارسة
وموضوعية
المعرفة

على المعرفة النظرية ان تعطي الشيء في ضرورته ، في علاقته المتنوعة كلها ، في حركته المتناقضة في ذاتها ولذاتها . لكن المفهوم الانساني لا يحيط بهذه الحقيقة الموضوعية للمعرفة ويملكها « بشكل نهائي » الا عندما يصبح المفهوم « وجوداً لذاته » بمعنى الممارسة . أي ان ممارسة الانسان والانسانية هي اختبار لموضوعية المعرفة ومقياس لها . هل هذه هي فكرة هيفل ؟ يجب العودة الى هذا الموضوع .

لماذا الانتقال من الممارسة ، الفعل الى « الخير » فقط ؟
هذه نظرية ضيقة ، وحيدة الجانب / والنافع ؟
لا شك أن النافع يُدرَج ايضاً ، أو أنه « خير » ايضاً في رأي هيفل ؟

هذا كله في فصل « فكرة المعرفة » (الفصل الثاني) - في انتقاله الى «الفكرة المطلقة » (الفصل الثالث) . أي ان الممارسة في رأي هيفل تعتبر بدون شك حلقة في تحليل عملية المعرفة ، وبالذات انتقالاً الى الحقيقة الموضوعية (المطلقة حسب تعبير هيفل) وبالتالي فان ماركس بادراجه مقياس الممارسة في نظرية المعرفة ينضم مباشرة الى هيفل . انظر : موضوعات عن فيورباخ .

الممارسة في نظرية المعرفة

بعبارة أخرى ،
ان وعي الانسان لا يعكس العالم
الموضوعي فقط بل يخلقه .

إن المفهوم (=الانسان) ، بوصفه ذاتياً
يفترض من جديد وجوداً آخر قائماً بذاته
(= الطبيعة المستقلة عن الانسان) . وهذا
المفهوم (= الانسان) إن هو إلا نزوع
إلى تحقيق ذاته واعطائها من خلال ذاته
موضوعية في العالم الموضوعي ، وإلى
تحقيق ذاته .

ففي الفكرة النظرية (في مجال النظرية)
يناقض المفهوم (المعرفة ؟) الذاتي ،
بوصفه مفهوماً عاماً ومحروماً بذاته من
التحديد ، العالم الموضوعي الذي يستمد
منه مضموناً محدداً وامتلاء .

أما في الفكرة العملية (في مجال الممارسة)
فإن هذا المفهوم بوصفه واقعياً (فاعلاً؟)
يناقض العالم الواقعي .

وما الثقة في النفس التي تمتلكها
الذات [وفجأة توضع هذه الكلمة مكان
كلمة مفهوم] في وجودها بذاته ولذاته ،

(٣٢٠) إن المفهوم بوصفه ذاتياً
يفترض أيضاً وجوداً ما آخر في ذاته .
إنه نزوع إلى تحقيق ذاته ، وغاية تريد
أن تعطي ذاتها من خلال ذاتها موضوعية
في العالم الموضوعي وتحقيق ذاتها . ففي
الفكرة النظرية يناقض المفهوم الذاتي ،
بوصفه مفهوماً عاماً ومحروماً بذاته من أي
تحديد ، العالم الموضوعي الذي يستمد منه
لذاته مضموناً وامتلاء محددين . أما في
الفكرة العملية فإن هذا المفهوم يناقض ،
بوصفه مفهوماً واقعياً ، ما هو واقع .

وما الثقة في النفس التي تتصف بها
الذات في وجودها المحدد في ذاته ولذاته
إلا ثقة في واقعيتها ولا واقعية العالم ... ،

بوصفها ذاتاً محددة ، إلا ثقة في واقعيتها
ولا واقعية العالم .

أي ان العالم لا يرضي الانسان
فيقرر الانسان ان يغير العالم بعمله

كتب في الفترة من ايلول حتى كانون أول
عام ١٩١٤

من ملخص كتاب ارسطو « الميتافيزيكا »

ان تناول العقل (عقل الانسان) لشيء ما ونزع القشرة (= المفهوم)
منه ، ليساً فعلاً بسيطاً مباشراً ميتاً كانعكاس في مرآة ، بل فعلاً معقداً متشعباً
متعرجاً ينطوي على امكانية تخليق الخيال بعيداً عن الحياة وينطوي ، إلى ذلك ،
على امكانية تحويل المفهوم المجرد ، الفكرة ، إلى خيال (= إلى إله في نهاية
المطاف) ؛ زد على ذلك أن هذا التحوّل يجري دون أن يلاحظه الانسان أوعيه .
ففي أبسط أنواع التعميم ، وفي أكثر الأفكار بدائية وشيوعاً (الطاولة مثلاً)
شيء من الخيال . (وبالعكس ، من الحماقة بكان أن ننكر دور الخيال في أسدّ
العلوم صرامة : قارن ما قاله بيساريف في الحلم النافع بوصفه دافعاً الى العمل
وفي الحلم الفارغ .)

كتب عام ١٩١٥

من ملخص كتاب فيورباخ « محاضرات في ماهية الدين »

(٢٣٢) - يمكننا القول إن « الدين شعر » ، إذ إن الإيمان = خيال .

ولكن ألا أقضي (أنا فيورباخ) على الشعر ؟

كلا - فأننا (فيورباخ) أقضي على الدين بقدر
(التأكيد لفيورباخ) ما هو نثر بسيط لا بقدر ما هو شعر ،
ملاحظة (٢٣٣) .

إن الفن لا يطلب الاعتراف بمؤلفاته على أنها واقع (٢٣٣) .

كتب بعد عام ١٩٠٩

ج ٢٩ ص ١٥٢ - ١٥٣ ، ١٩١ ، ١٩٥ - ١٩٥ ، ٣٣٠ ، ٥٠

من مؤلفه

« من هم -أصدقاء الشعب- وكيف يحاربون الاشتراكيين الديمقراطيين »

[ردّة على مقالات روسكويي بوغاتستفو ضد الماركسيين]

... اصطدم السيد ميخايلونسكي على الدوام ، وهو يطالع الكتابات الماركسية ، بالطريقة الديالكتيكية ، في علم الاجتماع ، و « بالتفكير الديالكتيكي » في حل القضايا الاجتماعية أيضاً (الحقل المقصود الوحيد) ، الخ . وقد تصور لسذاجته (هذا إذا لم يكن ثمة دافع آخر غير السذاجة) أن هذه الطريقة تقوم في حلّ المسائل الاجتماعية كلها وفقاً لقوانين الثلاثة الهيغلية . ولأنه أعار الأمر انتباهاً أكثر بقليل ، لكان ، من المؤكد ، اقتنع بخفاة هذا التصور . إن ما يسميه ماركس وانغلز الطريقة الديالكتيكية - خلافاً للطريقة الميتافيزيقية - ليس الا طريقة علمية في علم الاجتماع ، تقوم على النظر الى المجتمع بوصفه جهازاً حياً يتطور باستمرار (لا شيئاً مترابطاً بصورة ميكانيكية ، يتبع بالتالي شتى أنواع التراكيبات الاعتبارية بين مختلف العناصر الاجتماعية) ، جهازاً عضوياً تتطلب دراسته تحليلاً موضوعياً لعلاقات انتاجية تشكل بنية اجتماعية معينة ، ودراسة لقوانين عملها وتطورها . وسنحاول ، فيما بعد ، أن نوضح علاقة الطريقة الديالكتيكية بالطريقة الميتافيزيقية (التي تشمل بلا ريب الطريقة الذاتية في علم الاجتماع) ، بأمثلة مستقاة من محاضرات السيد ميخايلوفسكي ذاته . أما الآن فلنلاحظ فقط أن كل من قرأ تعريف الطريقة الديالكتيكية ووصفها سواء عند انغلز (في جداله ضد ديوهرنغ وقد ظهر في الروسية بعنوان : « تطور الاشتراكية من طوباوية الى علمية ») ، أو عند ماركس (ملاحظات مختلفة في كتابه « رأس المال » ، « ملحق ،

الطبعة الثانية ؛ « بؤس الفلسفة ») يرى أنها لا يشيران بشيء الى ثلاثيات هيجل ، وان كل شيء عندهما يقتصر على النظر الى التطور الاجتماعي بوصفه عملية تطور تاريخية للبنى الاقتصادية الاجتماعية . ودليلاً على ذلك سأورد وصفاً كلفاً للطريقة الديالكتيكية كما جاء في « فيسنتك ايفروني » (« بشير اوروبا ») سنة ١٨٧٢ العدد ٥ (ملاحظة : « وجهة نظر النقد الاقتصادي السياسي عند ماركس) وهو الوصف الذي أورده ماركس في « ملحق » الطبعة الثانية من « رأس المال » . فقد قال ماركس إن الطريقة التي طبقها في « رأس المال » قد أسيء فهمها . « وبالطبع زعم النقاد الألمان منادين بوجود سفسطة هيغلية » . ولكي يعرض ماركس طريقته بمزيد من الوضوح ، وصفها في الملاحظة الآتية الذكر . وقد جاء فيها إن نقطة واحدة نهم ماركس ، هي اكتشاف قانون الظواهر التي يحملها . هذا مع العلم أن ما يهمه بالدرجة الأولى ، انما هو قانون تغير تطور ، هذه الظواهر وانتقالها من شكل إلى آخر ، من نظام علائق اجتماعية إلى نظام آخر . ولذا فإن ماركس لا يهتم الا بشيء واحد ، هو تبين ضرورة نظم معينة من العلاقات الاجتماعية ، اعتماداً على البحث العلمي الدقيق ، وتقدير الوقائع التي يستخدمها نقطة انطلاق وارتكاز بأقصى دقة ممكنة . ولهذا الغرض يكفيه تماماً ، وهو يبرهن ضرورة النظام الحالي ، أن يبرهن في الوقت نفسه ضرورة نظام جديد آخر ، لا بد له أن ينبثق حتماً من الأول ، سواء آمن الناس بهذه الضرورة أم لم يؤمنوا بها ، سواء وعوها أو لم يعوها . إن ماركس يرى الحركة الاجتماعية عملية طبيعية تاريخية تخضع لقوانين لا تتوقف على إرادة الناس ووعيهم ولا على ونواياهم ، بل هي بالعكس ، تحدد ارادتهم ووعيهم ونواياهم . (وهذا لعلم السادة الذاتيين الذين يفصلون التطور الاجتماعي عن التطور الطبيعي التاريخي لهذا السبب ، وهو أن الانسان يضع نصب عينيه « أهدافاً » واعية ويسترشد بمثل عليا محددة) . وإذا كان عنصر الوعي يضطلع في تاريخ الثقافة بمثل هذا الدور الثانوي ، فمن المفهوم أن

النقد (وموضوعه هو هذه الثقافة نفسها) لا يمكن ان يكون اعتماده على أي من أشكال الوعي أو نتائجه إلا أقل من اعتماده على أي شيء آخر . أي بتعبير آخر ، إن نقطة انطلاق النقد لا يمكن أن تكون الفكرة بل الظاهرة الخارجية الموضوعية فقط . فعلى النقد أن يقوم لا على مقارنة حادثة بفكرة ، بل حادثة بحادثة أخرى . إن ما يهمه ، هو أن تُدرس الحادثتان كلتاهما بأقصى دقة ممكنة ، وأن تمثل إحداها بالنسبة للأخرى مرحلتين مختلفتين من مراحل التطور ؛ ومن الضروري ، على الأخص ، دراسة جملة من الحالات المعروفة وتعاقبها ، والصلة القائمة بين شتى درجات التطور ، دراسة تتصف بالدقة السابقة نفسها . إن مار كس ينكر بالضبط تلك الفكرة القائلة إن قوانين الحياة الاقتصادية هي ذاتها للماضي كما للحاضر . بل على العكس ، فلكل مرحلة تاريخية قوانينها الخاصة . والحياة الاقتصادية ظاهرة ماثلة لتاريخ التطور في سائر فروع البيولوجيا . إن الاقتصاديين السابقين لم يدر كوا طبيعة القوانين الاقتصادية حين قانونوها بقوانين الفيزياء والكيمياء . والتعمق في التحليل يبين أن الأجهزة العضوية الاجتماعية تتمايز فيما بينها بنفس العمق الذي تتمايز به الأجهزة العضوية الحيوانية أو النباتية . وحين أخذ مار كس على عاتقه أن يبحث ، من وجهة النظر هذه ، التنظيم الاقتصادي الرأسمالي ، صاغ ، بكل صرامة علمية ، الهدف الذي يجب على كل دراسة دقيقة للحياة الاقتصادية أن ترمي إليه . أما القيمة العلمية لهذه الدراسة فتقوم في توضيح القوانين الخاصة (التاريخية) التي تنظم ظهور بنية اجتماعية ما ، ووجودها ، وتطورها ، وموتها ، واستبدالها ببنية أخرى أرقى ..

... . لقد أوردنا أعلاه تصريح السيد ميخائيلونسكي القائل إن المادية لم تثبت قيمتها في « العلم » (ربما في علم « أصدقاء الشعب » ، الألمان ؟) ولكن هذه المادية ، كما يقول السيد ميخائيلونسكي ، « تنتشر فعلاً بسرعة بالغة في صفوف الطبقة العاملة » . فكيف يفسّر السيد ميخائيلونسكي هذا الواقع ؟ انه يعلن قائلاً : « فيما يتعلق بالنجاح العريض إذا جاز القول ، الذي تلقاه المادية الاقتصادية ،

وبهذا الشمول الذي لم تثبت صحته بصورة انتقادية ، فإن مركز ثقل هذا النجاح ليس في العلم ، بل في النشاط العملي اليومي الذي ترسمه آفاق المستقبل . فأي معنى يمكن أن يكون لهذه الجملة السيئة التركيب حول النشاط العملي الذي « ترسمه » آفاق المستقبل ، سوى أن المادية تنتشر ، لأنها فسرت الواقع تفسيراً صحيحاً ، بل لأنها انصرفت عن هذا الواقع نحو آفاق المستقبل ؟ ويقول فيما بعد : « إن هذه الآفاق لا تتطلب من الطبقة العاملة الألمانية التي نبنتها - ولا من الذين يهتمون بالعلم بالاهتمام بصير هذه الطبقة - معارف ، أو أعمال فكر تقدي فيها . إنما لا تتطلب إلا الإيمان » . وبتعبير آخر ، إن انتشار المادية والاشتراكية العلمية من حيث السعة ناجم عن كون هذا المذهب يعد العمال بمستقبل أفضل ! ولكن ، حسب المرء أن يكون ملماً بأبسط المعلومات عن تاريخ الاشتراكية والحركة العمالية في الغرب ، حتى يرى كل ما في هذا التفسير من اختلاق وزيف . فكل إنسان يعرف أن الاشتراكية العلمية لم ترسم قط أية آفاق للمستقبل بالذات : فقد اكتفت بتحليل النظام البرجوازي الحالي ، ودراسة اتجاهات تطور التنظيم الاجتماعي الرأسمالي ، لا أكثر . « نحن لا نقول للعالم ، نحن لا نقول له : « كف عن النضال فكل نضالك باطل » ، إنما نعطيهِ الشعار الحقيقي للنضال ، إنما نبين له فقط في سبيل أي غرض بالذات يناضل ، وإحالة ، إن الوعي شيء على العالم أن يكتسبه شاء أم أبى » . هكذا كتب ماركس في عام ١٨٤٣ ، وقد نفذ هذا البرنامج بكل دقة . إن كل امرئ يعرف مثلاً ، أن « رأس المال » ، - هذا المؤلف الرئيسي والأساسي الذي يعرض الاشتراكية العلمية - يقتصر على أعم التلميحات بصدد المستقبل ، ولا يبحث غير العناصر الموجودة اليوم ، والتي ينبثق منها النظام المقبل . وفيما يخص آفاق المستقبل يعرف كل امرئ أن الاشتراكيين السابقين قد أعطوا منها أكثر مما لا حده ، وهم الذين كانوا يرسمون المجتمع المقبل بكل تفاصيله ، رغبة منهم في إغراء الإنسانية بصورة نظام لا يحتاج فيه الناس

الى النضال ، ولا تقوم فيه علاقاتهم الاجتماعية على الاستثمار ، بل على مبادئ تقدمية حقيقية ، متطابقة للطبيعة البشرية . ومع ذلك ، ورغم كوكبة من ذوي المواهب الفذة الذين عرضوا هذه الأفكار ، وطائفة من أشد الاشتراكيين اقتناعاً ، ظلت نظرياتهم على هامش الحياة ، وبرامجهم على هامش الحركات السياسية الشعبية ، الى أن اجتذبت الصناعة الآلية الكبيرة جماهير البروليتاريا العاملة الى زوبعة الحياة السياسية ، ووجد الشعار الحقيقي لنضالها . وهذا الشعار وجدته ماركس « الذي لم يكن طوباوياً ، بل عالمياً صارماً ، وجافاً أحياناً » ، كما وصفه ميخائيلوفسكي في أزمنة بعيدة جداً ، في عام ١٨٧٢ ؛ وهذا الشعار لم يوجد بواسطة أية آفاق ، بل بالتحليل العالمي للنظام البرجوازي المعاصر ، بتفسير ضرورة الاستثمار في ظل مثل هذا النظام ، بدراسة قوانين تطوره . وبديهي ان السيد ميخائيلوفسكي يستطيع ان يؤكدها كقراء « روسكويي بوغاتستفو » ان ليس ثمة حاجة ، من اجل فهم هذا التحليل ، لا إلى معارف ولا الى اعمال الفكر . ولكنه سبق لنا ورأينا عنده (وسنرى ما هو اكثر ايضاً عندما نعالق الاقتصادى (*)) عدم تفهم فظ للحقائق الأولية التي اثبتها هذا التحليل ، بحيث ان مثل هذا التاكيد لا يمكن بالطبع الا ان يثير الابتسام . غير ان امراً يبقى أكيداً هو ان الحركة العمالية تنتشر وتنمو ، بالضبط حيث تتطور الصناعة الآلية الكبيرة الرأسمالية وبقدر ما تتطور هذه الصناعة ، وان المذهب الاشتراكي يلقي النجاح ، بالضبط حين يطرح جانباً المحاكمات حول الشروط الاجتماعية المطابقة للطبيعة البشرية ، وينصرف الى تحليل العلاقات الاجتماعية المعاصرة تحليلاً مادياً ، الى تفسير ضرورة النظام الاستغلالي الحالي .

كتب في ربيع - صيف

عام ١٨٩٤

ج ١ ، ص ١٦٥ - ١٦٧ ، ١٨٦ - ١٨٨

(*) هو س . ن يوجاكوف

من مقال

المحتوى الاقتصادي للشعبية ونقده في كتاب السيد ستروفي

[انعكاس الماركسية في الكتابات البرجوازية]

... لا يمكننا أن نمر بملاحظة السيد ستروفي الموجهة للسيد ميخايلوفسكي دون أن نعترض عليها . يقول الكاتب : « لا توجد من وجهة نظره (نظر ميخايلوفسكي) اتجاهات تاريخية لا يمكن تجاوزها . وعلى هذه الاتجاهات التاريخية ، لكونها كذلك ، أن تُستخدم نقطة انطلاق من ناحية ، وحدوداً ضرورية للنشاط الهادف للشخصية والمجموعات الاجتماعية من ناحية أخرى » .

إن هذا كلام إنسان موضوعي لا إنسان ماركسي (مادي) . فبين هذين المفهومين (النظامين في النظرات) فرق يجب التوقف عنده ، لأن عدم توضيح هذا الفرق توضيحاً تاماً هو أحد نقائص كتاب ستروفي الرئيسية التي تبرز في معظم محاضراته .

الإنسان الموضوعي يتحدث عن ضرورة عملية تاريخية ما ، أما المادي فيقرر بدقة بنية اقتصادية اجتماعية معينة والعلائق المتناقضة الناشئة عنها . إن الموضوعي عرضة دوماً ، وهو يبرهن على ضرورة مجموعة ما من الوقائع ، لأن ينتقل الى وجهة نظر العناصر لهذه الوقائع . أما المادي فيكشف التناقضات الطبقية محدداً بذلك وجهة نظره . الموضوعي يتحدث عن « اتجاهات تاريخية لا يمكن تجاوزها » ، أما المادي فيتحدث عن تلك الطبقة التي « تدير » نظاماً اقتصادياً ما ، خالقة بذلك أشكالاً مختلفة من المعارضة عند غيرها من الطبقات . وهكذا فإن المادي أكثر تماسكاً من الموضوعي ، ويطبق موضوعيته بشكل أعمق واكمل . فهو لا يكتفي بالإشارة

الى ضرورة عملية ما ، بل يظهر ايّ البنى الاقتصادية الاجتماعية تعطي هذه العملية محتواها ، واي الطبقات تحدد هذه العملية . وفي هذه الحالة مثلاً ، لم يكن المادي ليكتفي بتقرير الاتجاهات التاريخية التي لا يمكن تجاوزها ، بل يشير الى وجود طبقات معينة تحدد محتوى هذه النظم وتنفي امكانية وجود مخرج بدون مشاركة المنتجين انفسهم. ومن ناحية أخرى فإن المادية تنطوي في ذاتها ، إن صحّ التعبير، على الحزبية مجبرة الانسان على الأخذ بوجهة نظر مجموعة اجتماعية معينة بشكل مباشر وصريح عندما يقيم أي ظاهرة .

أواخر عام ١٨٩٤ أوائل عام ١٨٩٥

ج ١ ص ٤١٨ - ٤١٩ .

المسألة الزراعية « ونقاد ماركس »

... أما أن الاشتراكيين الديمقراطيين يحسنون تقدير الفضل التاريخي لمراكز الطاقة والثقافة العظيمة فأمر يبرهنون عليه بنضالهم الذي لا يعرف الهوادة ضد كل ما من شأنه أن يثبت السكان بعمامة والفلاحين والعمال الزراعيين بخاصة في أماكن عملهم . ولذا لا يمكن لأي مزارع غني يسعى إلى تقديم أجور شتوية للفلاح أن يخذلهم كما يخذع هؤلاء النقاد . لكن الاعتراف القاطع بتقدمية المدن الكبيرة لا يمنعنا أبداً من أن نضمن مثلنا الأعلى (وبرنامج عملنا ، إذ أننا نترك المثل العليا التي لا يمكن تحقيقها إلى أمثال السيدين ستروفي وبيرديايف) القضاء على التعارض بين المدينة والقرية . وليس صحيحاً أن هذا معناه الإعراض عن كنوز العلم والفن ، بل بالعكس ، هذا ضروري لنجعل هذه الكنوز في متناول الشعب كله ، ولنقضي على غربة الملايين من سكان القرى عن الثقافة ، هذه الغربة التي أسماها ماركس بذلك « غباء الحياة القروية » . وفي الوقت الراهن ، حيث أصبح بالإمكان نقل الطاقة الكهربائية إلى مسافات بعيدة وارتفع مستوى تقنية المواصلات إلى درجة أصبح ممكناً معها نقل الركاب بسرعة تتجاوز ٢٠٠ فرسخ في الساعة وبتكاليف أقل (بالنسبة للتكاليف الحالية) ، فليس هناك على الإطلاق أي مانع تقني يمنع كافة السكان ، المنتشرين بشكل متساوٍ إلى هذا الحد أو ذاك في أنحاء البلد ،

من الإفادة من كنوز العلم والفن التي ظلت قروناً طويلة متوفرة في مراكز قليلة .

وإذا لم يكن هناك ما يمنع نحو الفرق بين المدينة والقرية (وعلينا ، بالطبع ، أن نتصور عملية المحو هذه لا بشكل عمل واحد بل بشكل مجموعة من الاجراءات) ، فليس « الشعور الجمالي » وحده هو الذي يتطلب ذلك ...

كتب في حزيران - ايلول ١٩٠١

ج ٥ ص ١٥٠ - ١٥١

التنظيم الحزبي والأدب الحزبي^(١١)

لقد طرحت ظروف العمل الاشتراكي الديمقراطي الجديدة التي نشأت في روسيا بعد ثورة اوكتوبر^(١٢) مسألة الأدب الحزبي . وقد بدأ الفرق بين الصحافة الشرعية والصحافة غير الشرعية — هذه التركة المخزنة من عهد روسيا الاقطاعية ، الاستبدادية — بالزوال . إنه لم يضمحل بعد ، ولا يزال اضمحلاله غير قريب . فما زالت حكومة رئيس وزراءنا المرائية تعيش فساداً حتى أن « أخبار سوفيت النواب العمال »^(١٣) تطبع بشكل غير شرعي . ولكن الحكومة ، بمحاولاتها الغبية « منع » ما ليس في قدرتها أن تمنعه ، لا تجلب على نفسها إلا العار وصفعات معنوية جديدة .

كانت مسألة الصحافة الحزبية وغير الحزبية محل ، مع وجود الفرق بين الصحافة الشرعية وغير الشرعية ، بمنتهى البساطة والزيف والتشويه . فالصحافة غير الشرعية كلها كانت حزبية ، وكانت تصدرها تنظيمات وتديرها جماعات ترتبط بشكل أو بآخر بمجموعات من العاملين الفعليين في الحزب . أما الصحافة الشرعية فكانت غير حزبية — لأن الحزبية كانت ممنوعة — إنما كانت « تميل » الى هذا الحزب أو ذاك . وكان من المحتم أن تنشأ اتحادات مشوهة ، « ومعاشرات » غير طبيعية ، وتستتر زائف ، فامتزجت حماقة أو جبن من لم يستوعب نظرات الحزب ، من لم يكن انساناً حزبياً في الأساس ، بالتحفظات الاضطرابية لأولئك الذين كانوا يودون التعبير عن هذه النظرات .

يا للعهد الملعون ، عهد خطب لقمان ، وعبودية القلم واللسان ، والاقطاعية الفكرية ! لقد وضعت البروليتاريا حداً لهذا الرجس الذي كان يَحْتَقُّ فيه كل ما هو حي وغضّ في روسيا . إلا أن البروليتاريا لمّا تتلّ إلا نصف الحرية لروسيا .

إن الثورة لم تنته بعد . وإذا لم يعد في وسع القيصرية أن تنتصر على الثورة فليس في وسع الثورة بعد أن تنتصر على القيصرية . نحن نعيش فترة نرى فيها ، وفي كل مكان وفي كل شيء تأثير هذا التزاوج المضاد للطبيعة بين الحزبية المفتوحة الشريفة الصريحة والمتأسكة ، وبين « الشرعية » السرية ، المستورة ، « الدبلوماسية » والمواربة . وينعكس هذا التزاوج المضاد للطبيعة في صحيفتنا أيضاً . ومهما سخر السيد غوتشكوف من الاستبداد الاشتراكي الديمقراطي الذي يمنع طبع صحف برجوازية ليبرالية معتدلة ، يبقى الواقع واقعاً ، وتبقى صحيفة « البروليتاري » الناطقة الأولى بلسان الحزب الديمقراطي الاشتراكي العمالي الروسي مع ذلك بعيدة عن سلطة روسيا الاستبدادية البوليسية .

ومهما يكن من أمر ، فإن نصف الثورة هذا يجبرنا جميعاً على أن نشرع في تنظيم القضية تنظيماً جديداً . وباستطاعة الأدب الآن ان يكون « حتى بشكله الشرعي » حزياً بنسبة ٩/١٠ . على الأدب أن يصبح حزياً . وخلافاً للأعراف البرجوازية والصحافة البرجوازية المرتبطة برجال الأعمال ، وخلافاً للوصولية والفردية البرجوازيتين الأدبيتين « والفوضى الارستقراطية » والنهالك وراء الربح ، على البروليتاريا الاشتراكية أن تطرح مبدأ الأدب الحزبي وتطور هذا المبدأ وتطبقه في الحياة بأكمل صيغة ، وأتمها على قدر المستطاع .

فيم يكمن مبدأ الادب الحزبي هذا ؟ انه يكمن ليس فقط في ان الادب لا يمكن ان يكون بالنسبة للبروليتاريا الاشتراكية وسيلة ربح لأشخاص أو مجموعة من الناس ، ولكنه لا يمكن ان يكون على وجه العموم قضية فردية ، مستقلة عن القضية البروليتارية العامة . فليسقط الادباء الاحزابيون ! فليسقط الادباء « الفوق الناس » ! إن على الادب ان يصبح جزءاً من القضية البروليتارية العامة ، « عجلة صغيرة وبزالا » في آلة اشتراكية ديمقراطية واحدة وحيدة

وعظيمة ، تحررها الطليعة الواعية للطبقة العاملة كلها . على الادب ان يصبح جزءاً لا يتجزأ من العمل الحزبي الاشتراكي الديمقراطي الموحد والمنظم والمخطط .

« كل تشبيه أعرج » يقول المثل الألماني ، وتشبيهي الأدب بالبرغي ، والحركة الحية بالآلة أعرج هو الآخر ، وسيوجد على الأرجح مثقفون هستيريون يزعمون لتشبيه كهذا ، يمين الصراع الفكري الحر ، وحرية النقد وحرية الابداع الأدبي ، ويجعلها « أسيرة البيروقراطية » الخ . . . الخ . . . وفي حقيقة الامر لن يكون هذا الزعيق الا تعبيراً عن فردية المثقفين البرجوازية . لا وراء في أن الأدب اقل الامور قابلية لطمس الخصائص الابداعية وللتسوية الآلية ولسيطرة الأكثرية على الأقلية . وليس من شك في أنه من الضروري ضرورة مطلقة توفير مجال للمبادرة الشخصية وللميول الفردية ، مجال للفكر وللخيال ، للشكل وللمضمون . هذه كلها أمور لا جدال فيها ، ولكنها تعني فقط أن الجزء الأدبي من القضية البروليتارية لا يمكن توحيده بشكل آلي مع الأجزاء الاخرى من عمل البروليتاريا الحزبي . وهذا كله لا ينفي هذه الموضوعة البعيدة عن البرجوازية والديمقراطية البرجوازية ، والغريبة عليها ، وهي أن على الادب ان يصبح حتماً وبالضرورة جزءاً مرتبطاً ارتباطاً لا فكاً منه بالأجزاء الاخرى من العمل الحزبي الاشتراكي الديمقراطي . على الصحف ان تصبح لسان حال المنظمات الحزبية المختلفة ، وعلى الادباء ان ينخرطوا حتماً في المنظمات الحزبية . على دور النشر والمستودعات ، على المخازن وقاعات المطالعة ، على المكتبات ومختلف أنواع الانجاز بالكتب ، أن تصبح حزبية ومسؤولة . وعلى البروليتاريا الاشتراكية المنظمة أن تهتم بهذا الامر وتراقبه وتثبت فيه كله وبدون استثناء دفقة حية من قضية البروليتاريا الحية ، مفرغة ، بهذا ، الارض من تحت أقدام المبدأ الروسي القديم ، النصف ابلوموفي ، النصف تجاري : الكاتب يكتب والقارئ يقرأ .

لن نقول بالطبع ان هذا التحول في القضية الادبية ، التي افسدتها الرقابة الآسيوية والبرجوازية الاوروبية ، يمكن أن يتم على الفور . ونحن بعيدون عن فكرة الدعوة الى نمط واحد أو الى حل المسألة بقرارات ، فالتصور المبسط في هذا المجال آخر ما يمكن الحديث فيه . المسألة هنا هي ان يعي حزبنا كله ، وبروليتارتنا الاشتراكية الديمقراطية الواعية كلها في روسيا كلها ، هذه المهمة الجديدة ، وان يطرحاها بوضوح ويأخذها في حلها في كل مكان . نحن لانريد ، وقد تحررنا من الرقابة الاقطاعية ، ان تقع في اسر العلاقات البرجوازية التجارية الادبية . نحن نريد أن ننشئ ، وسنشئ صحافة حرة ، ليس بالمعنى البوليسي فقط وانما بمعنى التحرر من الرأسمال ، التحرر من الوصولية ؛ واكثر من هذا بمعنى التحرر من الفردية البرجوازية الفوضوية .

ستبدو هذه الكلمات الاخيرة مفارقة أو سخرية من القراء . كيف ! قد يصرخ مثقف مناصر للحرية ومتحمس لها : كيف ! أتريدون ان يقرر العمال بأغلبية الاصوات مسائل العلم والفلسفة والجمال ! وتنفون الحرية المطلقة للابداع الفكري الفردي المطلق !

اطمنوا بالاً ، أيها السادة ! فالكلام هنا يدور ، أولاً ، حول الادب الحزبي وخضوعه للرقابة الحزبية . كل فرد حر في ان يكتب ويقول ما يشاء دون ادنى قيد ، ولكن كل اتحاد طوعي (بما في ذلك الحزب) حر ، هو ايضاً ، في ان يطرد الاعضاء الذين يستغلون شركة الحزب في الدعوة لافكار مناهضة للحزب . يجب ان تكون حرية الكلمة والصحافة تامة . علي ، باسم حرية الكلمة ، ان امنحك كامل الحق في ان تصرخ وتكذب وتكتب ما تشاء . ولكن عليك انت ايضاً ، باسم حرية الاتحادات ، ان تمنحني الحق في ان اقيم ، او الغي اتحاداً مع أناس يقولون كذا وكذا . ان الحزب اتحاد طوعي . وسينفطر عقده حتماً ،

فكرياً بادیء الامر ثم مادياً ، اذا لم يظهر نفسه من الاعضاء الذين ينشرون أفكاراً مناهضة للحزب . ولتحديد الخط الفاصل بين الحزبي والمناهض للحزب هناك برنامج الحزب ومقرراته التكتيكية ونظامه الداخلي ، وهناك ، أخيراً ، التجربة الكاملة للاستراكية الديمقراطية العالمية ' وللاتحادات الطوعية العالمية للبروليتاريا التي ضمت في صفوفها ، بصورة مستمرة ، عناصر او تيارات متفرقة لم تكن متماسكة تماماً ، وليست ماركسية تماماً ، وغير قوية ، هذه الاتحادات التي كانت تجري دوماً « تطهيرات » دورية في صفوفها . هكذا سيكون عندنا ايضاً داخل الحزب ، ايها السادة ، أنصار « حرية النقد » البرجوازية . ان حزبنا يصبح الآن جماهيرياً بسرعة ، ونحن نمر الآن بفترة انتقال حاد الى التنظيم العلني . سينضم الينا حتماً أناس كثيرون غير متمسكين (من وجهه النظر الماركسية) وقد يأتي اليها بعض المسيحيين وحتى بعض الصوفيين . أن معدنا قوية ونحن ماركسيون ، كالصخر في صلابتنا . وسنضم هؤلاء الناس غير المتمسكين ، ولن تنسينا حرية الفكر وحرية النقد داخل الحزب حرية تجمع الناس في اتحادات طوعية تسمى أحزاباً .

وعلينا ان نقول لكم ، ثانياً ، ايها السادة الفرديون البرجوازيون ، ان كلامكم عن الحرية المطلقة مراءاة خالصة . اذ لا يمكن ان توجد « حرية » واقعية وحقيقية في مجتمع قائم على سلطة المال ، في مجتمع تعيش فيه جماهير الكادحين في فقر مدقع ، وزمرة من الاثرياء تعيش حياة طفيلية . هل انت حر تجاه ناشرك البرجوازي ، يا سيدي الكاتب ؟ وتجاه جمهورك الذي يطلب منك الدعاية في اطرك (*) ولوحاتك ، والبغاء « تكلمة » للفن المسرحي « المقدس » ؟ ما هذه

(*) هنا خطأ مطبعي على الأرجح اذ يجب أن تكون كلمة روايات مكان كلمة

أطر « هيئة التحرير » .

الحرية المطلقة الاجملة برجوازية او فوضوية (لان الفوضوية ، باعتبارها نظرية الى الحياة ، برجوازية مقلوبة) . من غير الممكن أن يعيش الانسان في المجتمع ويكون متحرراً تماماً منه . ان حرية الكاتب أو الممثل أو الفنان البرجوازي ليست الا ارتباطاً مقنعاً او (مقنعاً برياء) بكيس المال ، بالرشوة، بالراتب.

أما نحن ، الاشتراكيين ، فنفضح هذا الرياء ونمزق هذه الاعلانات الزائفة ، لا لنصل إلى أدب وفن غير طبقين (فهذا ممكن في المجتمع الاشتراكي اللاتطبقى فقط) ، بل لننشئ أدباً حراً حرية حقيقة ومرتبطة علناً بالبروليتاريا ، يقف معارضاً الأدب ، الحر رياءً ، والمرتبطة ، فعلاً ، بالبرجوازية .

وسيكون هذا الأدب أدباً حراً ، لأنه لا الطمع ولا الرتبة بل فكرة الاشتراكية والتعاطف مع الكادحين هما اللذان سيجذبان الى صفوفه قوى جديدة باستمرار . سيكون أدباً حراً لأنه سيخدم لا بطله متخممة أو « عشرة آلاف من النخبة » يسأمون ويتألمون من سمنهم ، بل ملايين وعشرات الملايين من الكادحين الذين يشكلون خيرة أهل البلد وقوته ومستقبله . سيكون أدباً حراً ينمي أحدث ما توصلت اليه البشرية في الفكر الثوري بفضل تجربة البروليتاريا وعملها الحمي ، التجربة التي تحدث تفاعلاً مستمراً بين تجربة الماضي (الاشتراكية العلمية التي أكملت تطور الاشتراكية من أشكالها البدائية ، الطوباوية) وبين تجربة الحاضر (النضال الراهن للرفاق العمال) . إلى العمل ، أيها الرفاق ! فأمامنا مهمة جديدة وشاقة ، لكنها عظيمة ونبيلة ، وهي أن ننظم المسألة الأدبية الواسعة والمتعددة الجوانب والأوجه في ارتباطها الوثيق الذي لا ينقسم مع الحركة الاشتراكية الديمقراطية العمالية . على الأدب الاشتراكي الديمقراطي كله أن يصبح حزبياً . وعلى الصحف والمجلات ودور النشر كلها وغيرها أن تشرع باعادة تنظيم عملها ، وبتهيئة وضع يمكنها من أن تصدر بأكملها ، على هذه الأسس أو تلك ، حسب

التنظيمات الحزبية التي تعود اليها. عندئذٍ فقط يصبح الادب «الاشتراكي الديمقراطي»
اشتراكياً ديمقراطياً بالفعل ، عندئذٍ فقط يستطيع أن يقوم بواجبه ، وعندئذٍ
فقط يستطيع ، حتى في أطر المجتمع البرجوازي ، أن يتخلص من عبودية
البرجوازية ويصب في حركة الطبقة التقدمية والثورية حتى النهاية حقاً .

طبع في ١٣/١١/١٩٠٥

ج ١٢ ص ٩٩ - ١٠٥

من مقال

« الحزب الاشتراكي والثورية غير الحزبية »

تخلق الحركة الثورية في روسيا ، التي تمتد بسرعة لتشمل فئات جديدة متزايدة من السكان ، مجموعة كاملة من المنظمات غير الحزبية . ويتفجر مطلب الوحدة بقوة أكبر تتناسب والزمن الذي كان يُسحق فيه هذا المطلب وبُطارد . وتنشأ التنظيمات باستمرار ، بهذا الشكل غير المكتمل اوداك في أغلب الأحيان . وطابع هذه التنظيمات في غاية الطرافة . إذ لا توجد هنا أطر واضحة كما في المنظمات الأوروبية . فالاتحادات النقابية تأخذ طابعاً سياسياً . والنضال السياسي يتحدّ بالنضال الاقتصادي بشكل إضراب مثلاً ، مكوّناً أشكالاً موحدة من التنظيمات الموقته أو الدائمة الى هذا الحد أو ذاك .

ما معنى هذه الظاهرة ؟ وكيف يجب أن يكون موقف الاشتراكية الديمقراطية منها ؟

إن الحزبية الصارمة تلازم الصراع الطبقي المتطور جداً وتنتج عنه . وبالعكس فإن من مصلحة الصراع الطبقي الواسع والمكشوف تطوير الحزبية الصارمة . ولهذا فإن حزب البروليتاريا الواعية ، الاشتراكية الديمقراطية ، يحارب حرباً مشروعة تماماً اللاحزبية ويعمل بثبات على انشاء الحزب الاشتراكي العالمي المتراص بقوة ، والتماسك مبدئياً . ويصيب هذا العمل من النجاح في وسط الجماهير بمقدار ما يشقّ تطور الرأسمالية الشعب كله أعمق فأعمق الى طبقات ، مصعداً بذلك حدّة التناقضات فيما بينها .

من المفهوم تماماً أن تكون الثورة الراهنة في روسيا قد خلقت ، ولا زالت تخلق ، مثل هذا العدد الكبير من المنظمات غير الحزبية . فهذه الثورة ديمقراطية ، أي برجوازية من حيث مضمونها الاجتماعي والاقتصادي . وهذه الثورة تقلب البنية الاستبدادية الاقطاعية ، محررة بذلك البنية البرجوازية ، ومحققة متطلبات طبقات المجتمع البرجوازي كلها ، فهي ، بهذا المعنى ، ثورة شعبية عامة . ولكن هذا لا يعني ، طبعاً ، ان ثورتنا لم تكن طبقية . كلاً بالطبع . لكنها موجهة ضد طبقات وفئات مضى زمانها ، أو يمضي من وجهة نظر المجتمع البرجوازي ، ضد فئات غريبة عليه ومعيقة لتطوره . وبما أن الحياة الاقتصادية في البلد أصبحت كلها برجوازية في خطوطها الأساسية كلها ، وبما أن الغالبية العظمى من السكان أصبحت تعيش فعلاً في ظروف حياة برجوازية ، فان العناصر المضادة للثورة أصبحت ، بطبيعة الحال ، قليلة حتى العدم ، أصبحت « حفنة » بالنسبة « للشعب » . ولهذا يبدو الطابع الطبقي للثورة البرجوازية بالضرورة وللوهلة الاولى طابعاً « شعبياً عاماً » غير طبقي ، يتمثل في نضال طبقات المجتمع البرجوازي كلها ضد السلطة الاستبدادية والاقطاعية .

لقد تميّز عهد الثورة البرجوازية في روسيا ، كما في بلاد أخرى ، بعدم النضوج النسبي لتناقضات المجتمع الرأسمالي الطبقية . صحيح أن الرأسمالية متطورة الآن في روسيا أكثر مما كانت عليه في المانيا عام ١٨٤٨ ، ناهيك عن فرنسا عام ١٧٨٩ ، ولكن ، بما لا يرقى اليه الشك ان التناقضات الرأسمالية المحضة تستر الى حد كبير ، وكبير جداً ، بستار التناقضات بين « الثقافة » والآسيوية ، بين الاوربية والتتوية ، بين الرأسمالية والاقطاعية أي أنه تطرح ، في الدرجة الاولى ، متطلبات يؤدي تحقيقها الى تطوير الرأسمالية وتطهيرها من أدران الاقطاعية ، والى تحسين ظروف الحياة والنضال للبروليتاريا والبرجوازية على حد سواء .

وفي الواقع ، إذا ما تمعنا في المطالب والتوصيات والشكاوي التي تُرفع بأعداد هائلة في روسيا الآن، في كل مصنع ودائرة وقطعة عسكرية ودائرة للشرطة وأبرشية ، وفي كل مؤسسة تعليمية الخ الخ .. سنرى بيسر أن معظمها مطالب « ثقافية » محضة ، إذا صح التعبير . أريد أن أقول إنها ليست مطالب طبقية متميزة ، بل مطالب حقوقية أولية ، مطالب لا تهدم الرأسمالية ، بل على العكس تدخلها في أطر الاوروبية وتخلصها من البربرية والتوحش والرشوى وغيرها من الرواسب « الروسية » لعهد القنانة . وفي الحقيقة إن المطالب البروليتارية تكتفي في معظم الأحوال بإصلاحات يمكن تحقيقها تماماً في إطار الرأسمالية . إن البروليتاريا الروسية تطالب الآن ، وحالاً ، لا بما يقوض الرأسمالية ، بل بما يطهرها ويقوي تطورها ويسرع فيه .

من المسلم به أن وضع البروليتاريا الخاص في المجتمع الرأسمالي يؤدي الى أن يبرز سعي العمال الى الاشتراكية ، واتحادهم بالحزب الاشتراكي بقوة عفوية ، في أبكر مراحل الحركة ، لكن المطالب الاشتراكية المحضة لم يحين أوانها . فطالبهم اليوم مطالب ديمقراطية سياسية ، ومطالب اقتصادية في إطار الرأسمالية . حتى البروليتاريا تضع الثورة ، إذا صح التعبير ، في إطار برنامج الحد الأدنى لا برنامج الحد الأقصى . أما الفلاحون ، وهم الأغلبية الضخمة الساحقة من السكان ، فلا حاجة الى القول إن « برنامجهم الأقصى » وأهدافهم النهائية لا تخرج عن إطار الرأسمالية التي كانت قد غمت بشكل أوسع وأعظم لو أن الأرض كلها انتقلت الى الفلاحين كلهم والشعب كله . الثورة الفلاحية ثورة برجوازية في الوقت الراهن مهما خدشت هذه الكلمات مسمع فرساننا العاطفين الرقيق ، فرسان الاشتراكية البرجوازية الصغيرة .

هذا الطابع المميز للثورة الجارية الآن الذي رسمنا ملامحه يوجد بشكل

طبيعي تماماً تنظيمات غير حزبية. وتكتسب الحركة بكاملها في هذه الأحوال طابع
اللاحزبية الخارجية حتماً ، مظهر اللاحزبية ، المظهر فقط ، بالطبع . إن حاجة
الناس الى حياة « إنسانية » متمدة وإلى الاتحاد والدفاع عن كرامتهم وحقوقهم ،
بوصفهم بشراً ومواطنين ، تشمل كل شيء وتوحد الطبقات كلها وتسبق بخطوات
علاقة أي حزبية وتحرك اناساً لا زالوا بعيدين جداً عن أن يكونوا قادرين على
الارتفاع الى مستوى الحزبية . إن الحاجة الملحة إلى حقوق واصلاحيات مباشرة
وضرورية ضرورة أولية تؤجل ، إن صح التعبير ، أي فكرة أو تصور عما هو
أبعد من ذلك . فهذا الاستغراق في الصراع الحالي ، وهو استغراق ضروري
ومشروع ولا يمكن النجاح بدونه ، يضطر البعض إلى تأليه هذه الأهداف الأولية
المباشرة وتصويرها بلون وردي ، واضفاء شكل اسطوري عليها في بعض الاحيان ؛
الديمقراطية البسيطة ، الديمقراطية البرجوازية العادية ، تحمل على محمل الاشتراكية
وتصنّف في « خانة » الاشتراكية ؛ كان كل شيء « غير حزبي » ؛ وكأن كل
شيء ينصب في حركة « تحررية » واحدة (حركة تحرر للمجتمع البرجوازي كله في
الواقع) ؛ ويتخذ كل شيء صبغة خفيفة رقيقة من « الاشتراكية » بفضل الدور
التقدمي الذي تلعبه البروليتاريا بوجه خاص في الصراع الديمقراطي .

لا يمكن للّاحزبية في مثل هذه الظروف الا أن تحوز انتصارات مؤقتة .
ولا يمكن اللاحزبية الا أن تصبح شعاراً شائعاً ، « فالموضة » تحف زحفاً واهياً
وراء الحياة . « والتنظيم اللاحزبي بالذات (الديمقراطية اللاحزبية ، حرية الإضراب
اللاحزبية ، والثورية اللاحزبية) هو أكثر الظواهر التي نراها تطفو عادة على سطح
الحياة السياسية .

ونتساءل الآن : كيف يجب أن يكون موقف أنصار مختلف الطبقات
ومثليها من واقع اللاحزبية ومن فكرة اللاحزبية ؟ وأجيب : يجب أن لا يكون

موقفنا - اتياً بل موضوعاً ، أي : لا كيف يجب أن يكون موقفنا بل أي موقف من هذا الواقع ينشأ بالضرورة بحكم مصالح مختلف الطبقات ووجهات نظرها .

- ٢ -

اللاحرية ، كما أوضحنا ، وليدة الطابع البرجوازي لثورتنا ، أو هي تعبير عنه ، إن شئت . ولا يمكن للبرجوازية إلا أن تميل الى اللاحرية إذ ان غياب الأحزاب بين المناضلين في سبيل حرية المجتمع البرجوازي يعني غياب نضال جديد ضد هذا المجتمع البرجوازي نفسه . إن من يقود نضالاً « لحرزياً » في سبيل الحرية إما انه لا يعي الطابع البرجوازي للحرية ، او انه يكرس هذا النظام ، أو أنه يؤجل النضال ضده أو أنه يريد أن يدفع به الى الكمال ، الى مالا نهاية . وبالعكس فإن كل من يناصر بوعي ، أو بغير وعي ، النظام البرجوازي لابد له من أن يشعر بميل إلى فكرة اللاحرية .

إن الصراع بين الطبقات المتنازعة في مجتمع قائم على التقسيم الطبقي يصبح ، بالضرورة ، صراعاً سياسياً في مرحلة ما من مراحل تطوره . وصراع الأحزاب هو التعبير الأكمل والأتم والأكثر تنظيماً عن الصراع السيامي للطبقات . اللاحرية لامبالاة بصراع الأحزاب . لكن هذه اللامبالاة ليست حياداً أو امتناعاً عن الصراع . لا يمكن أن يوجد محايدون في الصراع الطبقي ، لأنه لا يمكن « الامتناع » في المجتمع الرأسمالي عن المشاركة في تبادل المنتجات أو القوة العاملة . فالتبادل يولد حتماً صراعاً اقتصادياً ، وبالتالي صراعاً سياسياً . فالامبالاة أبعد ما تكون في الواقع تحاشياً للصراع أو امتناعاً عنه أو حياداً . اللامبالاة تأيد صامت للقوي ، للسيطر . من كان لامبالياً بالحكم الاستبدادي في روسيا حتى سقوطه في ثورة اوكتوبر كان يؤيد الحكم الاستبدادي بصمت ، ومن كان ، في اوروبا المعاصرة ، لامبالياً بسيطرة البرجوازية كان يؤيد البرجوازية بصمت . إن من لا يبالي بفكرة

الطابع البرجوازي للنضال من أجل الحرية يؤيد بصمت سيطرة البرجوازية في هذا الصراع ، سيطرة البرجوازية في روسيا الوليدة الحرة . اللامبالاة السياسية شبع سياسي . الشعبان يقف موقف « اللامبالاة » و « عدم الاكتراث » من لقمة الحبز ؛ أما الجائع فيسكون على الدوام « حزبياً » في مسألة الحبز . ليس معنى « اللامبالاة وعدم الاكتراث » بلقمة الحبز أن الانسان لا يحتاج الى الحبز ، بل ان الحبز مؤمن لهذا الانسان دائماً ، وانه لن يفقد الحبز ابداً ، وأنه التحق بشكل اكيد « بحزب » الشباع : ان اللاحزبية في مجتمع برجوازي رباء وتعبير مستتر وسلي عن الانتماء الى حزب الشباع ، الى حزب الميسطرين ، الى حزب المستغلين .

اللاحزبية فكرة برجوازية . والحزبية فكرة اشتراكية . ويصح تطبيق هذه الموضوعة بشكل عام وكامل على المجتمع البرجوازي كله . وعلينا بالطبع أن نعرف كيف نطبق هذه الحقيقة العامة على مسائل خاصة معينة وعلى ظروف معينة . أما أن ننسى هذه الحقيقة في وقت كهذا ، يثور فيه المجتمع البرجوازي كله ضد ضد الاقطاعية والاستبداد فمعناه ، عملياً ، الرفض الكامل للنقد الاشتراكي للمجتمع البرجوازي .

طبع في ٢٦ / ث ٢ و ١ / ك ١٩٠٥

ج ١٢ ص ١٣٣ - ١٣٨

« مصلحة مَنْ؟ » . . .

[كوي بروديست] - « Cui prodest » عبارة لاتينية مأثورة تعني « لمصلحة مَنْ؟ » . ومن الواجب على الدوام طرح هذا السؤال : « لمصلحة مَنْ؟ » ؟ عندما لا تتضح مباشرة الفئات أو القوى أو الشخصيات السياسية أو الاجتماعية التي تدافع عن مقترحات أو إجراءات ما . . .

ليس المهم مَنْ يدافع مباشرة عن سياسة ما - ففي النظام الرأسمالي المعاصر الفاضل يستطيع أي ثري أن « يستأجر » أو يشتري أو يستميل أي عدد من المحامين والكتاب ، وحتى من النواب واساتذة الجامعات والقسس الخ .. للدفاع عن أي وجهة نظر . نحن نعيش في زمن تجاري لا نخجل البرجوازية فيه من المتاجرة بالشرف والضمير . ويحدث أن يوجد أناس سذج يدافعون ، عن غباء أو عن عادة عيياء ، عن النظريات المسيطرة في وسط برجوازي ما .

كلا ليس مهماً في السياسة مَنْ يدافع مباشرة عن نظرية ما ، بل المهم لمصلحة مَنْ هذه النظريات ، هذه الاقتراحات ، هذه الإجراءات .

مثال ذلك أن أوروبا ، وهي دول تسمى نفسها « متمدنة » ، تجري جريباً محموماً وراء التسلح . ويتعالى الصراخ والعيويل بألف نغمة وفي آلاف الصحف ومن فوق آلاف المنابر عن الوطنية والثقافة والوطن والسلام والتقدم - ويتم هذا كله تبريراً لهدر عشرات ومئات ملايين جديدة من الروبلات على مختلف وسائل الإبادة ، على المدافع و « الدريدنوت » (مدرعات من نوع جديد) الخ .. أيها السادة ! بودتي أن أقول بمناسبة هذه الجمل التي يطلقها « الوطنيون » : لا تصدقوا كلامهم ، بل الأفضل أن تروا لمصلحة مَنْ يتم هذا !!

لقد نشرت الشركة الانكليزية الشهيرة « امسترونغ ، اوتيفرس وشركاه »

تقريرها السنوي منذ مدة وجيزة . الشركة تنتج بشكل رئيسي مختلف أنواع الأسلحة . وموازنها تعادل ٨٧٧ ألف جنيه استرليني ، أي قرابة (٨) ملايين روبل ، والفائدة بنسبة $\frac{1}{2}$ ١٢٪ ، ورأس مالها الاحتياطي حوالي (٩٠٠) ألف روبل الخ . .

اليكم اين تذهب الملايين والمليارات المستنزفة من العمال والفلاحين من أجل التسليح . الفائدة بنسبة $\frac{1}{2}$ ١٢٪ معناها مضاعفة الرأس مال في ٨ سنوات ، مع العلم أن مختلف المكافآت الممنوحة للمديرين . . الخ غير واردة في الحساب . آرمسترونغ في انكلترا ، كروب في المانيا ، كريزو في فرنسا ، كوليديل في بلجيكا وكم عدد أمثالهم في البلدان المتمذنة كلها ؟ وكم يكون لهم من الموردين ؟ إليكم لمصلحة من يتم نفخ الروح الشوفينية ، والثروة عن « الوطنية » (وطنية المدفع) وعن الدفاع عن الثقافة (بأسلحة تمحق الثقافة) الخ . . .

طبع ١٩١٣/٤/١١

ج ٢٣ ص ٦١ - ٦٢

من مقال

الاحصاء وعلم الاجتماع

يقول المثل الانكليزي : الوقائع شيء عنيد . وغالباً ما يذكر هذا المثل على الأخص ، عندما ترى كاتباً يشدو كالبلبل مشيداً بعظمة « مبدأ القومية » في مختلف معانيه ونسبه . ويستعمل « هذا المبدأ » في معظم الأحيان بنجاح يوازي نجاح هتافات بطل الاسطورة الشعبية الشهيرة وقد رأى جنازة : « تجرون ولكنكم لن تعبروا » .

إن الوقائع الدقيقة ، الوقائع التي لا يرقى اليها الشك ، هي ما لا يستطيع هذا النوع من الكتاب أن يتحملة بشكل خاص . وهذا هو الشيء الضروري بنوع خاص ، إذا أراد الانسان أن يتفهم تفهماً جدياً مسألة معقدة وصعبة ومشوشة عن قصد . ولكن كيف يجب جمع الوقائع ؟ وكيف ننشئ علاقة وارتباطاً متبادلاً بينها ؟ .

لا يوجد في مجال الظواهر الاجتماعية طريقة أكثر شيوعاً وأكثر بطلاناً من استلال بعض الوقائع الصغيرة دون ترو ، من اللعب بالأمثلة . إن انتقاء الأمثلة أمر غير عسير على وجه العموم ، لكنه غير ذي قيمة ، أو أن قيمته سلبية تماماً ، إذ ان القضية كلها تكمن في الظرف التاريخي المشخص لهذه الحوادث . فالوقائع إذا ما أخذت بكلّيتها ، وبالعلاقة إحداها بالأخرى ، ليست شيئاً عنيداً فحسب ، بل شيء له دلالة القاطعة . إن الوقائع الصغيرة إذا أخذت خارج كليتها أو علاقتها ، إذا كانت اعتباطية أو مجتزأة ، ليست الا تلاعباً أو شيئاً أسوأ من ذلك . فحين يأخذ كاتب كان فيما مضى رصيناً ولا زال يرغب في أن يُعتبر كذلك ، واقع الظلم

المنغولي ويبرزه مثلاً لشرح بعض الأحداث في أوروبا القرن العشرين، فهل يمكننا أن نعتبر ذلك تلاعباً بسيطاً أو أنه من الأصح إرجاع ذلك الى شعوذة سياسية ؟ . إن الظلم المنغولي واقع تاريخي مرتبط ارتباطاً لاشك فيه بالمسألة القومية . كما أنه يلاحظ في أوروبا القرن العشرين مجموعة من الوقائع مرتبطة بالدرجة نفسها من التأكيد بهذه المسألة . الا أنه يوجد عدد قليل من الناس ممن بسمهم الافرنسيون . « مخرجين قوميين » قادرين على ادعاء الرصانة والعمل على توضيح ما يجري في أوروبا القرن العشرين انطلاقاً من « واقع » الظلم المنغولي .

والنتيجة واضحة : علينا أن نحاول ارساء أساس من الوقائع الدقيقة التي لا يرقى اليها الشك ، يكون في وسعنا أن نستند اليه ونقارن به أيأ من تلك المحاكات « العامة » ، أو « التي تؤخذ على سبيل المثال » ، والتي كثيراً ما يساء استعمالها في بعض البلدان ، في أيامنا هذه . ومن الضروري ، لكي يكون هذا الأساس أساساً بالفعل ، الا نأخذ وقائع متفرقة ، بل مجموع الوقائع المتعلقة بالمسألة مدار البحث ، دون أي استثناء وإلا سينشأ شك ، وشك مشروع تماماً ، في أن الوقائع قد اختيرت أو جمعت اعتباطاً ، وأنه بدل العلاقة أو الترابط الموضوعي للظواهر التاريخية بأكملها ، تطبخ طبخة « ذاتية » قد تكون تبريراً لقضية قنطرة . وهذا يحدث أكثر مما قد نظن ..

وانطلاقاً من هذه الافكار قررنا أن نبدأ من الإحصاء ، واعين بالطبع وعياً كاملاً النفور العميق الذي يشيره الاحصاء في نفوس بعض القراء ، الذين يفضلون « الحداغ الذي يسمو بنا » على « الحقائق الوضعية » ، وفي نفوس بعض القراء الذين يحبون عملية التهريب السياسي تحت علم محاكات « عامة » في الأمية والكوسموبوليتية والقومية والوطنية الخ ..

كتب في كانون ثاني ١٩١٧ ج ٣٠

ص ٣٤٩ - ٣٥١

الثقافة القومية

« من مقال ملاحظات انتقادية حول المسألة القومية »

... وهكذا يرى القارئ أن مقال المنشور في « سيفيرنايا براڤدا »^(١٤) ،
يوضح ، بمثل واحد يتعلق بقضية اللغة الواحدة الوحيدة في الدولة ، ما تنسم به
البرجوازية الليبرالية من انتهازية وعدم تماسك ، وهي التي تمد يدها الى الاقطاعيين
ورجال البوليس في المسألة الوطنية . ويدرك كل امرئ أن موقف البرجوازية
الليبرالية من جملة من المسائل الأخرى الماثلة لا يقل خيانة ونفاقاً وسخفاً (حتى من
وجهة نظر مصالح الليبرالية بالذات) عما هو عليه من مسألة اللغة الواحدة الوحيدة
في الدولة .

فما هي النتيجة ؟ هي أن كل تعصب قومي برجوازي ليبرالي يسبب أقصى
الفساد في أوساط العمال ، ويلحق أفدح الضرر بقضية الحرية وقضية النضال الطبقي
البروليتاري . ويشد هذا الخطر بقدر ما ينتشر الاتجاه البرجوازي (والبرجوازي -
الاقطاعي) وراء شعار « الثقافة القومية » . فباسم الثقافة القومية الروسية ،
والبولونية ، واليهودية ، والاوكرانية الخ . يقترف « المثة السود » والاكليريكيون ،
وكذلك برجوازيو جميع القوميات ، آثامهم الرجعية القنطرة .

هكذا يبدو الواقع في الحياة القومية الراهنة ، إذا نظرنا اليه نظرة
ماركسية ، أي من وجهة نظر النضال الطبقي ، وإذا قارنا بين الشعارات وبين

مصالح الطبقات وسياستها، لا بينها وبين « المبادئ العامة » التي لا معنى لها ، والجلل الطنانة والتصريحات الجوفاء .

إن شعار الثقافة القومية خداع برجوازي (وهو غالباً ما يكون أيضاً خداعاً من جانب « المائة السود » والا كليريكين) . اما شعارنا نحن فهو الثقافة الأمية ، ثقافة النزعة الديمقراطية والحركة العاملة العالمية .

وبهذا الصدد يشن علي السيد ليسمن ، من جماعة البوند حملة هوجاء ويقذفني بهذا الخطاب القاتل :

« يعرف كل من يلم بالمسألة القومية ولو إماماً طفيفاً ، أن الثقافة الأمية ليست بثقافة لا قومية (ثقافة بدون شكل قومي) ؛ فالقول بثقافة لا قومية ، ينبغي لها أن تكون لا روسية ، ولا يهودية ، ولا بولونية ، بل ثقافة خالصة ، انما هو قول باطل ، لا معنى له . إن الأفكار الأمية على وجه الدقة لا يمكنها أن تصبح قريبة من الطبقة العاملة الا إذا تكيفت وفقاً للغة التي يتكلم بها العامل ووفقاً للأوضاع القومية المشخصة التي يعيش فيها . وعلى العامل ألا يقف موقف اللامبالاة من وضع ثقافته القومية وتطورها ، لأنه بواسطتها ، وبواسطتها وحدها ، يستطيع أن يشارك في « الثقافة الامية ، ثقافة النزعة الديمقراطية والحركة العاملة العالمية » . وهذه حقيقة معروفة منذ زمن بعيد ولكن السيد ف . إ . يتجاهلها تماماً . . . »

فكروا جيداً بهذه المحاكمة النموذجية بالنسبة للبونديين ، والتي يقصد منها ، كما ترون ، تقويض الموضوع الماركسية التي صغنها أنا . فالسيد البوندي يقدم لنا بثقة متناهية في النفس ، بوصفه رجلاً « مطلعاً على المسألة القومية » ، أفكاراً برجوازية عادية على أنها « حقائق معروفة منذ زمن بعيد » .

وبالفعل ، ليست الثقافة الامية ثقافة لا قومية ، يا عزيزي البوندي ، وما من أحد زعم هذا الزعم . وما من أحد تحدث عن الثقافة « الخالصة » ، سواء

أكانت بولونية، أو يهودية، أو روسية، و غير ذلك ، ولذا كان رصفك الكلمات الجوفاء مجرد محاولة اصرف انتباه القارىء وطمس جوهر القضية وراء رنين الكلمات الطناتنة .

إن في كل ثقافة قومية عناصر، وان كانت غير متطورة، من ثقافة ديمقراطية واشتراكية ، لان في كل أمة جمهوراً كادحاً مستثمراً تولد ظروفه الحياتية ، بالضرورة ، ايدولوجيا ديمقراطية واشتراكية . ولكنه توجد ايضاً في كل امة ثقافة برجوازية (غالباً ما تكون اكليبريكية ومغرقة في الرجعية) ، لا تبدو بشكل « عناصر » وحسب ، بل بشكل ثقافة سائدة . ولهذا « فالثقافة القومية » هي ، بوجه عام ، ثقافة الملاكين العقاريين ، ورجال الدين ، والبرجوازية، وهذه الحقيقة الاساسية ، الاولية بنظر الماركسيين ، أهملها صاحبنا البوندي، «وأغرقها» في كلامه المرصوف ، أي أنه ، في الواقع ، لم يفعل إلا تمويه الهوية الطبقية أمام القارىء ، بدلاً من تسليط الضوء على واقع وجودها في قلب الثقافة القومية وتوضيح اسبابها . وهكذا تصرف صاحبنا البوندي في الواقع تصرف برجوازي، تقضي مصالحته الخبيثة بنشر الايمان بثقافة قومية لا طبقية .

أما نحن ، فاننا حين نضع شعار « الثقافة الامة » ، ثقافة النزعة الديمقراطية والحركة العاملة العالمية » ، نأخذ من كل ثقافة قومية مجرد عناصرها الديمقراطية والاشتراكية ، ونأخذها حصراً واطلاقاً لتقابلها بالثقافة البرجوازية ، والتعصب القومي البرجوازي في كل امة من الامم . فما من ديمقراطي ، وبالاخرى ما من ماركسي ، ينكر المساواة في اللغات ، او ينفي ضرورة المناظرة باللغة الأم مع البرجوازية « الأم » ، وضرورة نشر الافكار المناهضة للبرجوازية ولرجال الدين بين جماهير الفلاحين والبرجوازية الصغيرة « الأم » . وتلك حقائق بدئية ، ثابتة، الا ان صاحبنا البوندي يخفي وراءها ما هو موضع جدل ونقاش ، أي ماعية المسألة حقاً .

أما ماهية المسألة فهي ان نعرف ما إذا كان يجوز للماركسيين ان يطرحوا شعار الثقافة القومية بصورة مباشرة او غير مباشرة ، او ما إذا كان يترتب عليهم حتماً ان يدعوا باللغات جميعها إلى أهمية العمال « متكيفين » وفق كافة الخصائص المحلية والقومية .

وأهمية شعار « الثقافة القومية » لا تحدد بوعد من هذا المثقف او ذاك ، او حسن نية منه في ان « يفسر » هذا الشعار « بمعنى استغلاله لشر الثقافة الاممية » . فهذه الطريقة في التفكير ليست سوى طريقة ذاتية صبائية . إن أهمية شعار الثقافة القومية رهن بالعلاقة الموضوعية بين طبقات البلد المعني كلها وبين بلدان العالم كافة . الثقافة القومية البرجوازية حقيقة واقعة (وأكرر قولي ان البرجوازية تسام في كل مكان مع الملاكين العقاريين ورجال الدين) . ووجود تعصب قومي برجوازي كفاحي يبلد عقول العمال ، ويخبلهم ، ويفرق صفوفهم بقصد سوقهم وراء البرجوازية ، هو الحقيقة الاساسية في عصرنا .

فمن شاء ان يخدم البروليتاريا عليه ان يوحد صفوف عمال مختلف القوميات . ويناضل بلا هوادة ضد التعصب القومي البرجوازي ، ضد « تعصب أمته بالذات » . وضد تعصب الامم الاخرى . ومن اراد الدفاع عن شعار الثقافة القومية ، فلا مكان له إلا بين القوميين البرجوازيين الصغار ، لا بين الماركسيين .

اليكم مثلاً مشخصاً ؛ هل يستطيع الماركسي الروسي أن يتبنى شعار الثقافة القومية الروسية ؟ كلا . فإذا فعل ذلك ، ترتب اعتباره من القوميين ، لا من الماركسيين . فواجبنا أن نحارب الثقافة القومية الروسية السائدة ، ثقافة البرجوازية والمئة السود ، وأن نعمل في الوقت نفسه على إخماء البذور التي نبتت ايضاً في تاريخ حر كتنا الديموقراطية والعمالية وتطويرها بروح الأهمية والتحالف الوثيق مع عمال البلدان الأخرى . وواجبنا أن نناضل ضد الملاكين العقاريين

الروس وضد البرجوازيين في بلادنا ، وأن نكافح « ثقافتهم » باسم الأمية .
واجبنا أن ناضل « متكيفين » وفقاً لخصائص البوريشكيفيتشين والستروفين ،
بدلاً من أن نقبل شعار الثقافة القومية ونروج له .

إن التعصب القومي البرجوازي والامية البروليتارية شعاران متناقضان
تماماً ، لا يمكن التوفيق بينهما أبداً ، شعاران يمثلان المعسكرين الكبيرين الطبقيين
في العالم الرأسمالي بأسره ، ويعبران عن سياستين (بل عن مفهومين عن العالم)
في المسألة الوطنية . والبونديون ، إذ يدافعون عن شعار الثقافة القومية ، ويبنون
عليه خطة كاملة وبرنامجاً عملياً كاملاً لما أسموه بـ « استقلال الثقافة القومية الذاتي » ،
ينقلون في الواقع التعصب القومي البرجوازي الى أوساط العمال .

- ٣ -

فزعاة « التمثل » القومية

تتيح قضية التمثل ، أي فقدان الخصائص القومية والانتقال الى أمة
أخرى ، تكوين فكرة واضحة عن نتائج الترددات القومية عند البونديين ومن
يشاطرونهم أفكارهم .

فالسيد ليمن ، الذي ينقل ويردد بأمانة حجج البونديين العادية أو بالأحرى
أساليهم ، يعتبر المطلب القائل بوحدة واندماج العمال من جميع القوميات في الدولة
الواحدة ، ضمن منظمات عمالية واحدة (راجع أعلاه نهاية المقال المنشور في
« سيفيرنايا برافدا ») ضرباً من « خرافات التمثل القديمة » .

فقد كتب السيد ليمن يقول بصدد خلاصة المقال المنشور في « سيفيرنايا
برافدا » :

« ولذا ، ينبغي على العامل ، إذا ما سئل : من اية قومية أنت ؟- أنت
يجيب : أنا اشتراكي - ديموقراطي . »

وهذا ما يراه صاحبنا البوندي منتهى الذكاء والظرافة . ولكنه ينزع
القناع عن وجهه نهائياً بمثل هذه النكات ، وبمثل هذه الصيحات بصدد « التمثل »
التي يوجهها ضد الشعار الماركسي والديموقراطي المتناسك .

ذلك أن الرأسمالية تعرف في تطورها اتجاهين تاريخيين في المسألة الوطنية :
الأول هو يقظة الحياة الوطنية والحركات الوطنية ، والنضال ضد كل اضطهاد
قومي ، وإنشاء دول قومية . والثاني هو تطور شتى العلاقات بين الأمم وتكاثرها
المتزايد ، وهدم الحواجز القومية ، وإنشاء وحدة الرأسمال العالمية ، ووحدة الحياة
الاقتصادية بصورة عامة ، ووحدة السياسة والعلوم الخ ...

وكلا الاتجاهين قانون عالمي للرأسمالية . فالأول يسود في بدء تطورها ،
والثاني يميز الرأسمالية الناضجة السائرة نحو تحولها الى مجتمع اشتراكي . وبرنامج
الماركسيين في المسألة الوطنية يأخذ هذين الاتجاهين بعين الاعتبار ، إذ يدافع أولاً
عن المساواة بين القوميات واللغات ، وعن استحالة القبول بأية امتيازات بهذا
الصدد (وعن حق الأمم في تقرير مصيرها ايضاً ، وهذا ما سنتناوله فيما بعد) ،
وثانياً يدافع عن مبدأ الأمية والنضال العنيد الحازم ضد تسميم البروليتاريا بسم
التعصب القومي البرجوازي ، مهارقاً ونعم .

وهنا يطرح السؤال التالي : ماذا يقصد صاحبنا البوندي حين يقيم الأرض
ويقعدها ضد « التمثل » ؟ لم يكن بوسعنا أن نتحدث هنا عن أعمال العنف ضد
القوميات ، ولا عن الامتيازات الممنوحة لقومية من القوميات ، لأن كلمة
« تمثل » غير مناسبة أبداً في هذا المجال ؛ إذ ان جميع الماركسيين ، سواء بصورة
انفرادية أو ككل رسمي ، قد شجبوا بوضوح بالغ وبلا مواربة ولا ابهام أي

عنف قومي أو اضطهاد أو تفاوت في الحقوق ، مهما يكن طفيفاً ؛ واخيراً ، لأن هذه الفكرة التي يقرّ بها جميع الماركسيين ، قد وردت بمنتهى الصراحة في المقال المنشور في « سيفيرنايا برافيدا » الذي هاجمه صاحبنا البوندي هجوماً شديداً .

كلا . المواربة مستحيلة في هذا المضمار . فقد شجب السيد ليمن « التمثل » دون أن يقصد بهذه الكلمة لا العنف ولا التفاوت ، ولا الامتيازات . فهل يبقى أي شيء فعلي واقعي في فكرة التمثل إذا جرّدت من كل عنف وكل تفاوت؟؟ نعم ، يبقى شيء بكل تأكيد ، هو اتجاه الرأسمالية التاريخية العالمي الى تخطيم الحواجز القومية ، الى محو الفروق القومية ، الى تمثيل القوميات ، وهو اتجاه يزداد بروزاً ورسوخاً في كل عقد من العقود ، وبشكل واحد من أهم العوامل التي تحول الرأسمالية الى اشتراكية .

فليس ماركسي ، حتى ولا بديموقراطي ، من لا يقرّ بالمساواة بين القوميات واللغات ولا يدافع عنها ، ومن لا يناضل ضد كل اضطهاد قومي ، وضد كل عدم مساواة قومية . ذلك أمر لا ريب فيه . ولكن ، بما لا ريب فيه ايضاً أن الماركسي المزيف الذي يتهم على ماركسي من قومية أخرى ويسخر منه متهماً إياه « بالتمثل » ليس في الواقع سوى مجرد قومي تافه ضيق الأفق . والى هذه الفئة من الناس غير الجديرين بالاحترام ينتسب البونديون جميعهم ، وكذلك (كما سنرى بعد حين) القوميون - الاشتراكيون الأوكرانيون ، أمثال السيدين بور كيفيتش ودونتسوف وشر كاهما .

ولكي نبين بصورة مشخصة ما تنطوي عليه مفاهيم هؤلاء القوميين التافهين الضيقي الأفق من طابع رجعي ، نورد فيما يلي ثلاثة أنواع من المعطيات . إن أشد من يقيم الأرض ويقعدها ضد « تمثيل » الماركسيين الروس القومي المبدأ ، هم القوميون اليهود في روسيا بعامة والبونديون بخاصة . والواقع أنه يتبين

من المعطيات المذكورة آنفاً أن من أصل عشرة ملايين ونصف مليون يهودي في العالم أجمع يقطن قرابة نصفهم في العالم المتمدن في ظروف يطبق فيها « التمثل » ، على أوسع نطاق ، بينما يعيش يهود روسيا وغاليسيا التعساء ، المرهقون ، المحرومون من الحقوق ، المسحوقون تحت وطأة البوريشكيفيتشين (الروس والبولونيين) في ظروف يطبق فيها « التمثل » على اضيق نطاق ، والتميز والانعزالية على أوسع نطاق ، حتى ليصل الأمر الى فرض (منطقة إقامة اجبارية) على اليهود ، لا بل الى إقرار (معدلات ونسب مئوية) لهم وغير ذلك من الطرائف على طريقة بوريشكيفيتش .

إن اليهود المقيمين في العالم المتمدن لا يشكلون أمة . فقد اندجوا بالسكان أكثر مما اندجوا في أي مكان آخر ، كما يقول كاوتسكي وباوير . وفي روسيا وغاليسيا لا يشكل اليهود أمة ، فهم ليسوا في هذين البلدين ، مع الأسف ، الا فئة مغلقة معزولة (لا بسيهم هم ، بل بسبب البوريشكينيتشين) . وهذا هو الرأي الثابت الذي يقول به أولئك الذين يعرفون التاريخ اليهودي معرفة أكيدة ، يأخذون بالحسبان الوقائع المذكورة أعلاه .

فعلام تدل هذه الوقائع ؟ انها تدل على أن الذين يستطيعون ، وحدهم دون سواهم ، أن يقيموا الدنيا ويقعدوها ضد « التمثل » ، انما هم أولئك اليهود الرجعيون التافهون الضيقو الأفق الذين يريدون أن يعيدوا عجلة التاريخ الى الوراء ، أن يجيروها على الشير ، لا من النظام قائم في روسيا وغاليسيا باتجاه النظام القائم في باريس ونيويورك ، بل بالاتجاه المعاكس .

أما النسبة التي تستمر بها ، بصورة عامة ، عملية تمثّل القوميات في النطاق الحالي للرأسمالية المتقدمة ، فإننا نستطيع أن نكون عنها فكرة تقريبية من المعطيات المتعلقة بالهجرة الى الولايات المتحدة الامريكية الشمالية مثلاً . فقد تدفق

عليها من اوربا ٣ ملايين و ٧٠٠ ألف شخص خلال عشر سنوات ، من ١٨٩١ إلى ١٩٠٠ ، و ٧ ملايين و ٢٠٠ ألف شخص خلال تسع سنوات ، من ١٩٠١ إلى ١٩٠٩ . ويستفاد من احصاء سنة ١٩٠٠ أنه كان في الولايات المتحدة أكثر من ١٠ ملايين أجنبي . فولاية نيويورك ، التي بيّن هذا الاحصاء أن فيها أكثر من ٧٨٠٠٠٠٠ غسايوي و ١٣٦٠٠٠٠ انجليزي ، و ٢٠٠٠٠٠ فرنسي و ١٨٠٠٠٠٠ الماني و ٣٧٠٠٠٠ بحري و ٤٢٥٠٠٠٠ ايرلندي ، و ١٨٢٠٠٠٠ ايطالي ، و ٧٠٠٠٠٠ بولوني و ١٦٦٠٠٠ من روسيا (معظمهم من اليهود) و ٤٣٠٠٠٠ اسوجي الخ ، أشبه بطاحون يطحن الفوارق القومية . وما يجري في نيويورك على نطاق واسع ونامي ، يجري في كل مدينة كبيرة وحاضرة عمالية .

إن من لم يغرق في الأوهام القومية لابد أن يرى في هذه العملية ، أي في تمثل الرأسمالية للقوميات ، خطوة تاريخية هائلة الى الأمام ، تقضي على الجلود القومي في شتى الأحصاء النائية ، ولا سيما في البلدان المتأخرة كروسيا مثلاً .

انظروا الى روسيا وإلى موقف الروس من الاوكرانيين . يقيناً ان أي ديموقراطي ، وبالأحرى أي ماركسي ، سيناضل مجزم ضد اذلال الاوكرانيين ، وسيطالب بمساواتهم التامة في الحقوق مع الروس . ولكننا نكون قد افترقنا ، خيانة مباشرة بحق الاشتراكية واتباعنا سياسة خرقاء ، حتى من وجهة نظر «مهات» الاوكرانيين « القومية » البرجوازية ، اذا خففنا التحالف والصلة القائمة حالياً بين البروليتاريا الاوكرانية والبروليتاريا الروسية في نطاق الدولة الواحدة .

والسيد ليف بور كيفيتش ، الذي يدعي أيضاً أنه « ماركسي » (مسكين ماركس !) ، يعطي مثلاً عن هذه السياسة الخرقاء . فقد كتب بور كيفيتش يقول أن سو كولو فسكي (باسوك) ولوكاشيفيتش (تونشاسكي) أكدا في عام ١٩٠٦ أن البروليتاريا الاوكرانية قد « تروستت » تماماً ، وأنها لم تبقى بحاجة الى

منظمة خاصة بها . واذا بيور كيفيتش يمسك بتلابيهما ، دون أن يحاول تقديم أية واقعة من حيث جوهر المسألة ، ويصبح بصورة هستيرية - تماماً كما يفعل أي قومي متعصب ، زائف القدر وضيق الأفق ، ورجعي - بأن تأكيدهما ينطوي ، حسب زعمه ، على « سلبية قومية » على « وجود قومي » ، وبأنها « شقا !! » صفوف الماركسيين الأوكرانيين ، السخ . . . واذا بيور كيفيتش يؤكد أن أقلية العمال في اوكرانيا « واعية قومياً » في الوقت الحاضر ، رغم « نهوض الوعي القومي الأوكراني بين العمال » ، بينما الأغلبية « لا تزال تحت تأثير الثقافة الروسية » . ثم يهتف صاحبنا القومي التافه ، الضيق الأفق ، بأن مهمتنا « لا السير وراء الجماهير بل قيادتها وتوضيع المهات القومية لها » (مجلة « دزفين »^(١٥) ، ص ٨٩) .

إن محاكمة السيد بور كيفيتش هذه كلها قومية برجوازية تماماً . ولكنها لا تصمد أمام النقد ، حتى من وجهة نظر القوميين البرجوازين الذين يريد بعضهم الحكم الذاتي لاورانيا ومساواتها التامة مع روسيا ، والبعض الآخر يريد دولة اوكرانية مستقلة تماماً . ذلك أن عدو المطامح التحررية للاوكرانيين انما هو طبقة الملاكين العقاريين الروس والبولونيين ، ثم الطبقة البرجوازية الروسية والبولونية . فأي قوة اجتماعية تستطيع الصمود بوجه هاتين الطبقتين ومقاومتها ؟ لقد أعطى العقد الأول من القرن العشرين جواباً عملياً على هذا السؤال : هذه القوة هي ، حصراً ، الطبقة العاملة التي تقود وراءها طبقة الفلاحين الديموقراطية . ان السيد بور كيفيتش يخون ، لا مصالح الديموقراطية بوجه عام وحسب ، بل مصالح وطنه اوكرانيا أيضاً ، بمحاولته تقريب ، وبالتالي أضعاف ، القوة الديموقراطية الحلقة التي يستحيل مع انتصارها نشوء القهر القومي . إن قيام اوكرانيا حرة أمر ممكن بالعمل الموحد للبروليتاريين الروس والاوكرانيين ، وبدون هذه الوحدة لا يمكن الحديث في هذا الموضوع بتاتا .

الا أن الماركسيين لا يقتصرون على وجهة النظر القومية البرجوازية ،
 فمنذ عشرات السنين تبين أن جنوب البلاد ، أي اوكرانيا ، يتطور اقتصادياً
 بأسرع مما تتطور أنحاء البلاد الأخرى ، جاذباً من روسيا عشرات ومئات الألوف
 من الفلاحين والعمال الى مزارع الرأسماليين والمناجم والمدن . إن « تمثل » البروليتاريا
 الروسية والاوكرانية - ضمن هذه الحدود - واقع لاشك فيه . وهذا الواقع
 تقدمي قطعاً . فكان الموجيك الروسي أو الاوكراني المحدود التفكير ، الجامد ،
 المستقر ، المتوحش ، تضع الرأسمالية البروليتاري المتحرك ، المتقل ، الذي
 نخطم ظروف معيشته ضيق الأفق القومي الصرف ، الروسي أو الاوكراني .
 ولنفترض أن حدوداً دولية فصلت ذات يوم بين روسيا واوكرانيا ، ففي هذه
 الحالة ، أيضاً ، سينتم « تمثل » العمال الروس والاوكرانيين بطابع تقدمي تاريخي
 لاشك فيه ، يماثل تقدمية انصار القوميات في اميركا . وبقد ما تتمتع روسيا
 واوكرانيا بمزيد من الحرية ، يزداد تطور الرأسمالية سرعة وشمولاً مجتذباً ، بقوة
 أكبر ، عمال جميع القوميات ، من جميع مناطق الدولة وجميع الدول المجاورة .
 (لو أن الدولة الروسية أصبحت مجاورة لاوكرانيا) الى المدن والمناجم والمعامل .
 وحين ينبذ السيد ليف يور كيفيتش مصلحة بروليتاريا القوميتين في الاتحاد
 والاندماج والتمثل ، في سبيل نجاح آفي للمهات القومية الاوكرانية ، فهو يسلك
 سلوك برجوازي حقيقي ، بل سلوك برجوازي تافه ، قصير النظر ، ضيق الأفق ،
 محدود التفكير . فالقوميون البرجوازيون ، ومن بعدهم اليور كيفيتشيون
 والدوننسوفيون وغيرهم من الماركسيين المزعومين يقولون : المهات القومية أولاً
 ثم البروليتارية . أما نحن ، فنقول : المهات البروليتارية أولاً ، لأنها لا تؤمن
 مصالح العمل الدائمة الجذرية وحسب ، ولا تضمن مصالح الانسانية وحسب ، بل
 تؤمن ايضاً مصالح الديمقراطية ؛ فبدون الديمقراطية لا يمكن مجرد التفكير في حكم
 ذاتي لاوكرانيا أو في استقلالها .

ومن المهم ، أخيراً ، أن نشير في محاكمة بوركفيتش ، الزاخرة بالآيات القومية ، الى الآية التالية وهي قوله : ان أقلية العمال الاوكرانيين واعية قومياً ، بينما « لا تزال الأغلبية تحت تأثير الثقافة الروسية » .

ولكن معارضة الثقافة الاوكرانية بمجموعها بالثقافة الروسية بمجموعها ايضاً ، لما تعني أوقع خيانة لمصالح البروليتاريا لصالح التعصب القومي البرجوازي . وانا نقول لجميع القوميين - الاشتراكيين : إن في كل أمة معاصرة أمتين ، وفي كل ثقافة قومية ثقافتين قوميتين . فهناك ثقافة روسية مقرونة بأسماء بورشكفيتش وغوتشكوف وستروفه وأمثالهم ، وهناك ايضاً ثقافة روسية مقرونة بأسماء تشيرنيشفسكي وبلخانوف وأمثالها . كذلك أمة ثقافتان ماثلتان في اوكرانيا ، وكذلك في المانيا ، وفرنسا وانكلترا ، وعند اليهود ، الخ ... فإذا كانت أغلبية العمال الاوكرانيين واقعة تحت تأثير الثقافة الروسية ، فإننا نعلم اليقين أن لأفكار الحركة الديموقراطية والديموقراطية الاشتراكية الروسية تأثيرها الى جانب تأثير افكار الثقافة الروسية الإكليريكية والبرجوازية . فلما ركسي الاوكراني مجارب النوع الثاني من الثقافة ، ويبرز الثقافة الأولى ، ويقول للعمال الاوكرانيين : « ينبغي علينا حتماً أن نتمسك بكل قوانا بأي امكانية للاتصال بالعامل الروسي الواعي وأدبه وافكاره ، وأن نستخدم هذه الامكانية وندعمها . فهذا ما تقتضيه المصالح الجذرية للحركة العاملة الاوكرانية والروسية على السواء .

إذا انجرف الماركسي الاوكراني في تيار حقد مشروع وطبيعي تماماً على الطغاة المضطهدين الروس ، الى حد أن يكن ولو قدراً طفيفاً جداً من الحقد ، ولو شعوراً من البغضاء ، على ثقافة العمال الروس البروليتارية وقضيتهم البروليتارية فان هذا الماركسي ينزلق ، بالتالي ، في مستنقع التعصب القومي البرجوازي . كذلك ينزلق الماركسي الروسي في مستنقع التعصب القومي ، لا البرجوازي

وحسب ، بل الفارق في رجعية « المائة السود » ايضاً ، إذ انسي لحظة واحدة
مطلب المساواة التامة بين الاوكرانيين والروس ، أو حق الاوكرانيين في اقامة
دولة مستقلة .

وطالما أن العمال الروس والاوكرانيين يعيشون في اطار دولة واحدة ،
ينبغي عليهم أن يعملوا معاً ، بأوثق ما يكون من الوحدة والاندماج التنظيمي ،
على الدفاع عن ثقافة الحركة البروليتارية ، المشتركة أو الأمية ، وأن يبدوا أقصى
ما يكون من التسامح والتساهل فيما يتعلق بلغة الدعوة وأن يأخذوا بعين الاعتبار
المسائل التفصيلية المحلية الخالصة ، أو القومية الخالصة لهذه الدعوة . ذلك ما
تطلبه الماركسية بالضرورة . وكل دعوة ترمي الى فصل عمال قومية ما عن عمال
قومية أخرى ، وكل حملة على « التمثل » الماركسية ، وكل محاولة في قضايا
البروليتاريا لمعارضة ثقافة قومية بمجموعها بثقافة قومية أخرى يزعم انها واحدة
الخ ... ذلك كله ضرب من التعصب البرجوازي ينبغي حتماً مكافحته بلا هوادة .

كتب فيما بين ت ١ - ك ١٩١٣

ج ٢٤ ص ١١٩ - ١٣٠

بصدد كرامة الروس القومية

ما اكثر ما يتكلمون اليوم وما يتباحثون ويصيحون بصدد القومية والوطن ! الوزراء الليبراليون والراдикаليون في انكلترا ، وجمهرة من الكتاب السياسيين الفرنسيين « التقدميين » (الذين بدوا على وفاق تام مع كتاب الرجعية السياسيين) ، وكثرة من الكتبة الرسميين والكاديت والتقدميين (وحتى بعض من الشعيين و « الماركسيين ») في روسيا ، يتغنون كلهم بالفحن ولحن بحرية « الوطن » واستقلاله ، وبعظمة مبدأ الاستقلال الوطني ، حتى غدا من العسير على المرء ان يميز في هذه الجوقة الحد الفاصل بين المأجور الذي يكبل آبات الشاء للجلاد نيقولاي رومانوف ، أو لمعذبي الزوج وسكان الهند ، وبين الأخرق الضيق الأفق الذي يسبح مع « التيار » لبلأته او لضعف في نفسه . ليس من المهم التمييز بين هذا او ذاك . فأمامنا تيار فكري واسع جداً وعميق جداً ، جذوره على صلة وثيقة بمصالح السادة ملاكي الأراضي والرأسماليين في الأمم العظمى . وتنفق على الدعاية للأفكار الملائمة لمصالح هاتين الطبقتين عشرات ، بل مئات الملايين في السنة : وهي طاحونة كبيرة تتلقى الماء من كل ناحية ، ابتداء من الشوفيني ايماناً كمنشيكوف ، وانتهاء بالشوفينيين انتهازاً أو ضعفاً كأمثال بليخانوف وماسلوف وروبانوفيتش وسيمرنوف وكروبوتكين وبورتيشف .

فلنحاول ايضاً، نحن الاشتراكيين - الديموقراطيين الروس ، تحديد موقفنا من هذا التيار الفكري . فلا يليق بنا ، نحن ممثلي الأمة العظمى الممتدة إلى أقصى الشرق من اوربا وإلى قسم كبير من آسيا ، أن ننسى مدى أهمية المسألة

القومية ، لا سيما في بلاد توصف بحق بأنها « سجن الشعوب » ، وفي وقت بدأت فيه الرأسمالية توظف للحياة وللادراك ، وعلى التحديد في اقصى شرق اوربا وفي آسيا ، مجموعة من أمم « جديدة » كبيرة وصغيرة ، وفي ظرف جندت فيه القيصرية الملايين من الروس وغير الروس « حل » مجموعة كاملة من المسائل القومية وفقاً لمصالح مجلس النبلاء المتحدين^(١٦) وغوتشكوف وكريستوفنيكوف ودولغوروكوف وكوتليور وروديتشيف وأضراهم .

هل غريب علينا ، نحن البروليتاريين الروس الواعين ، الشعور بالكرامة القومية ؟ كلا ، بالطبع ! نحن نحب لغتنا ، ونحب وطننا ، ونبذل قصارى جهودنا لكي ننهض بجماهير شغيلته (اي بتسعة اعشار سكانه) الى مستوى حياة الديمقراطيين والاستراكيين الواعية . واكثر ما يحز في انفسنا أن نرى ما يتعرض له وطننا الرائع من الوان القهر والاضطهاد والمهانة على ايدي الجلادين أعوان القصر ، بلاء ورأسماليين، ونحن نعتز بأن هذا العنف قد لاقى المقاومة من بيئتنا ، من بيثة الروس ، وبأن هذه البيثة قد ابرزت راديشيف والديسمبريين والثوريين اللانبلاء في العقد الثامن ، وبأن الطبقة العاملة الروسية قد است. سنة ١٩٠٥ حزباً جماهيرياً ثورياً قوياً ، وان الموجيك الروسي بدأ ، في الوقت نفسه ، يصبح ديمقراطياً ، بدأ يزبح عن أكتافه الكاهن والاقطاعي .

نحن ما نزال نذكر أن الديموقراطي الروسي تشيرنيشيفسكي قال منذ نصف قرن مضى، عندما وهب قضية الثورة حياته : « امة وضيفة ، امة عبيد، الجميع عبيد من اعلى الى أسفل » . إن العبيد الروس السافرين والمستترين (عبيد القيصرية) لا يروقه أن يتذكروا هذه الكلمات . على أن هذه الكلمات هي، في رأينا، كلمات حب صادق للوطن ، حب أصابه السأم لانعدام الروح الثورية بين جماهير السكان الروس . كانت هذه الروح معدومة آنذاك ، وهي اليوم ضعيفة، ولكنها موجودة.

ونحن مفعمون بالكرامة القومية ، لأن الأمة الروسية انشأت هي ايضا طبقة
ثورية برهنت ، هي ايضا، أنها أهل لأن تعطي البشرية لا المذابح العظمى وصنوف
المشائق والسجون والمجاعات الكبرى والخنوع العظيم أمام القس والقيصرة
والاقطاعيين والرأسماليين فحسب ، بل آيات رائعة من النضال من أجل الحرية
والاشتراكية أيضاً .

نحن مفعمون بالكرامة القومية ، ولذلك بالضبط نمت أشد المقت ماضينا
الذليل (عند ما كان النبلاء الاقطاعيون يسوقون الموجيه الى الحرب لخلق حرية
هنغاريا وبولونيا وايران والصين) ، ونمت أشد المقت حاضرا الذليل ، حيث
يسوقنا الاقطاعيون أنفسهم ، يساعد المراسميون ، الى الحرب كي نخلق بولونيا
واوكرانيا ، لكي نقيم الحركة الديمقراطية في ايران والصين ، ونقدم العصابة
التي تهين كرامتنا القومية الروسية، عصابة رومانوف وبورينسكي وبوريشكيفيتش
واضراهم . لا يلام العبد إذا ولد عبداً ، غير أن العبد الذي يبرأ من النزوع الى
الحرية ، ويبرر بالاضافة الى ذلك عبوديته ويزينها (يسمى مثلاً خلق بولونيا
واوكرانيا ، الخ ... » دفاعاً عن وطن الروس) ، إن مثل هذا العبد هو نذل
ووضع ، يستدعي بحق شعور السخط والاحتكار والاشتمزاز.

« إن شعباً يظلم شعباً أخرى لا نتمكن أن يكون حراً - هذا ما قاله
رجلان هما اكبر ممثلي الديمقراطية المتأسكة في القرن التاسع عشر، نغني ماركس
وانغلز ، اللذين اصبحا معلمي البروليتاريا الثورية . ونحن ، العمال الروس المفعمين
بشعور الكرامة القومية ، نريد ، مهما كلف الامر ، روسيا عزيزة جمهورية
ديمقراطية ، مستقلة ، حرة ، تبني علاقاتها مع جيرانها على أساس مبدأ انساني من
المساواة ، لا على أساس مبدأ الامتيازات الاقطاعي المهيمن لأمة عظمى . ونظراً
لأننا نريدها كذلك ، نقول : في اوروبا القرن العشرين (حتى ولو في اقصى

شرق اوروبا) لا يمكن « الدفاع عن الوطن » إلا عن طريق النضال بجميع الوسائل الثورية ضد الملكية والاقطاعيين والرأسماليين في وطننا نحن ، اي ضد أسوأ أعداء وطننا ؛ لا يمكن للروس أن « يدافعوا عن الوطن » عن غير طريق الرغبة بانهزام القيصرية في كل حرب ، باعتبار ذلك أهون الشرين لتسعة اعشار سكان روسيا العظى ، لأن القيصرية لا تظلم تسعة اعشار السكان هذه اقتصادياً وسياسياً وحسب ، بل هي تفسدهم وتحتقرهم وتفقد عزتهم وكرامتهم إذ تعودهم على ظلم الشعوب الأخرى وتغطية عارهم بعبارات نفاق تدعي الوطنية .

قد يعترض معترض قائلاً : إنه قد نشأت وتعززت بالاضافة إلى القيصرية وفي كفها قوة تاريخية أخرى هي الرأسمالية الروسية التي تقوم بعمل تقدمي وتركز وترص ، من الناحية الاقتصادية ، مقاطعات شاسعة . غير أن مثل هذا الاعتراض لا يبور ، بل يشدد الاتهام الموجه لاشتراكيينا – الشوفينيين الذين ينبغي أن ينعتوا بالاشتراكيين القيصريين – البوريشكيفيشيين (على غرار ما فعل ماركس إذ نعت اللاساليين بالاشتراكيين الملكيين – البروسيين) . ولنفرض أن التاريخ سيحسم المسألة لصالح الرأسمالية الروسية ، ضد مئة أمة وامة من الأمم الصغيرة ، وهذا ليس بالأمر المستحيل ، لأن تاريخ رأس المال بأكمله هو تاريخ عنف وغب ، تاريخ دماء وأقذار . نحن لسنا من انصار الأمم الصغيرة على التأكيد ، ونحن ، في حالة تساوي الشروط الأخرى نقف بصورة قاطعة الى جانب المركزية ضد المثل الأعلى لصغار البرجوازيين القائل بالعلاقات الانحدادية . ولكن ، أولاً ، ليس من شأننا ، حتى في هذه الحالة ، ليس من شأن الديموقراطيين (فضلا عن الاشتراكيين) أن يساعدوا رومانوف – بوبرينسكي – بوريشكيفيتش على خنق اوكرانيا ، الخ . . لقد قام بيسمارك على طريقته ، على طريقة اليونكر ، بعمل تاريخي تقدمي ؛ ولكن ما اروع « الماركسي » الذي يفكر استناداً الى ذلك في تبرير مساعدة الاشتراكيين لبيسمارك ! ولا يجب أن يغيب عنا أن بيسمارك قد مهد للتطور

الاقتصادي بتوحيده الألمان المبعثرين الذين كانت تظلمهم الشعوب الأخرى . هذا في حين ان ازدهار روسيا العظمى الاقتصادي وتطورها السريع يتطلبان تخليص البلاد من طغيان الروس على الشعوب الأخرى ، وهذا هو الفرق الذي ينسأه الروس المغرمون بأشباه بيسمارك الروسي .

ثانياً ، واذا ما حسم التاريخ المسألة لصالح الرأسمالية الروسية ، يستنتج من ذلك أن الدور الاشتراكي للبروليتاريا الروسية سيكون اكبر باعتبارها المحرك الرئيسي للثورة الشيوعية التي تنشأ عن الرأسمالية . والثورة البروليتارية تتطلب تربية العمال ، خلال فترة طويلة ، بروح الإخاء والمساواة التامة بين الأمم . وعلى ذلك فمن الضروري ، من وجهة نظر مصالح البروليتاريا الروسية ذاتها ، تربية الجماهير خلال فترة طويلة بروح الدفاع بمنتهى الحزم والاستقامة والجرأة والروح الثورية ، عن المساواة التامة وعن حق الأمم التي يظلمها الروس في تقرير المصير . ان مصلحة كرامة الروس القومية تتفق (ان لم تفهم كما يفهمها العبيد) والمصالح الاشتراكية للبروليتاريين الروس (وغير الروس) . ان ما ركس ، الذي عاش عشرات السنين في انكلترا واصبح نصف انجليزي وطالب بالحرية والاستقلال الوطني لارلندا وفق مصالح حركة العمال الانكليز الاشتراكية ، لا يزال قدوتنا .

إن اشتراكينا الشوفينيين الذين تزعروا على تربتنا ، مثل بليخانوف ومن على ساكته وأضرابه ، يظهرون في الحالة المفترضة الأخيرة التي مجنأها خونة لاولئهم وحسب ، لروسيا العظمى الديمقراطية الحرة ، بل للاخاء البروليتاري بين جميع شعوب روسيا ، أي خونة اقضية الاشتراكية .

طبع في ١٢/١٢/١٩١٤

ج ٢٦ ص ١٠٦ - ١١٠

من كتاب « ما العمل ؟ »

المسائل الملحة لحركتنا

لم يسبق أن طرحت أمام أي حزب اشتراكي في العالم مهام كالمهام الوطنية المطروحة أمام الاشتراكية الديمقراطية الروسية . وسنتكلم فيما بعد عن الواجبات السياسية والتنظيمية التي تلقينا على عاتقنا مهمة تحرير الشعب كله من نير الحكم المطلق . وبودنا فقط ان نشير هنا الى أنه لا يستطيع القيام بدور المناضل الطبيعي الا حزب يسترشد بنظرية الطليعة . واذا أراد القارىء أن يكون فكرة مشخصة الى حد ما عما يعنيه ذلك ، فليذكر اسلاف الاشتراكية الديمقراطية الروسية من أمثال غروتسكين وبيلينسكي وتشيرنيسفسكي والمجموعة الرائعة من توريبي العقد الثامن ؛ وليفكر في الأهمية العالمية التي يكتسبها الأدب الروسي في الوقت الراهن ؛ فليفكر .. ويكفيه هذا ! ..

كتب في خريف ١٩٠١ - شباط ١٩٠٢

ج ٢٦ ص ٢٥

دور مختلف الفئات والطبقات في حركة التحرر

وردت في إحدى المجلات الحقوقية إحصائيات عن الجرائم السياسية في روسيا^(١٧). ولهذه المعطيات مغزاها الكبير ، فهي تعطي معلومات دقيقة عن دور الفئات والطبقات في حركة التحرر بمختلف عهودها التاريخية .

هذه المعطيات غير تامة مع الأسف ، لأنها أبرزت المراحل التالية فقط وهي : ١٨٢٧ - ١٨٤٦ (عهد القنانة) ؛ ١٨٨٤ - ١٨٩٠ (عهد الحركة الروزنتشينية (٠) ؛ اختلاط الحركة البرجوازية الليبرالية والليبرالية الشعبية) . وأخيراً الفترتان ، السابقة للثورة مباشرة (١٩٠١ - ١٩٠٣) ، والثورية (١٩٠٥ - ١٩٠٨) أي فترتا الحركة البرجوازية الديمقراطية والبروليتارية .

والمعطيات المتوفرة عن دور الفئات هي التالية . من أصل مئة قدموا للمحاكمة بسبب جرائم سياسية كان ما يلي :

الفترة	من النبلاء	من البرجوازيين الصغار والفلاحين	من رجال الدين	من التجار
١٨٤٦ - ١٨٢٧	٧٦	٢٣	؟	؟
١٨٨٤ - ١٨٩٠	٣٠٦	٤٦٦	٦٥٤	١٢١
١٩٠١ - ١٩٠٣	١٠٧	٨٠٩	١٥٦	٤١
١٩٠٥ - ١٩٠٨	٩١	٨٧٧	؟	؟

(*) حركة مثقفين لا ينتمون الى النبلاء بل الى مختلف الفئات الشعبية (المعرب)

يظهر بوضوح من هنا كيف أصبحت الحركة التحررية في القرن التاسع عشر أكثر ديمقراطية ، وكيف تبدل تركيبها الطبقي . ان عهد القنانة (١٨٢٧ - ١٨٤٦) يتصف بسيطرة النبلاء . انها الفترة الممتدة من الديسمبريين حتى غرتسن : روسيا الفلاحية مسحوقة وساكنة ، والمحتجون أقلية ضئيلة من النبلاء العاجزين بدون مساندة الشعب . ولكن أفضل الناس من طبقة النبلاء ساعدوا على إيقاف الشعب .

الفترة الروزناثينية أو الفترة البرجوازية الليبرالية (١٨٨٤ - ١٨٩٠) - ويشكل النبلاء فيها أصغر قسم بين المشاركين في الحركة التحررية . ولكن إذا أضفنا إليهم رجال الدين والتجار ، سيكون لدينا ٤٩٪ أي النصف تقريباً . إن نصف الحركة لا زال من صنع الفئات صاحبة الامتيازات ، أي النبلاء والفئات العليا من البرجوازية . ومن هنا عجز الحركة بغض النظر عن بطولة أفرادها .

الفترة الثالثة (١٩٠١ - ١٩٠٣) والرابعة (١٩٠٥ - ١٩٠٨) ، هما فترتان الديمقراطية الفلاحية والبروليتارية . إن دور النبلاء فيها تافه جداً . البرجوازيون الصغار والفلاحون يشكلون ٨/١٠ قبل الثورة و ٩/١٠ أثناءها . لقد استيقظت الجماهير . ومن هنا نتيجتان : ١ - امكانية الحصول على شيء ما جدي ٢ - حقد الليبراليين على الحركة (ظهور الليبرالية المعادية للثورة) .

والمعطيات المتعلقة بالمهن في الفترات الثلاث الأخيرة فقط أكثر دلالة . فمن أصل مائة مشارك في حركة التحرر ، قدموا للمحاكمة لجرائم سياسية ، كان مايلي :

الفترة	عاملون بالصناعة	أعمال حرة	أعمال غير
	بازراعة	والتجارة	وطلاب محددة وعاطلون
١٨٨٤ - ١٨٩٠	٧٠١	١٥٠١	٥٣٠٣
١٩٠١ - ١٩٠٣	٩٠٠	٤٦٠١	١٨٠٧
١٩٠٥ - ١٩٠٨	٢٤٠٢	٤٧٠٤	٢٢٠٩
			٥٠٥

إنها أرقام ذات دلالة عظيمة ، إذ يتضح منها مباشرة دور روزناتشينين في فترة الشعبية ومحبي الشعب (١٨٨٤ - ١٨٩٠) : فعظم المشاركون طلاب وأصحاب من حرية (٥٣,٤ ٪) . إن اختلاط الحركة البرجوازية الليبرالية والليبرالية الشعبية بالدور البارز الذي قام به الطلاب والمثقفون هي الماهية الطبقة للأحزاب والحركة آنذاك . الفلاحون (الزراعة) وعمال الصناعة (الصناعة والتجارة) يشكلون أقلية ضئيلة (٧ و ١٥ ٪) . أما ما يسمى بالناس المنفصلين عن طبقتهم الذين بقوا بدون أي رابطة مع أي طبقة - هؤلاء الناس يشكلون الخمس (١٩,٩ ٪) ، أي أن عددهم أكبر من عدد الفلاحين وأكبر من عدد العمال ! من هنا نشأت الأشكال الخاصة لهذه الحركة ، ومن هنا عظمة بطولتها وعجزها على حد سواء .

وتقترب فترة ما قبل الثورة (١٩٠١ - ١٩٠٣) . إن عامل المدينة (الصناعة والتجارة) يقوم فيها بالدور الأول . ومع أن العمال يمثلون أقلية الشعب ، فإنهم يشكلون نصف المشاركين في الحركة تقريباً (٤٦,١ ٪) . أما المثقفون والطلاب فقد أصبحوا في المرتبة الثانية (على الرغم من ادعاءات الليبراليين والتصفويين الخرافية حول الحزب العمالي) . إن دور الفلاحين ضئيل (٩ ٪ في الزراعة) ، لكنه ينمو .

والفترة الأخيرة من (١٩٠٥ - ١٩٠٨) ، وقد نما فيها دور عمال المدن من ٤٦,١ ٪ إلى ٤٧,٤ ٪ ، هؤلاء الذين أيقظوا بدورهم جماهير الفلاحين التي زادت مشاركتها في الحركة أكثر من الطبقات الأخرى كلها : من ٩ ٪ حتى ٢٤,٢ ٪ ، أي زادت بنسبة ثلاثة أضعاف تقريباً . لقد تجاوز عدد الفلاحين عدد المثقفين الليبراليين (٢٢,٩ ٪) ، أما دور المنفصلين عن طبقتهم فتناه (٥,٥ ٪) . إن

طابع الافتراء والحقد الكامن في النظرة الليبرالية إلى ماهية ثورتنا ، على أنها ثورة « مثقفين » ، غنيّ عن البيان .

البروليتاريا والديمقراطية البرجوازية (الفلاحون) - هاتان هما القوتان الاجتماعيتان للحركة . لكن الفلاحين الذين يشكلون الغالبية العظمى من السكان ، بالنسبة للعمال وساكني المدن ، لا زالوا في المؤخرة إذ لا يقدمون إلاّ ربع المشاركين (٢٤,٢ ٪) ، ذلك أنهم لمّا يستيقظوا إلاّ بشكل ضعيف .

يبقى علي أن أنهي حديثي بكيّل المديح لسياسة متوليين الزراعيّة (سياسة الثالث من حزيران) التي توقظ من تبقى من الفلاحين بنجاح وسرعة وقوّة . . .

طبع في ٢٨/٨/١٩١٣

ج ٢٣ ، ص ٣٩٧ - ٣٩٩

من ماضي الصحافة العمالية في روسيا

يرتبط تاريخ الصحافة العمالية في روسيا اوثق ارتباط بتاريخ الحركة الديمقراطية والاشتراكية . ولهذا ، ليس بمقدورنا أن نفهم فعلاً أسباب الاعداد للصحافة العمالية ، ونشئها بهذا الشكل أو ذاك ، إلا إذا عرفنا المراحل الرئيسية لتطور الحركة التحررية .

لقد مرت حركة التحرر في روسيا بثلاث مراحل رئيسية تتسق والطبقات الرئيسية الثلاث في المجتمع ، التي أضفت طابعها المميز على الحركة ١ - مرحلة حركة النبلاء ، وتمتد على وجه التقريب من (١٨٢٥ إلى ١٨٦١) . ٢ - المرحلة الروزنتشينية أو البرجوازية الديمقراطية من ١٨٦١ إلى ١٨٩٥ تقريباً . ٣ - المرحلة البروليتارية من ١٨٩٥ حتى يومنا هذا .

كان الديسمبريون وغرتسن أبرز المشاركين في حركة النبلاء . ففي تلك المرحلة لا يمكن التحدث اطلاقاً عن تميز الطبقة العاملة عن الجمهور الواسع من فئة الأفنات « المعدومة الحقوق » ، « الفئة الدنيا » ، « الرعاي » . وكانت الصحافة الديمقراطية العامة غير المراقبة ، وفي مقدمتها جريدة غرتسن (الكولوكول^{١٨}) السلف الأول للصحافة العمالية (البروليتارية الديمقراطية أو الاشتراكية الديمقراطية) .

وكما أيقظ الديسمبريون غرتسن فقد ساعد هو وصحيفته « الكولوكول » على إيقاظ الرزنتشينين ، وهم يمثلون متعلمون للبرجوازية الليبرالية والديمقراطية

لا ينتمون الى الأشراف بل الى فئة الموظفين والبرجوازيين والتجار والفلاحين . وكان ف. غ. بيلينسكي ، وفي عهد القنائة ، السباق الى إظهار إخراج الرانوتشينين للنبلاء إخراجاً كاملاً من حركة التحرر الوطني . وكانت رسالته الشهيرة الى غوغول ، التي أجملت نتائج نشاطه الأدبي ، أحد أفضل مؤلفات الصحافة الديمقراطية غير المراقبة ، التي لا تزال تحتفظ بأهمية بالغة حية حتى يومنا هذا .

وقد استدعى سقوط القنائة ظهور الرانوتشينين ، بوصفهم أهم المشاركين وأكثرهم جماهيرية ، في حركة التحرر الوطني بعامة ، وفي الصحافة الديمقراطية غير المراقبة بخاصة . وأصبحت الشعبية الاتجاه السائد المطابق لوجهة نظر الرانوتشينين . ولم تستطع الشعبية ، بوصفها تياراً اجتماعياً ، أن تتخلص من الليبرالية من اليمين ، والفوضوية من اليسار . لكن تشيرنيشفسكي الذي طور ، بعد غرتسن ، النظرة الشعبية خطأ خطوة هائلة الى الأمام ضد غرتسن . فقد كان أكثر ديمقراطية وتمسكاً وروحاً نضالية من سابقه ، ومن مؤلفاته نهب روح الصراع الطبقي . لقد عرى تعرية عنيفة ، وحتى النهاية ، خيانات الليبرالية ، تعرية لا زالت كريمة على نفوس الكاديت والليبراليين حتى الآن ، وكان ، الى ذلك ، ناقداً عميقاً الى حد الروعة الرأسمالية على الرغم من اشتراكه الطوباوية .

ويعرف العقدان السابع والثامن مجموعة كاملة من المؤلفات الصحفية غير المراقبة ذات الطابع الديمقراطي الكفاحي والاشتراكي الديمقراطي بدأت تنتشر بين الجماهير . ويحتل العاملان بيوتر ألكسييف وستيان خالتورين وغيرهما مكاناً بارزاً جداً بين رجال ذلك العهد . إلا أن التيار البروليتاري الديمقراطي لم يستطع أن يتميز وسط هذا السيل العارم من الشعبية . ولم يصبح تميزه ممكناً إلا بعد أن تحدد فكراً اتجاه الماركسية الروسية (جماعة « تحرير العمل » ، عام ١٨٨٣) (١٩)

وبدأت حركة عمالية متواصلة مرتبطة بالاشتراكية الديمقراطية (إضرابات بطرسبرج في عامي ١٨٩٥ - ١٨٩٦) .

وسنورد ، قبل الانتقال الى هذه الفترة ، معطيات تبين بجلاء الفروق الطبقة بين المراحل التاريخية الثلاث التي أشرنا اليها ، وهي معطيات تتناول توزيع الأشخاص الذين قدموا الى المحاكم لجرائم سياسية ، من حيث فئاتهم ومهنتهم (من حيث طبقهم) . فمن أصل (١٠٠) مائة من هؤلاء كان :

برجوازيون صفار

في أعوام	نبلاء	وفلاحون	فلاحون	عمال	مثقفون
١٨٢٧ - ١٨٤٦	٧٦	٢٣	؟	؟	؟
١٨٨٤ - ١٨٩٠	٢٠٦	٤٦٦	٧١	١٥١٠	٧٣٢
١٩٠١ - ١٩٠٣	١٠٧	٨٠٩	٩٠	٤٦١	٣٦٧
١٩٠٥ - ١٩٠٨	٧١	٨٧٧	٢٤٢	٤٧٤	٢٨٤

ففي مرحلة النبلاء ، مرحلة القنانة (١٨٢٧ - ١٨٤٦) أعطى النبلاء ، وهم الأقلية الضئيلة من السكان ، الغالبية العظمى من « المجرمين السياسيين » (٧٦ ٪) . وفي المرحلة انشعبية ، مرحلة الازنونشينية (١٨٨٤ - ١٨٩٠) (ليس عندنا مع الألف معطيات مماثلة عن العقدين السابع والثامن) ، يتراجع النبلاء الى الصف الثاني ، ولكنهم يعطون مع ذلك نسبة عظيمة (٣٠٦ ٪) ، كما يشكل المثقفون الأغلبية الساحقة بين المشاركين في الحركة الديمقراطية (٧٣٢ ٪) .

أما الفترة ما بين عامي ١٩٠١ - ١٩٠٣ ، وفيها ، بالضبط ، ظهرت أول صحيفة ماركسية سياسية ، هي « الإسكر » (٢٠) القديمة ، وأصبحت الحركة ديمقراطية تماماً ، (١٠٧ ٪) من النبلاء و (٨٠٩ ٪) من « غير ذوي الامتيازات » ، فالأغلبية فيها للعمال (٤٦١ ٪) على المثقفين (٣٦٧ ٪) .

ولنسجل ، سلفاً ، أن مرحلة الحركة الجماهيرية الأولى (١٩٠٥ - ١٩٠٨) تظهر التغير بشكل إزاحة الفلاحين (من ٩٠ ٪ الى ٢٤,٢ ٪) للمتقنين عن مواقعهم (من ٣٦,٧ إلى ٢٨,٤ ٪) .

تعتبر جماعة « تحرير العمل » ، التي نشأت خارج البلاد عام ١٨٨٣ ، مؤسسة الاشتراكية الديمقراطية في روسيا ، فقد أخذت مؤلفاتها الادبية غير المراقبة تعرض أفكار الماركسية بانتظام لأول مرة ، وما تستدعيه من نتائج عملية - هذه الأفكار التي تعتبر ، كما تدل على ذلك تجربة العالم كله ، تعبيراً صحيحاً عن ماهية الحركة العمالية ومهامها . ولعل إصدار الصحيفة الاشتراكية الديمقراطية ، غير المراقبة طبعاً ، والمسماة « رابوتشي » (٢١) عام ١٨٨٥ في بطرسبرغ كان خلال اثني عشر عاماً ، من ١٨٨٣ وحتى عام ١٨٩٣ ، المحاولة الوحيدة لإنشاء صحافة عمالية اشتراكية ديمقراطية في روسيا . لكنه لم يصدر من هذه الصحيفة إلا عددان . إذ لم يمكن غياب الحركة العمالية الجماهيرية الصحافة العمالية من أن تتطور تطوراً واسعاً .

وتبدأ منذ عام ١٨٩٥ - ١٨٩٦ ، أي من تاريخ إضرابات بطرسبرج الشهيرة ، حركة عمالية جماهيرية بمشاركة الاشتراكية الديمقراطية وهذه الفترة ، بالذات ، هي فترة ظهور الصحافة العمالية في روسيا بالمعنى الدقيق للكلمة . وكانت أهم منشورات الصحافة العمالية آنذاك بيانات غير مراقبة ، وغير مطبوعة في معظمها ، بل مسحوبة على الآلة ، ومكرسة للدعوة الاقتصادية (وغير الاقتصادية كذلك) ، أي لعرض حاجات عمال مختلف المعامل وفروع الصناعة ومطالبهم . ومن المسلم به أنه كان من المتعذر أن يوجد مثل هذا الأدب بدون مشاركة العمال التقدميين مشاركة فعالة جداً في وضع هذه البيانات وتوزيعها . وبإمكاننا أن نذكر من بين عمال بطرسبرج الناشطين آنذاك فاسيلي اندريفتش شيلغونوف الذي فقد بصره فيما

بعد وحرم بهذا امكانية قيامه بالعمل بمثل نشاطه السابق ، ونصير « الاسكرا »
المتحمس (١٩٠٠ - ١٩٠٣) « والبشفيكي » فاسيلي ايفان بابوشكين (١٩٠٣ -
١٩٠٥) الذي أعدم لاشتراكه في الانتفاضة التي حدثت في سيبيريا في أواخر
عام ١٩٠٥ أو أوائل ١٩٠٦ .

كانت هذه البيانات تصدر عن المجموعات والحلقات والمنظمات الاشتراكية
الديمقراطية التي أخذت تسمى منذ أواخر عام ١٨٩٥ « اتحادات النضال من أجل
تحرير الطبقة العاملة » . وفي عام ١٨٩٨ أسس مؤتمر ممثلي المنظمات الاشتراكية
الديمقراطية المحلية « الحزب الاشتراكي الديمقراطي الروسي » .

وبدأت تظهر بعد البيانات صحف عمالية غير مراقبة . ففي بطرسبرج ،
مثلاً، صدرت في عام ١٨٩٧ صحيفة « رابوتشي ليستوك »^(٢٢) وصحيفة « رابوتشيا
ميسل »^(٢٣) التي ما لبثت أن انتقلت الى خارج البلاد . ومنذ هذا الوقت والصحف
الاشتراكية الديمقراطية المحلية تظهر غير مراقبة حتى الثورة . لقد كانت عرضة ،
بالطبع ، للقضاء عليها ، لكنها كانت تعود مجدداً الى الظهور في كافة أرجاء روسيا .

وتبدو البيانات العمالية والصحف الاشتراكية الديمقراطية آنذاك ، اي
منذ عشرين سنة ، اذا ما أخذت مجتمعة ، السلف المباشر للصحافة العمالية الحالية :
ففيها ، كما في الصحافة العمالية الحالية ، فصح لما يجري في المعامل واخبار النضال
« الاقتصادي » ، والتوضيح المبدئي لمهام الحركة العمالية من وجهة نظر
الماركسية والديمقراطية المتأسكة ، واخيراً الاتجاهان الرئيسيان نفسيهما :
الماركسي والانتهازي .

وهناك واقع رائع لم يعرف حقه من التقدير حتى الآن ، هو أنه ما إن
ظهرت الحركة العمالية الجماهيرية في روسيا (في عامي ١٨٩٥ - ١٨٩٦) ، حتى

ظهر الانقسام الى اتجاهين : ماركسي وانتهازي ، هذا الانقسام الذي يغير شكله ولباسه الخ .. لكنه يبقى ، من حيث جوهوه ، واحداً من ١٨٩٤ حتى ١٩١٤ . ومن الواضح تماماً أن لهذا الشكل بالذات من الانفصال والصراع داخل الاشتراكية الديمقراطية جذوراً اجتماعية ، طبقية عميقة .

كانت صحيفة « رابوتشيا ميسل » الآنفه الذكر تمثل آنذاك الاتجاه الانتهازي الذي سمي « بالاتجاه الاقتصادي » وقد توضحت معالم هذا الاتجاه في المناقشات التي دارت بين رجال الحركة العمالية المحليين في عامي ١٨٩٤ و ١٨٩٥ . وقد انتهى ظهور « الاقتصاديين » وتراصهم في الخارج ، حيث أدت نقطة العمال الروس الى ازدهار واسع في الادب الاشتراكي الديمقراطي ، بالانشقاق في ربيع عام ١٩٠٠ (أي قبل ظهور « الاسكرا » التي ظهر العدد الاول منها في آخر عام ١٩٠٠)

إن تاريخ الصحافة الحزبية في عشرين عاماً (١٨٩٤ - ١٩١٤) هو تاريخ اتجاهين في الماركسية الروسية وفي الاشتراكية الديمقراطية الروسية (والأصح في عموم روسيا) . علينا كي نفهم تاريخ الصحافة الحزبية في روسيا ، لا أن نعرف فقط (كما لا يكفي أن نعرف) أسماء الصحف التي لم تعد تبني شيئاً للقارئ المعاصر ، والتي لا تعمل إلا على بلبلة افكاره ، بل ان نعرف ، بالدرجة الأولى ، مضمون الأجندة المتعددة في الاشتراكية الديمقراطية وطابعها وخطها الفكري .

كانت « رابوتشيا ميسل (١٨٩٧ - ١٩٠٠) و « رابوتشي ديبلو » (٢٤) (١٨٩٨ - ١٩٠١) الصحيفتين الرئيسيتين الناطقتين باسم « الاقتصاديين » . وكان على رأس « رابوتشي ديبلو » ب كريتشفسكي ، الذي انضم فيما بعد الى النقابيين ، والمنشفي البارز أ . مارتينوف وهو الآن تصفوي ، واكيموف وهو الآن « اشتراكي ديمقراطي مستقل » يوافق التصفويين في المسائل الجوهرية كلها.

وكان بليخانوف وجماعة « تحرير العمل » كلهم يناضلون وحدهم ضد « الاقتصاديين » في أول الأمر (مجلة « رابوتنيك »^(٢٥) ، الخ) ثم انضمت اليهم « الاسكرا » (من ١٩٠٠ الى آب ١٩٠٣ ، أي حتى المؤتمر الثاني للحزب العمالي الاشتراكي الديمقراطي الروسي) . ففيم كانت ماهية « الانجاء الاقتصادي »؟؟

كان « الاقتصاديون » يدافعون ، بالكلمات وحدها ، دفاعاً قوياً بنوع خاص عن الطابع الجماهيري للحركة العمالية ، وعن مبادرة العمال الذاتية ، ويلجئون على اولوية التحريض « الاقتصادي » ، وعلى الاعتدال أو التدرج في الانتقال الى التحريض السياسي . وهي نفسها ، كما يرى القارىء ، الكلمات الاثيرة على نفوس التصفيين الذين يتغنون بها . وقد مارس « الاقتصاديون » بالفعل سياسة عمالية ليبرالية عبر عن ماهيتها بايجاز أحد قادة « الاقتصادية » آنذاك السيد س . ن . بروكوبوفتش بقوله : « النضال الاقتصادي للعمال ، والسياسي لليبراليين » . وفي الواقع كان الاقتصاديون ، وهم اكثر الناس كلاماً وصراخاً عن المبادرة العمالية وعن الحركة الجماهيرية ، يشكون الجناح الانتهازي البرجوازي المثقف في الحركة العمالية .

لقد وقفت الاكثريّة الساحقة من العمال الواعين ، ومنهم ٤٦ شخصاً من أصل ١٠٠ شخص قدموا للمحاكمة بتهمة سياسية مقابل ٣٧ مثقفاً بين عامي ١٩٠١ - ١٩٠٣ ، الى جانب « الاسكرا » القديمة ضد الانتهازية . وكان لنشاط جماعة « الاسكرا » الذي امتد ثلاث سنوات (١٩٠١ - ١٩٠٣) الفضل في وضع برنامج الحزب الاشتراكي الديمقراطي واسس تكتيكيه وصيغ الجمع بين نضال العمال الاقتصادي والسياسي على اساس ماركسية متأسكة . وقد نمت الصحافة العمالية من حول « الاسكرا » ونمت قيادتها الفكرية نمواً عظيماً في سنوات ما قبل الثورة ، وكان عدد البيانات غير المراقبة ، والمطابع المنوعة ، عظيماً جداً . كما أن عددها ازداد بسرعة في كافة أرجاء روسيا .

وادی انتصار « الاسکرا » الکامل علی « الاقتصادية » ، والتکتیک البرولیتاری المتأسک علی تکتیک المثقفین الانتهازی فی عام ١٩٠٣ ، الی تدفق « الرفاق » من جدید وبقوة علی صفوف الاشتراکیة الديمقراطية ، فبعثت الانتهازیة من جدید فوق ارضیة الایسکرا ، بوصفها جزءاً منها ، وبمظهر جدید هو « المنشفیة »

لقد تشكلت المنشفیة فی المؤتمر الثانی للحزب الاشتراکی الديمقراطي العالی الروسي (فی آب عام ١٩٠٣) من أقلیة جماعة « الایسکرا » (ومن هنا تسمیة المنشفیة التی تعنی فی اللغة الروسية الأقلیة - المترجم) ومن کافة اعداء « الاسکرا » الانتهازیین . وعاد « المنشافة » الی الوراء ، الی « الاقتصادية » ، بشکل متجدد نوعاً ما ، بالطبع . وأمتلأت صفوف « المنشافة » بکافة « الاقتصادیین » الذین بقوا فی الحركة وعلی رأسهم أ . مارتنوف .

وأصبحت « الاسکرا » الجدیدة التی أخذت تصدر منذ تشرين الثانی عام ١٩٠٣ برئاسة تحریر جدیدة ، لسان حال « المنشفیة » الرئیسی . « إن هوة سحیقة تفصل بین « الاسکرا » القدیمة و « الاسکرا » الجدیدة - هذا ما صرح به المنشفیکي المنذفع آنذاک ترونسکی بکل صراحة . وكانت « فیریود »^(٢٦) ، والبرولیتاری (١٩٠٥) صحیفتی « البلاشفة » الرئیسیتین اللتین دافعتا عن تکتیک المارکسیة المتأسکة الأمین « للاسکرا » القدیمة .

كانت اعوام الثورة من ١٩٠٥ حتی ١٩٠٧ اختباراً للتجاهین الرئیسیین ، المنشفی والبولشفی ، فی الاشتراکیة الديمقراطية والصحافة العالیة ، من وجهة نظر الارتباط الفعلی بالتجاهیر والتعبیر عن تکتیک جمهایر البرولیتاریا . ولم یکن للصحافة الاشتراکیة الديمقراطية العلنیة أن تبرز مباشرة فی خریف عام ١٩٠٥ ، لولم یهیئ نشاط العمال التقدمیین المرتبط بالتجاهیر التربة لمثل هذه الصحافة . وإذا

كانت الصحافة الاشتراكية الديمقراطية العلنية في اعوام ١٩٠٥ و ١٩٠٦ و ١٩٠٧ صحافة اتجاهين وجماعتين ، فأمر لا يمكن تفسيره إلاّ بكونها المعبر عن الفرق بين الحطين ، البرجوازي الصغير والبروليتاري ، في الحركة العمالية آنذاك .

لقد ظهرت الصحافة العمالية العلنية في فترات النهوض والحركة النسبية « الثلاث كلها : ففي خريف ١٩٠٥ (« نوباجيزن » عند البلاشفة ، و « ناتشالو »^(٢٧) عند المناشفة . ونحن لا نذكر إلا الصحف الرئيسية ضاربين صفحاً عن بقية الجرائد والمجلات الأخرى العديدة) ، وفي ربيع ١٩٠٦ « فولنا »^(٢٨) و « ايخو »^(٢٩) عند البلاشفة ، وفي ربيع ١٩٠٧ « النارودنا بادوفا »^(٣٠) وغيرها عند المناشفة .

لقد عبر ل . مارتينوف نفسه منذ أمد قصير عن ماهية تكتيك المناشفة في تلك الفترة بهذه الكلمات : « لم تر المناشفة من امكانية لمشاركة البروليتاريا مشاركة متمرة في تلك الأزمة ، إلا بمساندة الديمقراطية البرجوازية الليبرالية في محاولاتها ابعاد الفئة الرجعية من الطبقات الغنية عن السلطة ، وهي مساندة يجب على البروليتاريا أن تحققها مع احتفاظها باستقلالها السياسي التام » . (« بين الكتب » لروباكين . جزء ٢ ص ٧٧٢) . هذا التكتيك القائم على مساندة الليبراليين يعني ، في الواقع ، تبعية العمال الليبراليين ، وهو ، فعلاً ، سياسة عمالية ليبرالية . وكانت تكتيك البلاشفة يقوم ، بالعكس ، على توفير الاستقلال الذاتي للبروليتاريا في الأزمة البرجوازية بالنضال من أجل تصعيد الأزمة حتى الذروة ، وبفضح خيانات الليبرالية وتزوير البرجوازية الصغيرة (والريفية منها خصوصاً) ورص صفوفها رداً على هذه الحيلانات .

من المعروف (وقد اعترف بهذا المناشفة أنفسهم ، وحتى التصفويون الحاليون من امثال كولتسوف وليفتسكي اكثر من مرة) أن الجماهير العمالية كانت تسير وراء البلاشفة في تلك الاعوام (١٩٠٥ - ١٩٠٧) . كانت البلشفية

تعتبر عن الماهية البروليتارية للحركة ، أما المنشقية فكانت تعبر عن الجناح
الانتهازي ، جناح المثقفين من البرجوازيين الصغار .

ولا نستطيع أن نصف هنا وصفاً أكثر تفصيلاً مضمون تكتيك هذين
الانجهاين في الصحافة العمالية وأهميته ، بل نكتفي بتحديد الوقائع الأساسية وخطوط
التطور التاريخي الرئيسية .

إن للصحافة العمالية في روسيا تاريخاً يناهز نصف قرن — تاريخاً كان في
البداية تمهيدياً بمعنى أنه لم يكن تاريخ الحركة العمالية ، البروليتارية ، بل تاريخ
حركة التحرر « الديمقراطية العامة » ، أي البرجوازية الديمقراطية . ثم أصبح لهذه
الصحافة تاريخها الخاص الذي يمتد عشرين عاماً ، هو تاريخ الحركة البروليتارية ،
حركة الديمقراطية البروليتارية أو الاشتراكية الديمقراطية .

لم تولد الحركة البروليتارية في أي مكان من العالم ولم يكن في مقدورها
أن تولد ، وقد اتخذت مباشرة شكلاً طبقياً خالصاً ، أو أن تظهر إلى الوجود
كاملة ، كما ظهرت منيرفا من رأس جوبيتر . فالحركة البروليتارية الطبقة لم يتيسر
لها أن تتميز وتتخلص من كافة أنواع شوائب البرجوازية الصغيرة وقبورها وضيق
أفقها وتحريفاتها ، إلا بعد نضال طويل وعمل شاق قام بها العمال التقدميون
أنفسهم والعمال الواعون كافة . إن الطبقة العاملة تعيش جنباً إلى جنب مع
البرجوازية الصغيرة ، التي تدفع ، مع ازدياد فقرها بصورة مستمرة ، بدخلاء جدد إلى
صفوف البروليتاريا . البرجوازية الصغيرة أكثر انتشاراً في روسيا منها في البلدان
الرأسمالية الأخرى ؛ فهي تعيش الآن فترة الثورات البرجوازية ، التي ميزت
انكسارها في القرن السابع عشر ، مثلاً ، وفرنسا في القرن الثامن عشر والنصف
الأول من القرن التاسع عشر .

ولن ينسى العامل الواعي الذي بدأ عملاً حيوياً له وعزيزاً عليه ، ألا وهو

إنشاء صحافة عمالية وتوطيدها وتطويرها ، لن ينسى هذا العامل تاريخ الماركسية
والصحافة الاشتراكية الديمقراطية الذي يمتد عشرين عاماً .

إن أصدقاء الحركة العمالية من المثقفين الضعيفي الأعصاب ، الذين يأنفون
من الصراع الداخلي في الاشتراكية الديمقراطية ويملاؤن الجو صراخاً ودعوات
بالابتعاد عن هذا الصراع ، يؤدون لها خدمة سيئة . انهم أناس طيبون ،
لكنهم فارغون ، وفارغة هي دعواتهم .

ولن يرسخ العمال التقدميون وعيهم وصحافتهم العمالية بصورة نهائية ، الا
إذا درسوا تاريخ صراع الماركسية ضد الانتهازية ، وإلا إذا تعرفوا ، بشكل
مبدئي ومفصل ، على عملية استقلال الديمقراطية البروليتارية عن البرجوازية الصغيرة .

طبع في ٢٢ نيسان ١٩١٤

ج ٢٥ ص ٩٣ - ١٠١



من كتاب

« افلاس الأمية الثانية »

لا يشك مار كسي في أن الثورة غير ممكنة بدون وضع ثوري . على أن الوضع الثوري لا يفضي دائماً الى الثورة . فما هي ، بصورة عامة ، سمات الوضع الثوري؟ قد لا نكون مخطئين إذا ما أشرنا الى السمات الرئيسية الثلاث التالية وهي:

(١) عجز الطبقات المسيطرة عن الاحتفاظ بسيطرتها بالشكل السابق ؛ إن أي أزمة « في الفئات العليا » ، أي أزمة في سياسة الطبقة المسيطرة ، تنشئ تصدعاً يتفجر منه استياء الطبقات المظلومة وعدم رضاها . ولا يكفي لحدوث الثورة عادة أن « لا ترضى الفئات الدنيا » ، بل يجب أيضاً « أن لا تستطيع الفئات العليا » أن تعيش على المنوال السابق نفسه .

(٢) تفاقم فقر الطبقات المظلومة ومصائبها تفاقماً غير عادي .

(٣) ارتفاع كبير في فعالية الجماهير بحكم الأسباب الآتفة الذكر ، هذه الجماهير التي كانت تنهب وقت « السلم » بكل هدوء ، والتي يجذبها الوضع العام للأزمة ، كما تجذبها « الفئات العليا نفسها » الى العمل التاريخي الذاتي المستقل .

ان الثورة غير ممكنة ، بشكل عام ، بدون هذه التغيرات الموضوعية الخارجة عن إرادة بعض الفئات أو الأحزاب ، وحتى عن إرادة بعض الطبقات . وتسمى مجموعة هذه التغيرات الموضوعية بالوضع الثوري .

كان مثل هذا الوضع في روسيا عام ١٩٠٥ ، وفي كافة فترات الثورات

في الغرب . لكنه كان أيضاً في العقد السابع من القرن الماضي في ألمانيا ، وفي أعوام ١٨٥٩ - ١٨٦١ - و ١٨٧٦ - ١٨٨٠ في روسيا ، مع أنه لم تحدث ثورات في مثل هذه الحالات . لماذا؟؟ . لأن الثورة لا تنشأ من أي وضع ثوري ، بل ، على وجه الحصر ، من ذلك الوضع الثوري الذي يحدث فيه ، إضافة الى التغيرات الموضوعية الآنفة الذكر ، تغير ذاتي ، هو ، على الضبط ، قدرة الطبقة الثورية على القيام بأعمال ثورية جماعية قوية ، بحيث تستطيع أن تحطم (أو تحطم جزئياً) الحكومة القديمة التي لن «تسقط» تلقائياً أبداً ، وحتى في أوقات الأزمات ما لم «تُزَحْ» عنوة .

كتب ما بين النصف الاول من أيار والنصف

الاول من حزيران عام ١٩١٥

ج ٢٦ ص ٢١٨ - ٢١٩

من كتاب

« مرض » اليسارية ، الطفولي في الشيوعية ،

... لئن استطاعت البلشفية أن توجد في سنوات ١٩١٧ - ١٩٢٠ ، وأن

تحقق ، بنجاح وفي ظروف شاقة لا مثيل لها ، مركزية صارمة للغاية وانضباطاً حديدياً ، فذلك يعود الى مجموعة من الخصائص التاريخية في روسيا لا غير .

فمن جهة ، ظهرت البلشفية في عام ١٩٠٣ على أرسخ قاعدة من نظرية الماركسية . ولم تثبت صحة هذه النظرية الثورية ، وهذه النظرية وحدها ، تجربة القرن التاسع عشر العالمية فقط ، بل تجربة ضلالات الفكر الثوري في روسيا وتذبذباته وأخطائه وخيبات أمله أيضاً . ففي غضون نصف قرن تقريباً ، أي منذ حوالي العقد الخامس حتى العاشر من القرن الماضي ، كان الفكر التقدمي يبحث بظماً ، وهو يعاني من اضطهاد قصيرة مهيبة رجعية لا مثيل لها ، عن نظرية ثورية صحيحة ، متبعاً بدأب ومثابرة مدهشين « أحدث » ما تصل اليه أوروبا وأميركا في هذا المضمار . والحق أن روسيا قد عاشت نصف قرن من آلام وتضحيات لا مثيل لها ، ومن بطولة ثورية ليس لها نظير ، وحماسة لا يمكن تصورها ، وتقان في البحث والتعلم والتجربة العملية ، وخيبة أمل ومرارة لتجارب أوروبا ومقارنتها ، حتى حصلت على الماركسية بوصفها النظرية الثورية الصحيحة الوحيدة . كانت روسيا الثورية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، بسبب الهجرة التي كانت

تفرضها القيصرية ، أغنى بروابطها الأمية ، وأوسع اطلاعاً على صيغ الحركة الثورية ونظرياتها العالمية من أي بلد آخر .

ومن جهة أخرى ، أمضت البلشفية ، التي نشأت على هذه القاعدة النظرية الصلبة ، خمسة عشر عاماً (١٩٠٣ - ١٩١٧) من تاريخ عملي لا يضارعه في غنى تجربته أي تاريخ آخر في العالم . إذ لم يشهد أي بلد خلال هذه الحقبة ذاتها ، ولو بصورة تقريبية ، مثل هذه الأعمال الكثيرة ، ونعني بها الخبرة الثورية والسرعة والتنوع في تعاقب مختلف أشكال الحركة ، من شرعية وغير شرعية ، هادئة وعاصفة ، سرية وعلنية ، حركة بشكل حلقات أو حركة جماهيرية ، برلمانية وإرهابية . ولم يتوفر في أي بلد ، وفي مثل هذه الحقبة القصيرة من الزمن ، مثل هذا الغنى في صيغ وفروق وطرق نضال تقوم به طبقات المجتمع الحديث كلها ، نضال كان ، بحكم تأخر البلد ووطأة ظلم القيصرية ، ينضج بسرعة خاصة ، ويتمثل بلهفة ونجاح ما يلائمه من «أحدث» أنواع التجربة السياسية الاميركية والأوروبية .

كتب في نيسان - أيار ١٩٢٠

ج ٤١ ص ٧ - ٨

في الشعبين والديمقراطيين الثوريين

من مقال

(المحتوى الاقتصادي للشعبية)

ونقده في كتاب السيد ستروفي)

« انعكاس الماركسية في الكتابات البرجوازية »

... يعاني المنتج الصغير كثيراً من الأنظمة المعاصرة ، لكنه يقف بعيداً عن التناقضات المباشرة الظاهرة بجلاء وبخافها ، ويعمل النفس بأحلام رجعية ساذجة كقوله : « إن على الدولة أن تأخذ بوجهة النظر الأخلاقية » ، أي ، على وجه الضبط ، بوجهة النظر الأخلاقية الأثيرة جداً على قلب المنتج الصغير .

كلا ، لستم على حق . إن على الدولة ، التي تتوجهون إليها ، الدولة المعاصرة ، الحالية ، أن تأخذ بوجهة النظر الأخلاقية الأثيرة على قلوب البرجوازية العليا - أقول عليها ، لأن هذا هو توزع القوى الاجتماعية بين الطبقات القائمة في المجتمع . إنكم مستأثرون . وستبدؤون بالصراخ قائلين إن الماركسي ، باعترافه بهذا « الوجوب » ، بهذه الضرورة ، يدافع عن البرجوازية .

ليس هذا صحيحاً . إنكم تشعرون أن الواقع ضدكم فتنبأون إلى السعادة وتعززون الرغبة في الدفاع عن البرجوازيين إلى من يدحض أحلامكم الضيقة في اختيار الطريق بدون البرجوازية استناداً إلى واقع سيطرة البرجوازية ، تعزونها إلى من يدحض جدوى إجراءاتكم الصغيرة التافهة ضد البرجوازية استناداً إلى

جذورها العميقة في بنية المجتمع الاقتصادية ، والى صراع الطبقات الاقتصادي القائم في أساس « المجتمع » و « الدولة » ، الى من يطالب إيديولوجي الطبقة الكادحة بالانفصال التام عن هذه العناصر وخدمة من « ابتعد عن حياة » المجتمع البرجوازي فقط .

« نحن لا نعتقد ، بالطبع ، ان تأثير الأدب عديم القدرة تماماً . ولكن عليه (الأدب) : ١ - أن يفهم رسالته فهماً أفضل ، وأن لا يكتفي فقط بتربية الكولاحية (هكذا !!!) ، بل ان يوقظ الرأي العام ايضاً » .

إليك البرجوازي الصغير بصورته النقية ! إذا كان الأدب يربي الكولاحية ، فلأنه يفهم رسالته فهماً سيئاً . ويستغرب هؤلاء الأسياد عندما يقال لهم : انهم سذج ورومنطيقيون .

كلاهما السيد الشعبي المحترم ، الأمر على عكس ذلك : « فالكولاحية » (*) هي التي تربي الأدب ، تمنحه افكارها (عن العقل ، والطاقة ، وروح المبادرة ، والخطوات الطبيعية للحضارة الوطنية) وتضع بين يديه الوسائل الى ذلك .

ان لجوءكم الى الأدب يدعو الى السخرية ، كما لو ان احدهم اقترب من جيشين متحاربين يقفان وجهاً لوجه وتقدم من ملحق فيلد مارشال احد الجيشين العدوين بطلب متواضع « الرجاء ان تتصرفوا تصرفاً اكثر ودأ ! » ، انه الشيء نفسه .

... عندما يصف الشعبي الوقائع ، يضطر هو نفسه دائماً لأن يعترف بأن الواقع هو واقع رأس المال ، وأن تطورنا الفعلي تطور رأسمالي ، وأن القوة في أيدي البرجوازية . وهذا ما اعترف به ، مثلاً ، مؤلف المقال الذي نعلق عليه

(*) انها كلمة ضيقة الى حد كبير . كان من الواجب ان نقول بشكل أدق وأكثر تحديداً البرجوازية .

مقررأ أن الثقافة التي نشأت عندنا « ثقافة برجوازية » ، وأن البرجوازية هي التي تسوق الشعب الى العمل ، وأن المجتمع البرجوازي مشغول ببطنه وقيلولته فقط ، وأن « البرجوازية » أوجدت علماً برجوازياً ، وأخلاقية برجوازية ، وسفسطات برجوازية في السياسة ، وأدباً برجوازياً .

كتب في أواخر عام ١٨٩٤ وأوائل عام ١٨٩٥
جزء ١ ص ٤٠٤ - ٤٠٥ ، ٤٠٧

★ ★ ★

من مقال

« أي تراث نرفض ؟ »

- ١ -

واحد من ممثلي « التراث »

... ولنستخلص النتائج . يمكننا أن ندعو سكالدين^(٣١) . من حيث طابع أفكاره ، برجوازيًا متنوّرًا . فأفكاره تذكرنا الى حد كبير جداً بأراء اقتصادي القرن الثامن عشر (معكوسةً بالطبع من خلال الظروف الروسية) . كما انه يعبر بوضوح كاف عن الطابع « التنويري » العام لتراث الستينات^(٣٢) . فسكالدين ، كالتنورين الأوروبيين الغربيين ، وغالبية ممثلي الستينات ، ملتهب عداء عنيفاً للقناة ولكل ما خلفته في المجال الاقتصادي والاجتماعي والحقوقى . هذه هي السمة الأولى ، المميزة « للمنور » . والسمة الثانية التي تشمل المنورين الروس كلهم هي الدفاع الحار عن التعليم والإدارة الذاتية والحرية وأنماط الحياة الأوروبية أو « أورَبة » روسيا أورَبة كاملة . والسمة الثالثة هي دفاعه عن مصالح الجماهير الشعبية ، وبشكل رئيسي الفلاحين (الذين لم يتحرروا تماماً أو الذين كانوا في طريقهم الى التحرر في عهد المنورين) ، وإيمانه المخلص بأن الغاء القناة ومخلفاتها سيجلب الرخاء العام ، ورغبته المخلصة في المساعدة على ذلك . هذه السمات الثلاث هي جوهر ما يسمى « تراث الستينات » . ومن المهم التأكيد على أنه لا يوجد شيء من الشعبية في هذا التراث . وفي روسيا عدد غير قليل من الكتاب تنطبق

عليهم ، من حيث نظرهم الى الأمور ، هذه السمات وإن لم يربطهم في أي وقت شيء مشترك بالشعبية . وبوجود السمات المشار إليها سابقاً في نظرة الكاتب الى العالم ، اعترف به دائماً « محافظاً على تقاليد الستينات » بغض النظر تماماً عن موقفه من الشعبية . ولن يفكر أحد ، بالطبع ، أن يقول إن السيدم . ستاسوليفتش ، الذي احتفل بيوبيله منذ أمد قريب ، « تخلى عن التراث » على اساس أنه كان مناهضاً للشعبية أو أنه وقف موقف اللامبالاة من المسائل التي طرحتها . وقد أخذنا من سكالدين(*) مثلاً لأنه كان في وقت واحد ممثلاً « للتراث » لا يرقى اليه الشك ، وعدواً مطلقاً للمؤسسات القديمة التي دافعت عنها الشعبية .

قلنا سابقاً إن سكالدين برجوازي . وقد أوردنا بما فيه الكفاية براهين على ذلك . ولكن علينا أن نلاحظ أن هذه الكلمة كثيراً ما تُفهم عندنا فهماً ضيقاً، غير تاريخي وخاطئاً الى حد كبير ، إذ يربط بها (دون تمييز للفرقات التاريخية) الدفاع الأناني عن مصالح الأقلية . علينا ألا ننسى انه في الفترة ، التي كتب فيها منوترو القرن الثامن عشر (الذين يعترف بهم الرأي العام قادة للبرجوازية) وكتب فيها منورونا ، أي من الاربعينات حتى الستينات ، كانت المسائل الاجتماعية

(*) قد يعترض بعضهم قائلاً إن سكالدين ، بعدائه للمشاعة وبنغمته ، لم يكن نموذجياً بالنسبة للستينات . لكن القضية هنا ليست في المشاعة وحدها ، بل في مجمل الآراء المشتركة بين المنورين التي يشاطرم إياها سكالدين . ومن حيث نغمته فهي في الواقع غير نموذجية لطريقة تفكيره الهادىء واعتداله وتطوريته ... وليس عبثاً أن اغفلز دعا سكالدين محافظاً معتدلاً . إلا انه من غير الملائم ان نأخذ ممثلاً آخر للتراث يكون ذا نغمة نموذجية . أولاً ، هذا غير ملائم لأسباب مختلفة ؛ وثانياً ، لأن هذا قد يولد سوء تفاهم عند المقارنة بالشعبية المعاصرة . ومن حيث الطابع الاساسي لمهتنا فإن النغمة (بعكس ما يقوله المثل الدارج) لا تصنع موسيقى . ونغمة سكالدين غيرالنموذجية تبرز موسيقاه ، أي مضمون نظراته ، بشكل أكثر حدة . وهذا ما يهتنا هنا . إننا ننوي المقارنة بين مثلي التراث وشعبيينا المعاصرين من حيث مضمون أفكارهم (وليس بنغمة الكتاب) .

كلها تقتصر على النضال ضد نظام القنانة وآثاره . كانت العلائق الاجتماعية الاقتصادية . وتناقضاتها آنذاك في حالة جنينية . ولهذا لم تظهر في ايدولوجي البرجوازية آنذاك أي أمانية خاصة ؛ بل ، على العكس ، كانوا ، في الغرب وفي روسيا ، يؤمنون بالرخاء العام لمخلصين تماماً ، ومخلصين يتمنونه . ولم يروا ، وهم مخلصون أيضاً (لم يستطيعوا أن يروا الى حد ما) ، التناقضات في النظام الذي نشأ من الاقطاعية . وليس عبثاً أن سكالدين يستشهد في كتابه بآدم سميث . لقد رأينا أن آراء سكالدين وطابع حججه هما ، الى حد كبير ، ترددات لموضوعات هذا الايدولوجي العظيم للبرجوازية التقدمية .

وإذا قارنا آمانيات سكالدين العملية بآراء الشعبيين المعاصرين من جهة ، وبوقف « التلاميذ الروس » منهم من جهة أخرى ، سنرى أن « التلاميذ » سيؤيدون آمانيات سكالدين ، لأن هذه الأمانيات تعبر عن مصالح الطبقات الاجتماعية التقدمية ، عن المصالح الحيوية للتطور الاجتماعي كله في الطريق الحالية ، أي الطريق الرأسمالية . وما بدله الشعبيون من أماني سكالدين العملية أو من طرحه للمسائل هو « حد أدنى » يرفضه « التلميذ » . إن التلاميذ « ينقضون » لا على « التراث » (فهذا اختلاق فارغ) ، بل على إضافات الشعبيين الرومنطيقية والبرجوازية الصغيرة إلى التراث .

وسنتنقل الآن إلى هذه الاضافات .

- ٢ -

اضافة الشعبية الى « التراث »

ولنتنقل من سكالدين الى انغليغارت . إن رسائله « من القرية » تحقيقات اجتماعية عن حياة القرية . فكتابه يشبه شياً كبيراً في محتواه وشكله كتاب

سكالدين ، الا ان انغليغات أعظم موهبة من سكالدين ، ورسائله من القرية كتبت بحوية وجمال أكبر ، فليس عنده محاکمات مطولة كما عند صاحب « في الريف وفي المدينة » الوقور ، بل عنده ، بالمقابل ، من الصور والأوصاف الدقيقة أكثر مما عند سكالدين . فليس من الغريب أن يحظى كتاب انغليغات بمثل هذا العطف القوي من القراء . لقد أعيد طبع كتابه ، في حين أن كتاب سكالدين يكاد يكون منسياً على الرغم من أن رسائل الأول بدأت تظهر في « الأوتيتشيفني زايبسكي »^(٣٣) بعد عامين من نشر كتاب سكالدين . لسنا بحاجة ، إذأ ، لاطلاع القارئ على محتوى كتاب انغليغات ، بل سنكتفي بوصف موجز لجانبين من آرائه : أولاً ، الآراء الخاصة « بالتراث » بوجه عام ، والآراء المشتركة بين انغليغات وسكالدين بنوع خاص ؛ ثانياً الآراء الشعبية البحتة . انغليغات شعبي ، لكن لا يزال في نظراته كثير من السمات المشتركة مع نظرات المنورين كلهم ، وكثير مما رفضه ، أو عدّله ، الشعيون المعاصرون ، حتى ليتعذر عليك تصنيفه : أهو في قائمة ممثلي « التراث » عامة دون أي صبغة شعبية ، أم في قائمة الشعيين .

إن ما يقرّب انغليغات من الأولين هو ، في المقام الأول ، بصيرته النافذة ووصفه البسيط والمباشر للواقع وكشفه الذي لا يرحم عن السلبات و « المبادئ كلها » بعامة ، ومبادئ « الفلاحين » بخاصة ، هذه « المبادئ » التي يعتبر تجميلها وصبغها وتمجيدها المزيف ركناً أساسياً وضرورياً من أركان الشعبية . ولهذا فان شعبية انغليغات ، التي عبّر عنها تعبيراً ضعيفاً جداً ووجلاً ، تتناقض تناقضاً مباشراً وفاضحاً مع واقع القرية الذي رسمه بمثل هذه الموهبة . وإذا ما

أخذ اقتصادي ما ، أو كاتب اجتماعي ما (*) ، المعطيات والملاحظات ، التي أوردها انغليغات ، أساساً لحكمه على القرية ، سيكون من غير الممكن استخلاص أي استنتاجات شعبية . إن تمجيد الفلاح ومشاعته أحد الأركان الضرورية في الشعبية . وقد فقد الشعبيون من مختلف الألوان ابتداء من السيد ف . ف وانتهاء بالسيد ميخايلوفسكي الشيء الكثير بسبب ميلهم الى تأليه المشاعة وتزويقها ولكننا لا نجد أثراً لهذا التزويق عند انغليغات .

إنه يكشف بقسوة تامة فردية المزارع الصغير المدهشة ، بعكس ما تدعيه الاقوال الفارغة الشائعة عن الروح المشاعية في فلاحنا ، وما تدعيه المقارنات الشائعة بين « هذه الروح المشاعية » وبين فردية المدن والتنافس في الاقتصاد الرأسمالي الخ ... ويظهر بإسهاب ان « فلاحينا اكثر الملاكين تطرفاً في مسائل الملكية الخاصة » (ص ٦٢ من طبعة عام ١٨٨٥) ، وانهم لا يستطيعون ان يتحملوا « العمل المشترك ، العمل بالجملة » ، ويغضونه لاسباب شخصية وانانية ضيقة ، إذ يخاف أي واحد منهم ان يعمل اكثر من الآخرين » (ص ٢٠٦) . ويبلغ هذا الخوف من ان يعمل الواحد منهم اكثر من الآخرين اعلى درجات المهزلة (او بالاحرى اعلى درجات التراجيكوميديا) ، عندما يتحدث الكاتب كيف ان نساء يسكن بيتاً واحداً ويرتبطن بعمل واحد وبصلات قري تنظف كل منهن وبفردتها حصتها من طاولة الطعام ، او يحلبن البقرات ، كل منهن

(*) ونقول بالنسبة ان هذا لن يكون أمراً شيقاً جداً وذو دلالة وحسب ، بل وسيلة مشروعة تماماً من أساليب الباحث الاقتصادي . واذا كان العلماء يشقون بمعطيات الاستمارات التي هي عبارة عن أجوبة وآراء كثير من الملاكين المتحيزين ، القليلي العلم ، الذين لا رأي متكامل لهم ، والذين لم يفكروا فيما يؤمنون به ، فلماذا لا تثق بملاحظات جمعها خلال أحد عشر عاماً انسان ذو قوة ملاحظة رائعة وذو اخلاص مطلق ، انسان درس ما يتحدث عنه دراسة ممتازة ؟ .

بدورها ، وتجمع كل منهن الحليب لابنها (خوفاً من اخفاء الحليب) ، وتختصر كل منهن بمفردها السميد لابنها (ص ٣٢٣) . ويسبب انغليغات في اظهار هذه السمات وبؤكدها بعدد كبير من الامثلة حتى يستحيل معها القول إنها وقائع عارضة . فواحد من اثنين : إما ان يكون انغليغات ملاحظاً غير صالح بالمرّة وغير اهل للثقة ، وإما ان تكون هذه الاقاويل عن روح فلاحنا المشاعية وصفاته المشاعية وهما فارغاً يخلع على الاقتصاد الزراعي سمات مجردة مأخوذة من شكل ملكية الأرض (ومن شكل ملكية الارض هذا اخذت كافة جوانبها المالية والادارية) . ويبين انغليغات ان الفلاح ينزع في نشاطه الاقتصادي الى الكولونية : « إن نسبة ما من الروح الكولونية تستحوذ على كل فلاح » (ص ٤٩١) ، « المثل الكولونية تسيطر في الوسط الفلاحي » . . . « اشرت اكثر من مرة الى ان الفردية والانانية ونزعة الاستغلال متطورة الى حد كبير في الفلاحين » . . . « يفخر الواحد منهم انه كراكي ويسعى الى التهام الشبوط » . إن اتجاه الفلاحين لا ينحو ابدأ الى النظام « المشاعي » ولا الى « الانتاج الشعبي » ، بل الى نظام بسيط جداً يرافق المجتمعات الرأسمالية كلها ، هو النظام البرجوازي الصغير . وانغليغات يظهر هذا كله بشكل رائع . وما وصفه انغليغات وبرهن عليه بشكل لا يدحض هو محاولات الفلاح الغني الدخول في عمليات تجارية (٣٦٣) ، وتوزيع القمح لقاء عمل ما وشراء عمل الفلاح الفقير (ص ١٥٧ ، ٩٢ ، وغيرهما) ، اي تحمّل الفلاحين الملاك الى برجوازية ريفية إذا ما تكلمنا بلغة الاقتصاد ، ويقول انغليغات : إذا لم ينتقل الفلاحون الى الزراعة التعاونية وظل يعمل كل منهم في ملكه اخص سيجد بين هؤلاء الفلاحين المزارعين ، مستقبلاً ، اجراءه ومحرومون من الارض على الرغم من توفر الاراضي . وسأقول اكثر من ذلك : إنني اعتقد ان الفرق بين ما يملكه الفلاحون سيكون أكبر بما هو عليه الآن . وعلى الرغم من الملكية المشاعية للأرض ، سيكون الى جانب « الاغنياء » كثير من الأجواء الذين فقدوا

الأرض فعلاً . ماذا ينفعني أو ينفع اولادي إذا كان لي الحق في الأرض ، وأنا لا أملك لا رأس المال ولا الادوات اللازمة لفلاحة الأرض ؟ هذا يشبه تماماً أن تعطي الأعمى ارضاً وتقول له : « كنّها ! » (ص ٣٧٠) إن فكرة « الزراعة الجماعية » تنتصب هنا وحيدة تدعو الى سخرية حزينة ، وتبدو أمنية طيبة بريئة ، لكنها أمنية لا تنبع من المعطيات المتعلقة بالفلاحين ، لا بل ان هذه المعطيات تدحضها وتنفيا .

والسمة الاخرى التي تقرب انغليغات من ممثلي التراث الذين لا يصطبغون بأي صبغة شعبية ، هي ايمانه بان فقر الفلاحين الرئيسي والجذري يكمن في مخلفات القناة والتنظيمات الخاصة بها . أزيلوا هذه المخلفات وهذا التنظيم يستقيم الأمر . ان موقف انغليغات ، السلي دون ريب ، من التنظيم وسخريته المرة من كافة محاولات اسعاد الفلاح عن طريق التنظيم الفوقي يتعارضان تعارضاً حاداً جداً وآمال الشعبية المتعلقة « بعقل الطبقات الحاكمة وضميرها ومعرفتها ووطنيتها (الكلمات للسيد يوجاكوف في « روسكوبي بوغانستفا - العدد ١٢ ، ١٨٩٦ ص ١٠٦) ، والتخطيط الشعبي الفارغ « لتنظيم الانتاج » - . ولنذكر كيف يتهم انغليغات بتهكم لاذع على القانون الذي يمنع بيع القودكا في المطاحن ، هذا القانون الذي ينبغي « خير » الفلاح ، ولنذكر بأي سخط يتحدث عن قرار بعض الزيمستفات الصادر عام ١٨٨٠ والقاضي بمنع زرع الشعير قبل الخامس عشر من آب ، عن هذا التدخل الفظّ من علماء « المكاتب » في عمل ملايين الملاك الزراعيين الذي استوجهه خير الفلاح هذه المرة ايضاً (٤٢٤) . وبعد ان يشير انغليغات الى امثال هذه القواعد والاورام كعدم التدخين في غابات الصنوبر والشوح وعدم صيد الكراكي في الربيع وقطع اشجار البتولا في « ايار » ونهديم الاعشاش الخ لاحظ متهمك : « ... إن الاهتمام بالفلاح كان ولا زال السبب في اسى المثقفين .

من يعيش لنفسه ؟ إننا جميعاً نعيش في سبيل الفلاح ! . . . الفلاح غني لا يعرف كيف ينظم أموره بنفسه . وإن لم يهتم به أحد سيحرق الغابات كلها ، وسيقتل الطيور كلها ، وسيبسطاد الأسماك كلها ، و سيفسد الأرض ، وسيهلك أخيراً ، (٣٩٨) . قل لي ، أيها القارئ ، هل يستطيع هذا الكاتب أن يتعاطف حتى مع القوانين الحبيبة إلى قلوب الشعبين والقائلة بعدم امكانية نزع ملكية الأرض ؟ وهل كان بمقدوره أن يقول شيئاً ، يشبه ما ذكره سابقاً أحد أعلام «روسكوبي بوغاتسفو» ؟ وهل كان بإمكانه أن يشاطر عالماً آخر من أعلام المجلة نفسها هو السيد كلاريف (*) وجهة نظره ، هذا السيد الذي يعتب على « زيمستفا »^(٣٠) المقاطعات (في التسعينات !) ، لأنها « لم تجد مكاناً » « للانفاق الجدي الواسع والمنظم على تنظيم العمل الزراعي » ؟

ولنشر أيضاً الى سمة أخرى تقرّب انغليغات من سكالدين ، وهي علاقته اللاواعية بكثير من الأمنيات والاجراءات البرجوازية المحضة . وليست القضية في أن انغليغات حاول ان يزين البرجوازيين الصغار أو أن يخلق تحفظات (على طريقة السيد ف. ف) على استخدام هذا الوصف بالنسبة لهذا أو ذاك من أصحاب المشاريع . كلا ليست القضية هنا . ان انغليغات ، وهو المالك العملي ، مولع ، بكل بساطة ، بكل أشكال التقدم والتحسين في الزراعة ، دون ان يلاحظ بتاتاً أن الشكل الاجتماعي لهذه التحسينات يقدم أفضل تكذيب لنظرياته ذاتها القائلة بعدم امكانية قيام الرأسمالية عندنا . ولندكر على سبيل المثال كيف أولع انغليغات بالنجاح الذي تم له بفضل نظام الاجر على أساس القطعة (دك الكتان ، درس الخنطة) . وانغليغات لا يشك حتى في أن استبدال الأجر بحسب الزمن بالأجر حسب القطعة واحد من أكثر أساليب الاقتصاد الرأسمالي المتطور انتشاراً .

(*) المجلة المذكورة عدد ٥ أيار ١٨٩٦ .

فهذا الاقتصاد يتوصل بهذه الطريقة إلى زيادة تكثيف العمل وزيادة معيار فضل القيمة. واليكُم مثلاً آخر. يسخر انغليغات من برنامج «زيميليتشسكايا غازيتا» (٣٥) القاضي «بالتوقف عن توزيع الأراضي ، وتنظيم استثمارات للعمال الزراعيين ، وإدخال الآلات والأدوات الحديثة المحسنة ، وتحسين أنواع المواشي ، ونظام دورة المزروعات ، وتحسين المروج والمراعي الخ ... » .

ويهدف انغليغات : « هذا كله كلام غير محدد لا يعني شيئاً » . ومع هذا ، فقد حقق انغليغات هذا البرنامج نفسه في ممارسته الزراعية العملية وأنجز هذا التقدم التقني فيه على أساس تنظيم الأجراء بالضبط . واليكُم هذا المثال أيضاً .

راينا كيف فضع انغليغات بصدق وصراحة الميول الحقيقية للفلاح ، لكن هذا لم يمنعه من التأكيد « بأن ما نحتاجه ليس المصانع ولا المعامل ، بل معامل تقطير خمر ومعاصر زيت قروية صغيرة (التشديد لانغليغات) الخ . . . » (ص ٣٣٦)

اي « يجب » انتقال البرجوازية الريفية إلى الانتاج الزراعي التقني وهو انتقال كان دائماً وفي كل مكان واحداً من اهم دلائل الرأسمالية الزراعية . وما له تأثيره هنا ان انغليغات لم يكن منظراً بل مالكاً يمارس نشاطه . ان الامر يختلف حين يفكر المرء في إمكانية التقدم بدون الرأسمالية وحين يكون هو نفسه يعمل . لقد ترتب على انغليغات ، وهو ينظم اعماله الزراعية تنظيماً عقلياً ، ان يتوصل ، بحكم الظروف المحيطة به ، الى ذلك بأساليب رأسمالية مجتة ، وان يتروك جانباً شكوكه كلها ، النظرية والجردة ، بخصوص « الاجراء » . كان سكالدين يفكر ، نظرياً ، كمنشستيري نموذجي ، دون ان يلاحظ ابداً لا طابع تفكيره هذا ولا مطابقته لحاجات تطور روسيا الرأسمالي . اما انغليغات فاضطر ، عملياً ، لأن يتصرف كمنشستيري نموذجي على الرغم من احتجابه النظري على الرأسمالية ، وعلى الرغم من رغبته في الايمان بطرق خاصة بوطنه .

وقد كان هذا الايمان موجوداً عند انغليغات بما يضطرنا لان ندعوه شعبياً . فهو يرى بوضوح الاتجاه الفعلي لتطور روسيا الاقتصادي لكنه يفض الطرف عن تناقضات هذا التطور . ويجهد نفسه للبرهنة على عدم امكانية نشوء رأسمالية زراعية في روسيا ، وللبرهنة على « عدم وجود ركيزة عندنا لذلك » (ص ٥٥٦) ، مع انه دحض هو نفسه باسهاب كبير التقولات عن ارتفاع قيمة اليد العاملة عندنا ، وأظهر هو نفسه الأجر الزهيد الذي يتقاضاه كلافه بيوتر الذي يعمل مع أسرته عنده والذي لا يبقى له ، بعد القيام بأود العائلة ، الا ستة روبلات في العام « لشراء الملح والزيت واللباس » (ص ١٠) . « ويحسد (أي بيوتر) مع ذلك . فاذا رفضت أن أستخدمة عندي ، سيوجد في الحال خمسون من الراغبين في الحلول محله » (ص ١١) ويهتف انغليغات ظافراً ، وهو يشير الى نجاح أعماله ومهارة العمال في استخدام المحراث : « ومن هم هؤلاء الحارثون ؟ إنهم الفلاحون الروس الجبهة المهملون » (ص ٢٢٥) .

إلا ان انغليغات ، وقد دحض بتجربته الخاصة في الزراعة وبتعريفه لفردية الفلاح الأوهام حول « المشاعية » ، لم يكن « يؤمن » بإمكانية انتقال الفلاحين الى الزراعة الجماعية وحسب ، بل أبدى « قناعته » بحدوث ذلك مستقبلاً وبأننا ، نحن معشر الروس ، سنقوم بهذا العمل العظيم وسندخل اساليب جديدة في ادارة اقتصادنا . « وفي هذا أصالة وجودنا المتميز واصالة اقتصادنا » (ص ٣٤٩) .

وهنا يتحول انغليغات الواقعي إلى رومنتيقي يعوّض الغياب الكامل « للأصالة » في اساليب اقتصاده وفي الأساليب التي لاحظها في اقتصاد الفلاحين « بايمانه » « بالأصالة » العتيدة ! ولم يبق من هذا الايمان حتى السمات الشعبية المتطرفة - التي نصادفها عنده متفرقة في الحقيقة - الا خطوة ، لم يبق الا خطوة حتى القومية الضيقة التي تقع على حدود « الشوفينية » « سنصدع أوروبا ، وفي أوروبا

سيكون الفلاح الى جانبنا » (ص ٣٨٧) . هذا ما كان يبرهن عليه انغليغات لأحد الاقطاعيين بمناسبة الحرب) ، لم يبق الا خطوة حتى تمجيد الأجور ! أجل ، انغليغات نفسه الذي كرس كثيراً من الصفحات الرائعة في كتابه لوصف وضع الفلاحين المهين والذليل ، الفلاحين الذين يستدينون المال او القمح مقابل عملهم ، ويجبرون في أسوأ ظروف الاستعباد على عمل يكاد يكون مجانياً ، انغليغات هذا وصل الى حد القول « سيكون أمراً حسناً لو أن الدكتور (الحديث يدور حول نفع الطيب وضرورته للقرية . ف . إ .) زراعته هنا ، لاستطاع الفلاح أن يعمل ويدفع نفقه تطبيقه » (ص ٤١) . لا حاجة بنا هنا الى التعليق .

وبشكل عام ، إذا قارنا السمات الايجابية في نظرية انغليغات (أي السمات المشتركة بينه وبين ممثلي « التراث » دون أي صبغة شعبية) بسماتها السلبية (أي الشعبية) ، علينا أن نقر أن السمات الأولى تتفوق قطعاً ، في حين تبدو السمات الأخرى وكأنها جانبية ، أو حاشية عرضية موحى بها من الخارج لاتنسجم مع اللهجة الرئيسية لكتابه « من القرية » .

— ٣ —

هل ربيع « التراث » من اركباطه بالشعبية ؟

قد يسأل القارئ : وماذا تعني بالشعبية . لقد ذكرت سابقاً ما معنى « التراث » ، إلا أنك لم تحدد حتى الآن مفهوم « الشعبية » .

— نعني ، بقولنا « الشعبية » ، نظام آراء ينطوي على السمات الثلاث التالية :
١) اعتبار الرأسمالية في روسيا انحطاطاً ، تراجعاً الى الوراء . ومن هنا تفتيات الشعبين ، ومحاولاتهم « عرقلة تحطيم » الرأسمالية لمرتكزات الحياة القديمة « وايقاظه » ، « والكف عنه » ، وغير ذلك من العويل الرجعي . ٢) الاعتراف بأصالة البناء الاقتصادي الروسي عامة ، والفلاحي بمشاعته وتعاونيته الخ

خاصة . فهم يعتبرون أن لا حاجة الى تطبيق المفاهيم التي وصل اليها العلم المعاصر ، مفاهيم الطبقات الاجتماعية المختلفة وصراعها ، على العلائق الاقتصادية الروسية . فالمشاعية الفلاحية أرقى وأفضل من الرأسمالية ؛ ومن هنا تمجد « مبادئ » الحياة الروسية . إنهم ينفون ويطمسون التناقضات القائمة بين الفلاحين ، والمميزة لأي اقتصاد سلعي أو رأسمالي ، وينفون ارتباط هذه التناقضات بشكلها الأكثر تطوراً المتمثل في الصناعة الرأسمالية والزراعة الرأسمالية . ٣) انكار ارتباط « المثقفين » والمؤسسات الحقوقية والسياسية في البلد بالمصالح المادية لطبقات اجتماعية معينة . إن نفي هذا الارتباط وفقدان الشرح المادي لهذه العوامل الاجتماعية يجبران الشعبين على أن يروا فيها قوة تستطيع أن « تجرّ وراءها التاريخ في خط آخر » (السيد ف. ف) « وأن تحوّل عن مساره » (السيد ن.) والسيد بوجاكوف وغيرهما (الخ ...

هذا ما نعينه بقولنا « الشعبية » . ويرى القارئ أننا نستعمل هذا التعبير بالمعنى الواسع لهذه الكلمة ، تماماً كما يستعمله « التلاميذ الروس » كلهم ، الذين يناهضون هذا النظام من الآراء بأكمله ، لا بعض ممثليه فقط . وتوجد ، بالطبع ، اختلافات ، قد تكون أحياناً غير قليلة ، بين ممثلي الشعبية . إن أحداً منا لا يتجاهلها . لكن السمات التي أشرنا اليها سابقاً مشتركة بين مختلف ممثلي الشعبية بدءاً من ... ولنقل من السيد يوزوف وانتهاء بالسيد ميخايلوفسكي . ان السادة من أمثال يوزوف وسازونوف و ف. ف وغيرهم يضيفون الى السمات السلبية المشار اليها سمات أخرى سلبية لانراها مثلاً عند السيد ميخايلوفسكي وآخرين من مساعديه في مجلة « روسكوي بوغاتستغو » الحالية .

إن نفي هذه الفروق بين الشعبين بالمعنى الضيق للكلمة ، وبين الشعبين بوجه عام ، سيكون غير صحيح بالطبع ، ولكن ، سيكون خطأ اكبر أن

نتجاهل تطابق النظرات الاقتصادية والاجتماعية الأساسية في النقاط الرئيسية التي
أشرنا اليها سابقاً عند الشيعيين جميعهم . وبما أن « التلاميذ الروس » يرفضون هذه
النظرات الأساسية بالذات ، وليس « الانحرافات المؤسفة » عنها الى الجانب الأسوأ
فقط ، فإن لهم الحق كله ، بالطبع ، في أن يستعملوا مفهوم « الشعبية » بالمعنى
الواسع للكلمة . وأقول أكثر من ذلك : ليس لهم الحق فقط ، بل انهم لا يستطيعون
أن يفعلوا غير هذا .

إذا استعرضنا الآراء الرئيسية للشعبية التي أوردناها سابقاً ، علينا ان نقرر
قبل كل شيء ، أنه ليس « للتراث » علاقة اطلاقاً بهذه الآراء . إذ توجد مجموعة
كاملة من ممثلي « التراث » ، والأمناء عليه الذين لا يُشك فيهم ، لا يربطها بالشعبية
أي رابط ، وهي لا تؤمن اطلاقاً بأصالة روسيا والمشاعة الفلاحية الخ ، ولا تطرح
أبداً مسألة الرأسمالية ، ولا ترى في المثقفين وفي المؤسسات السياسية والحقوقية أي
عامل يستطيع « ان يحول التاريخ عن مساره » . وكنا قد ذكرنا مثلاً على ذلك
محرر « فيسنيك اوروبا » وصاحبها ، الذي يمكن اتهامه بأي شيء إلا بتخطي تقاليد
التراث . وبالعكس ، هناك أناس قريبون جداً من الشعبية في أسسها الرئيسية ،
لكنهم « يتبرأون علناً من التراث » . ولندكر السيد يوزوف والسيد يا . أبراموف
نفسه ، الذي أشار اليه السيد ميخايلوفسكي . الشعبية التي يجاربهها « التلاميذ
الروس » لم تكن موجودة حتى مجرد وجود حيننا « اكتشف » التراث (إذا
ما استعملنا تعبيراً حقوقياً) ، أي في الستينات . لم تكن بذور الشعبية ، بداياتها ،
في الستينات فقط ، بل في الأربعينات أو حتى قبل ذلك الوقت . ان تاريخ الشعبية
لا يشغل بالنا الآن ، إنما همنا فقط ، ونردد ذلك مرة أخرى ، أن نقرر أنه ليس
« لتراث » الستينات بالمعنى الذي رسمنا خطوطه سابقاً أي قاسم مشترك مع
الشعبية ، أي ليس بينها ما هو عام في جوهر آرائها ، فهي يطرحان مسائل مختلفة .

يوجد أمناء على « التراث » غير شعبيين ويوجد شعبيون « يتبرأون من التراث » . وبالطبع يوجد أيضاً شعبيون يحافظون على « التراث » أو يدعون الحفاظ عليه . ولهذا ، نحن نتحدث عن علاقة التراث بالشعبية . فلنر ما أعطت هذه العلاقة .

١ - خطت الشعبية خطوة جبارة الى الأمام بالمقارنة مع التراث بطرحها أمام الفكر الاجتماعي مسائل للحل ، لم يستطع الامناء على التراث (آنذاك) أن يطرحوا بعضها ، وبعضها الآخر لم يطرحوه ولا يطرحونه اضيقت نظرهم . إن طرح هذه المسائل لفضل تاريخي عظيم للشعبية . فمن الطبيعي والمفهوم أن الشعبية ، بتقديمها حلاً لهذه المسائل (بغض النظر عن ماهية هذا الحل) ، تبوأ مكاناً طليعياً بين التيارات التقدمية في الفكر الاجتماعي الروسي .

لكن حل الشعبية لهذه المسائل كان غير صالح بالمرّة ، كان مبنياً على نظريات متأخرة رمتها أوروبا الغربية عنها منذ زمن بعيد ، ومبنياً على نقد رومنتيقي وبرجوازي صغير للرأسمالية ، وعلى تجاهل الوقائع الضخمة جداً في تاريخ روسيا وواقعها . وقد استطاع هذا النقد البدائي للرأسمالية أن يصمد حين كان تطور الرأسمالية في روسيا وما يلزمها من تناقضات لما يزل ضعيفاً جداً . أما الشعبية الآن فلا تستجيب للتطور المعاصر للرأسمالية في روسيا ، ولا لدرجة معارفنا الحالية عن واقع روسيا وتاريخها الاقتصادي ، ولا لمتطلبات النظرية الاجتماعية المعاصرة . الشعبية الآن نظرية رجعية وضاورة تثير البلبلة في الفكر الاجتماعي ، وتساعد على الجمود والاسوية بمختلف أشكالها ، بعد أن كانت (الشعبية) ظاهرة تقدمية في حينها ، باعتبارها أول طرح لمسألة الرأسمالية . وقد أضفى الطابع الرجعي للنقد الشعبي للرأسمالية على الشعبية ذاتها ، في الوقت الراهن ، سمات جعلتها في وضع

أدنى من النظرية التي تكتفي بالحفاظ الأمين على التراث (*) وسنحاول أن نظهر هذا الواقع بتحليل كل من السمات الأساسية الثلاث في نظرية الشعبية .

السمة الأولى هي اعتبار الرأسمالية في روسيا انحطاطاً ، رجوعاً إلى الوراء . فما ان طرحت مسألة الرأسمالية في روسيا حتى أتضح أن تطورنا الاقتصادي رأسمالي . وأعلن الشعبون أن هذا التطور رجوع إلى الوراء ، غلطة وانحراف عن طريق رسمها تاريخ الأمة كله ، عن طريق كرسته « مبادئ » امتدت عبر الأجيال الخ فحل عدم الثقة بهذا التطور الاجتماعي محل ايمان المنورين الحاربه ، ومحل التفاؤل التاريخي والنشاط تشاؤم وكآبة على أساس أن الأمور ستزداد سوءاً بقدر ما ستسير الأمور على ما هي عليه الآن ، وسيكون من الأصعب فالأصعب حل المهام التي يطرحها التطور الجديد؛ من هنا الدعوات إلى « عرقلة » هذا التطور وإيقافه ، ومن هنا النظرية القائلة بأن في التأخر سعادة روسيا الخ الخ . . لاشيء يجمع ، إذأ ، بين هذه السمات في الشعبية وبين « التراث » ، لا بل إنها تتناقض معه تناقضاً مباشراً . فاعتبار الرأسمالية الروسية « انحرافاً عن الطريق » وانحطاطاً يؤدي الى افساد التطور الاقتصادي كله في روسيا ، إلى إفساد هذا التغيير الذي يجري أمام أعيننا . إن الشعبي ، مأخوذاً برغبته في عرقلة وإيقاف تحطيم الرأسمالية للمركزات القديمة ، يصاب بفقدان مدهش للحس التاريخي ، وينسى أنه لم يكن قبل هذه الرأسمالية إلا استغلال مائل ، أضيف إليه أشكال لامتناهية من العبودية والتبعية الشخصية أرهقت وضع الكادح ، لم يكن إلا الرتبة والجمود في الانتاج .

(*) أتبحث لي الفرصة سابقاً في مقالتي عن الرومنطيقية الاقتصادية أن ألاحظ أن أعداءنا يظهرون قصر نظر مدهش حين يفهمون عبارتي : رجعي وبرجوازي صغير على أنها نزوات جدل ، مع أن هاتين العبارتين معنى تاريخياً فلسفياً محدداً تماماً (انظر . ف . إ . لينين مؤلفات كاملة ج ٢ ص ٢١١ . - هيئة التحرير .)

الاجتماعي ، وبالتالي في مختلف مستويات الحياة الاجتماعية . إن الشعبي يتخلى ، وهو يكافح الرأسمالية من وجهة نظره الرومنطقية البرجوازية الصغيرة ، عن الواقعية التاريخية اذ يقارن على الدوام واقع الرأسمالية بأوهامه حول نظم ما قبل الرأسمالية . « وأصحاب تراث » الستينات ، بأيامهم الحار بتقدمة التطور الاجتماعي الراهن وبعدهم الشديد الموجه كله ، حصراً ، ضد مخلفات القديم ، وبقناعتهم بأنه يكفي محو هذه المخلفات محواً تاماً لتسير الامور على خير ما يرام . أصحاب « التراث » هؤلاء لا يمتون بأي سبب الى الشعبيين ، لا بل يناقضونهم مباشرة .

والسمة الثانية للشعبية هي الإيمان بأصالة روسيا وتمجيد الفلاح والمشاة الخ . . إن تعاليم الشعبيين المتعلقة بأصالة روسيا أجبرتهم على التمسك بالنظريات الأوروبية الغربية القديمة ، ودفعتهم إلى الوقوف من كثير من مكتسبات الثقافة الأوروبية الغربية موقف الرعونة والطيش المدهشين ؛ وهم يهدنون قلوبهم بقولهم : إذا لم تتوفر فينا هذه الخصائص أو تلك من خصائص الانسانية المتقدمة ، « فقد كتب علينا » ، بالمقابل ، أن نزي العالم أساليب جديدة في إدارة الاقتصاد الخ . . لم يكن الشعبيون يقبلون بتحليل الفكر الأوروبي الغربي التقدمي للرأسمالية ولمختلف تجلياتها مطبقاً على روسيا المقدسة وحسب ، بل كانوا يختلقون تحفظات لا تسمح لهم أن يستخلصوا ، بالنسبة للرأسمالية الروسية ، ما استخلصه الغربيون من نتائج بالنسبة للرأسمالية الأوروبية . كان الشعبيون ينحنون احتراماً أمام أصحاب هذا التحليل ، ويظنون ، كما كانوا وبكل راحة بال ، رومنيين . مع أن أصحاب هذا التحليل ناضلوا حياتهم كلها ضد أمثال هؤلاء الرومنطقين . وهذه التعاليم المشتركة بين الشعبيين جميعاً لا تمت بأي سبب إلى « التراث » بل تتناقض معه مباشرة . وبالعكس حاول رجال الستينات أوربة روسيا ، وآمنوا بأشراك روسيا

في الثقافة الأوروبية العامة ، واهتموا بادخال مؤسسات هذه الثقافة إلى ارضنا غير الأصلية بتاتا . إن اي قول بأصالة روسيا لا ينسجم مطلقاً مع روح الستينات وتقاليدها . كما لا ينسجم مع هذه التقاليد ، وبقدر اكبر ، تمجيد الشعبية للقرية وتزويقها لها . إنه تمجيد مزيف يود بأي ثمن كان أن يرى في قريتنا شيئاً ما خاصاً ، لا يشبه ابداً نظام أي قرية أخرى في أي بلد آخر في فترة علائق ما قبل الرأسمالية . وهذا التمجيد يناقض مناقضة فاضحة تقاليد التراث الواقعي الواعي . فبقدر ما كانت الرأسمالية تتطور تطوراً أبعد واعمق ، كانت التناقضات المشتركة بين المجتمعات السلعية الرأسمالية تظهر بقوة اكبر ، وكان التناقض يبرز بحدة متزايدة بين اقاويل الشعيين الحلوة عن « مشاعية » الفلاح و « تعاونيته » البخ .. وبين الانشقاق الفعلي للفلاحين الى برجوازية قروية وبروليتارياتريفية ، وكان الشعيون الذين ظلوا ينظرون إلى الأمور بعيني الفلاح يتحولون بسرعة اكبر من رومنتيقيين عاطفيين إلى ايدئولوجي البرجوازية الصغيرة ، إذ ان المنتج الصغير في المجتمع المعاصر كان يتحول الى منتج سلع . وأدى التمجيد المزيف للقرية ، والاحلام الرومنطيقية حول « المشاعية » إلى وقوف الشعيين موقفاً طائشاً أرعن من الحاجات الفعلية التي فرضها هذا التطور الاقتصادي على الفلاح . كان بإمكان الشعيين أن يتحدثوا نظرياً ، بقدر ما يطيب لهم ، عن قوة المرتكزات والمبادئ الروسية ، ولكن كل شعبي كان يشعر ، عملياً ، شعوراً واضحاً للغاية أن إزالة آثار القديم ، آثار نظام ما قبل الإصلاح الذي لا زال يكبل فلاحينا حتى الآن من أعلى الرأس حتى أخمص القدم ، تفتح الطريق أمام التطور الرأسمالي بالذات ، وليس أمام أي تطور آخر . نفضل الجمود على التقدم الرأسمالي - هذه هي ، في جوهرها ، وجهة نظرة أي شعبي إلى القرية ، مع أن الشعيين لا يجروئون كلهم ، بالطبع ، على الافصاح عن ذلك علناً ، كما فعل السيد ف.ف بصراحته الساذجة . « يبدو كأن الفلاحين المسمرين إلى قطعة الأرض والجمعيات ، المحرومين من ممارسة عملهم في

المكان الذي يكون اكثر انتاجية وانفع لهم ، قد تجمدوا في ذلك النمط الضيق ، غير المنتج ، الشبيه بنمط الحيوانات في الحياة ، الذي وجدوا انفسهم فيه بعد أن تخلصوا من نظام القنائة .. هكذا يرى احد ممثلي التراث من وجهة نظره الخاصة باعتباره « منوراً » (٣٦) . « الأفضل أن يبقى الفلاحون متجمدين في نمط حياتهم الأبوي الرتيب من أن يهدوا الطريق أمام الرأسمالية » - هكذا في الأساس ينظر إلى الامور أي « شعبي » . وبالفعل ، لن نجد ، على الأرجح ، شعبياً واحداً يجسر على أن ينكر أن الانطواء الطبقي للمشاعة الفلاحية ، بتكافلها وتضامنها ومنع بيع الأرض ورفض تقسيمها ، يقع في تناقض حاد مع الواقع الاقتصادي المعاصر ، مع العلائق السلعية الرأسمالية المعاصرة وتطورها . وانكار هذا التناقض غير ممكن . لكن جوهر الموضوع كله هو أن الشعبين يخافون مثل هذا الطرح للمسألة ، ومثل هذه المقارنة لوضع الفلاحين الحقوق بالواقع الاقتصادي ، وبالتطور الاقتصادي الراهن ، خوفهم من النار . فالشعبي يريد بعناد أن يؤمن بما ليس موجوداً ، بالتطور دون رأسمالية ، وهو تطور يتخيله بطريقة رومنتيقية . لهذا .. لهذا تراه مستعداً لأن يوقف هذا التطور الذي يسير في طريق الرأسمالية . أما موقف الشعبي من بعض المسائل ، كانطواء المشاعة الفلاحية الطبقي والتكافل والتضامن ، وحق الفلاحين في بيع الأرض ، أو رفض حصصهم منها ، فموقف يتصف بأعظم قدر من الحذر والخوف على مصير « المرتكزات » (مرتكزات الجود والرتابة) ، لا بل ينحط الى درك يحیی معه منع الفلاح بيع أرضه بقوة الشرطة . ويمكننا أن نردّ على هذا الشعبي بكلمات انغيلغارت : « الفلاح غبي . وإذا لم يهتم به أحد ، سيجرق الغابات كلها ، وسيقتل الطيور كلها ، وسيصطاد الأسماك كلها ، وسيفسد الأرض وسيهلك اخيراً » . الشعبي يتخلى هنا « عن التراث » صراحة ، ويصبح رجعيّاً . ولاحظوا أيضاً أن تحطيم الانطواء الطبقي للمشاعة

الفلاحية يصبح ، مع التطور الاقتصادي ، ضرورة أكثر فأكثر الحاحاً بالنسبة للبروليتاريا ، في حين أن المضايقات التي تصيب البرجوازية الفلاحية من ذلك غير كبيرة . « الفلاح الحسن التدبير » يستطيع بسهولة أن يستأجر أرضاً في قريته ويفتح مشروعاً في قرية أخرى ، وإن ينتقل حيث يشاء ولأي فترة يريد لها لقضاء أعماله التجارية . أما « الفلاح » الذي يعيش بشكل رئيسي من بيع قوة عمله ، فتثبيته إلى قطعة الأرض أو الجمعية يعني تضيقاً ضخماً على نشاطه الاقتصادي ، يعني عدم تمكنه من أن يجد مستأجراً أفضل ، يعني ضرورة بيعه قوة عمله إلى مشترين محليين بالذات ، يأخذونها بثمن أرخص ، ويبحثون باستمرار عن أية أساليب لاستعباده . فالشعبي ، بوقوعه أسير الاحلام الرومنطيقية ، وبرغبته في أن يقوي ويحافظ على « الركائز » ، على الرغم من حكم التطور الاقتصادي ، قد انزلت دون أن يدري حتى وجد نفسه بجانب الفلاح الغني الذي يتعطش من صميم قلبه للحفاظ على « ارتباط الفلاح بالأرض » ، وتقوية هذا الارتباط . « يكفينا أن نذكر كيف ولد هذا الانطواء الطبقي للمشاعة الفلاحية أساليب جديدة في استئجار العمال ، كأن يرسل أصحاب المصانع والاستثمارات ناظرهم إلى القرى ، وخصوصاً تلك التي لم تدفع بعد كافة استحقاقاتها من الضرائب ، لاستئجار العمال بأزهد أجر ممكن .. ولكن تطور الرأسمالية الزراعية ، إذ يقضي على « الإقامة الدائمة البروليتاريا » (هذا هو مفعول ما يسمى بالأعمال الزراعية الموسمية) يزيح ، لحسن الحظ ، هذا الاستعباد تدريجياً ، ليستبدله بالاستئجار الحر .

إن تمجيد فكرة إفناء الدين عملاً ، وهي الظاهرة العامة في تفكير الشعبين ، تقدم تأكيداً آخر لرأينا في ضرر النظريات الشعبية المعاصرة ، وهو تأكيد لا يقل وضوحاً عن سابقه . وقد أوردنا سابقاً مثلاً على ذلك ، هو أن انغليغارت توصل ، بعد سقوطه في هذه الخطيئة الشعبية ، إلى القول بأنه سيكون أمراً حسناً لو طُور

في القرية نظام إيفاء الدين عملاً ! ونجد الفكرة نفسها في مشروع السيد بوجاكوف المعروف، المتعلق بالمدارس الزراعية (« روسكوبي بوغاتستغو » ١٨٩٥ عدد ٥) . كما استسلم الى مثل هذا التمجيد السيد ف. ف ، مساعد السيد انغيلغارت في تحرير المجلة ، في مقالات اقتصادية رصينة ، مؤكداً أن الفلاح انتصر على الاقطاعي الذي يودّ ادخال الرأسمالية كما يقول السيد ف. ف ، ولكن المصيبة هي ان الفلاح أخذ يعمل في أراضي الاقطاعي لقاء استئجاره أراضي الاقطاعي نفسه اي ان الفلاح أعاد طريقة الزراعة نفسها التي كانت في عهد القنانة . هذه هي اكثر الامثلة بروزاً على موقف الشعبين الرجعي من مسائل الزراعة في بلدنا . وتجذون هذه الفكرة ، ربما بشكل أقل وضوحاً، عند اي شعبي . ان كل شعبي يتكلم عن ضرر الرأسمالية وخطرها على زراعتنا ، لأن الرأسمالية ، وارجوكم ملاحظة ذلك ، تستبدل الفلاح المستقل بالأجير . ان واقع الرأسمالية (الأجير) يعارض بوجه الفلاح « المستقل » ، ويقوم هذا الوم على اساس ان الفلاح كان يملك قبل العهد الرأسمالي وسائل الانتاج، بينما يغفل بكل تواضع واقع أنه كان على الفلاح ان يدفع ضعفي قيمة هذه الوسائل وان وسائل الانتاج هذه تستعمل لايفاء الدين فقط ، وأن مستوى حياة هذا الفلاح « المستقل » منخفض انخفاضاً يمكن معه ادراجه ، في أي بلد رأسمالي، في قائمة المعدمين، وأن الفقر المدقع الذي يعيش فيه هذا الفلاح المستقل، وعطالته الفكرية يقترونان ، علاوة على ما تقدم ، بتبعيته الشخصية التي تلازم عادة أشكال اقتصاد ما قبل الرأسمالية .

وترتبط السمة الثالثة للشعبية، وهي انكار علاقة « المثقفين » والمؤسسات السياسية الحلقوية في البلد بالمصالح المادية لطبقات اجتماعية معينة ، ارتباطاً وثيقاً بالسمتين السابقتين . ففقدان الواقعية في المسائل الاجتماعية يستطيع، هو وحده ، ان يولد المذهب القائل « بخطأ » الرأسمالية الروسية وبامكانية « تحويلها عن

مسارها ، . ونقول ، مرة أخرى ، ان آراء الشعبين هذه لا تمت بأي سبب الى « تراث » الستينات وتقاليدها ، لا بل تتناقض مباشرة وهذه التقاليد . ومن هذه الآراء ينشأ طبيعياً موقف الشعبين هذا من كثير من مخلفات تنظيم ما قبل الإصلاح في الحياة الروسية ، وهو موقف لا يمكن لمثلي « التراث » ان يشاركوم فيه بأي حال من الأحوال . وسنسمح لأنفسنا باستخدام ملاحظات السيد ف. ايفانوف الرائعة في مقاله « وهم سيء » (نوفويي سلوفا ^(٣٧) - ايلول عام ١٨٩٧) لوصف هذا الموقف . يتحدث الكاتب ايفانوف عن رواية السيد بوبوريكين الشهيرة « بشكل آخر » ، ويكشف عن عدم فهم صاحب الرواية للنقاش الدائر بين الشعبين « والتلاميذ » ، اذ يجعل بطل روايته ، وهو شعبي ، يوجه الى « التلاميذ » عتاباً ، فحواه « أن التلاميذ ، يحملون « بشكنة تنظيم لا يطاق استبدادها . ويلاحظ السيد ف. ايفانوف بصدد ذلك ما يلي :

ليس الأمر في أن الشعبين لم يتكلموا عن استبداد « التنظيم » الذي لا يطاق بوصفه « حلم » اعدائهم فقط ، بل انهم لا يستطيعون أن يتكلموا ويظلوا مع ذلك شعبيين ، وهم لن يفعلوا ذلك . وجوهر نقاشهم مع « الماديين الاقتصاديين » في هذا المجال هو أن بقايا التنظيم القديم التي لا زالت موجودة عندنا تستطيع ، في رأي الشعبين ، ان تكون أساساً لتطور مقبل للتنظيم . لكنهم يرون أن هذا التنظيم لا يطاق لتصورهم الخاطئ بأن النفس الفلاحية ذاتها (الواحدة التي لا تتجزأ) تتطور نحو التنظيم من جهة ، ولقنائهم ، من جهة أخرى ، بما في المثقفين ، « المجتمع الراقي » أو الفئات الحاكمة بوجه عام ، من جمال أخلاقي موجود فعلاً أو هو في طريقه الى الكينونة . فهم يهتمون الماديين الاقتصاديين بالتحيز لا الى « التنظيم » ، بل ، بالعكس ، بالتحيز الى النظم الأوروبية الغربية القائمة على فقدان التنظيم . ويؤكد الماديون الاقتصاديون ، في الواقع ، أن بقايا التنظيم القديم ،

الذي قام على أساس الاقتصاد الطبيعي ، تصبح أكثر ثقلًا يوماً بعد يوم ، في بلد انتقل الى اقتصاد نقدي يحدث تغييرات لاحصر لها في الوضع الفعلي لمختلف الفئات ، كما يحدثها في ملاحظها العقلية والاخلاقية ؛ ولهذا فهم مقتنعون بأن الشروط الضرورية لنشوء « تنظيم » جديد مثمر للحياة الاقتصادية في البلد يمكن ان تتطور ، لا من مخلفات تنظيم متكيف مع الاقتصاد الطبيعي ونظام القناة ، بل في مناخ يغيب فيه هذا التنظيم القديم غياباً تاماً ومتكاملاً كما في البلدان الأوروبية المتقدمة واميركا . ومسألة « التنظيم » ، التي يثور الجدل حولها بين الشيعيين وخصومهم ، تقع في هذا المستوى (ص ١١ - ١٢) . وقد يمثل هذا الموقف ، الذي يقفه الشيعيون من « بقايا التنظيم القديم » ، ابرز شكل من اشكال تراجع الشيعيين عن تقاليد « التراث » . فتمثلو التراث يتميزون ، كما رأينا ، بادانتهم العنيفة القاطعة لبقايا التنظيم القديم كلها . وبالتالي « فالتلاميذ » ، من هذه الزاوية ، أقرب بكثير الى « التقاليد » و « تراث » الستينات من الشيعيين .

ويؤدي بهم انعدام الواقعية الاجتماعية ، بالاضافة الى الخطأ البالغ الخطورة الذي أشرنا اليه ، الى اسلوب خاص في التفكير ومحاكمة المسائل والقضايا الاجتماعية ، يمكن أن نسميه غرور مثقفين ضيق الأفق أو تفكيراً بيروقراطياً . فالشعبي يفكر دائماً في الطريق التي يجب علينا ان نختارها للوطن ، وفي الصعوبات التي قد تعترضنا فيما لو وجهنا الوطن في هذه الطريق ، وفي المخرج الذي نستطيع نحن أن نؤمنه اذا تجاوزنا مخاطر الطريق التي مرت بها اوروبا العجوز ، واذا أخذنا « ما هو جيد » في اوروبا وفي مشاعتنا الأصلية الخ ... ومن هنا عدم ثقة الشعبي ، واستخفافه بالاتجاهات المستقلة للطبقات الاجتماعية المختلفة التي تصنع التاريخ وفق مصالحها . ومن هنا هذا الطيش المدهش الذي يندفع معه الشعبي (ناسياً الوضع الذي يحيط به) في كافة أنواع التخطيطات الاجتماعية الفارغة ،

بدءاً من تنظيم العمل الزراعي ، وانتهاء بمحاولات « مجتمعنا » « تدنيس الانتاج » . « سينمو حجم الجماهير بقدر رسوخ العمل التاريخي الذي هو قضيتها (*) » . في هذه الكلمات تعبير عن احدى أعمق وأهم موضوعات النظرية التاريخية الفلسفية التي لا يريد شعبيونا ، ولا يستطيعون فهمها . فبقدر ما يتسع وبتعمق الابداع التاريخي للناس ، ينمو وزن تلك الفئة من الناس التي هي العامل التاريخي الواعي . فالشعبي يفكر في السكان عامة ، والشغيلة بنوع خاص بوصفهم موضوعاً لاجراءات تكون معتدلة الى هذا الحد أو ذاك ، بوصفهم مادة جامدة توجه في هذه الطريق أو تلك ، ولم ينظر أبداً الى الفئات المختلفة من السكان ، بوصفها قادرة على ان تقوم بعمل تاريخي مستقل في هذه الطريق ، ولم يطرح ابداً مسألة الظروف المحيطة بتلك الطريق والتي قد تطوّر (أو ، بالعكس ، قد تشل) النشاط المستقل والواعي لمبدعي التاريخ هؤلاء .

وهكذا نرى أن الحل الذي قدمته الشعبية لمسألة الرأسمالية في روسيا كان ، بحكم وجهة نظرها البرجوازية الصغيرة ونقدها العاطفي للرأسمالية ، حلاً غير مرض حتى انها تخلّفت عن المنورين في كثير من المسائل الاجتماعية البالغة الاهمية ، مع ان طرحها لمسألة الرأسمالية كان خطوة عظيمة إلى الأمام بالنسبة للمنورين من جماعة « التراث » .

وكان انضمام الشعبية الى تراث منورينا وتقاليدهم سلبياً من حيث نتيجته : فهي لم تحل المسائل الجديدة التي طرحها التطور الاقتصادي بعد الاصلاح في روسيا على الفكر الاجتماعي الروسي ، بل اكتفت بالتحسر الرجعي العاطفي على الماضي . اما المسائل القديمة التي طرحها المنورون فقد حشتها الشعبية رومنتيقية واءافت حلها الكامل .

(*) ماركس العائلة المقدسة .

نستطيع الآن ان نستخلص النتائج من مقارناتنا . فلنحاول ان نصف بايجاز علاقة التيارات الفكرية الاجتماعية التي أشرنا اليها في العنوان كل منها بالآخر .

يؤمن المنور بالتطور الاجتماعي الراهن ، لأنه لا يلاحظ ما فيه من تناقضات . والشعبي يخاف هذا التطور الاجتماعي ، لأنه يلاحظ هذه التناقضات . أما « التلميذ » فيؤمن بهذا التطور الاجتماعي لأنه لا يرى في التطور الكامل لهذه التناقضات الا ضماناً لمستقبل أفضل . فالانجهاان ، الأول والاخير ، يبعين ، بسبب ذلك ، الى تدعيم التطور في هذه الطريق ، والاسراع فيه وتيسيره وازالة كافة العقبات التي تحول دونه وتعيقه . أما الشعبية فتحاول ، على العكس من ذلك ، اعاقا هذا التطور وايقافه وتخاف من إزالة بعض العقبات أمام تطور الرأسمالية . ويتصف الانجهاان الأول والاخير بما يمكن أن نسميه التفاضل التاريخي : بقدر ما تسرع الامور في تطورها ، كما هو الآن ، سيكون الأمر افضل . أما الشعبية فتفضي ، على العكس وبشكل طبيعي ، الى التثاؤم التاريخي : بقدر ما تتطور الأمور على هذا المنوال ، يكون الأمر أسوأ . ثم يطرح المنورون قط مسألة طابع التطور الذي الذي حصل بعد الاصلاح ، واكتفوا ، حصراً ، باعلان الحرب على بقايا نظام ما قبل الاصلاح ، مكتفين بمهمة سلبية هي تمهيد الطريق أمام تطوير روسيا اوروبياً . الشعبية طرحت مسألة الرأسمالية في روسيا ، لكنها حلتها انطلاقاً من قناعتها برجعية الرأسمالية ، فلم تستطع ، لذلك ، أن تستوعب تماماً تراث المنورين : فقد أعلن الشعبيون دائماً الحرب على كل من حاول أوربة روسيا بشكل عام ، أي من وجهة نظر « وحدة الحضارة » ، واعلنوها ، لا لأنهم لا يستطيعون أن يكتفوا بالمثل العليا لهؤلاء الناس فقط (والا لكانت هذه الحرب عادلة) ،

بل لأنهم لم يريدوا أن يسيروا أبعد من ذلك في طريق التطور الراهن للحضارة ، أي التطور الرأسمالي . أما « التلاميذ » فيحلون مسألة الرأسمالية في روسيا انطلاقاً من تقدميتها ، ولهذا فهم يستطيعون ، بل يتوجب عليهم ايضاً ، أن يقبلوا بتراث المنورين كله ويكملوه بتحليل تناقضات الرأسمالية من وجهة نظر المنتجين غير المالكين . إن المنورين لم يبرزوا أي طبقة من السكان موضوعاً لاهتمامهم الخاص ، بل تكلموا ليس عن الشعب بوجه عام فحسب ، بل حتى عن الأمة بوجه عام . أما الشعيون فقد رغبوا في تمثيل مصالح العمل دون أن يشيروا ، مع هذا ، الى فئات معينة في نظام الاقتصاد الحديث ، فكانوا ، عملياً ودائماً ، من وجهة نظر المنتج الصغير الذي تحوله الرأسمالية الى منتج سلع . أما التلاميذ فلا يأخذون مصالح العمل مقياساً لهم فقط ، بل يشيرون في الوقت نفسه الى فئات اقتصادية معينة تماماً في الاقتصاد الرأسمالي ، هي ، بالضبط ، فئة المنتجين غير المالكين . الاتجاهان ، الأول والأخير ، يتطابقان ، من حيث مضمون رغباتهما ، ومصالح الطبقات التي تخلقها الرأسمالية وتطورها ، أما الشعبية فتتطابق ، من حيث مضمونها ، ومصالح طبقة صغار المنتجين ، ومصالح البرجوازية الصغيرة التي تحتل مركزاً وسطاً بين طبقات المجتمع المعاصر الأخرى . ولهذا فان موقف الشعبية المتناقض من « التراث » ليس موقفاً عارضاً ، بل نتيجة حتمية لمضمون آرائها نفسه : فقد رأينا أن احدى السمات الرئيسية للمنورين كانت محاولتهم اجادة أوربة روسيا ، أما الشعيون فلا يستطيعون أبداً أن يوافقوهم على هذه الحالة ويبقوا شعبيين .

وأخيراً ، نصل إلى النتيجة التي أشرنا اليها اكثر من مرة في مناسبات خاصة سابقة ، وهي أن التلاميذ يحافظون على التراث حفاظاً اكثر صدقاً وتماسكاً من الشعيين بكثير . إنهم لا ينفضون ايديهم من التراث ، بل هم ، على العكس ، يعتبرون احدى اكثر مهامهم معنى دحض التخوفات الرومنطيقية والبرجوازية الصغيرة التي تجعل الشعيين يعرضون عن المثل الاوروبية للمنورين في نقاط كثيرة

جدا وهامة جدا . ولكن من المفهوم أن « التلاميذ ، لا يحافظون على التراث . »
كما يحافظ امناء المحفوظات على ورقة قديمة (فالحفاظ على التراث لا يعني التوقف
عنده) ، بل يقرنون الدفاع عن المثل العليا الأوروبية بتحليل التناقضات ، التي
ينطوي عليها تطورنا الرأسمالي ، وبتقييم هذا التطور من وجهة نظرهم الخاصة التي
أشرنا اليها من قبل .

كتب في أواخر عام ١٨٩٧

ج ٢ ، ص ٤٠٩ - ٥٤٢



من مؤلف

« ما العمل ؟ »

المسألة الملحة لحركتنا

... لو استطعنا فعلاً أن نجعل اللجان والجماعات والحلقات المحلية ، كلها أو معظمها ، تشارك بنشاط في العمل العام ، لأصبح بإمكاننا أن نصدر في مستقبل قريب صحيفة اسبوعية توزع بصورة منتظمة في جميع انحاء روسيا بعشرات الآلاف من النسخ . ستصبح هذه الصحيفة جزءاً من منافخ حدادة هائل ، يحيل كل شرارة من شرارات النضال الطبقي والسخط الشعبي حريقاً عاماً . وحول عمل كهذا ، بريء جداً وصغير جداً بذاته ، لكنه عمل منتظم ، وعام بكل ما في الكلمة من معنى ، سيعبأ بصورة منتظمة وسيتعلم جيش دائم من مناضلين مجريين . ولن يمر وقت طويل حتى ينهض على صفالات هذا البناء العام الذي يجري تنظيمه ، ويبرز من بين ثورينا اشتراكيون ديمقراطيون من طراز جيليايوف ، ومن بين عمالنا الروس رجال من طراز بيل ، يقفون على رأس جيش معبأ ، ويستنهضون الشعب كله للاقتصاص من وصمة العار واللعنة على جبين روسيا .

هذا ما ينبغي لنا أن نحلم به !.



« ينبغي لنا أن نحلم ! » ما ان كتبت هذه الكلمات حتى ذعرت . فقد خيل الي أني جالس في « مؤتمر التوحيد » وأمامي محررو « رابوتشي ديلو » والعاملون فيها . واذا بالرفيق مارتينوف ينهض ويوجه كلامه إلي مهدداً « اسمع لي أن أسألك ؛ هل يحق لهيئة تحرير مستقلة أن تحلم دون أن تستأذن في ذلك لجان الحزب ؟ » . ثم ينهض الرفيق كريتشيفسكي ويستطرد (معمقاً ، من زاوية فلسفية ، فكرة الرفيق مارتينوف الذي عمتق بدوره ، ومنذ زمن طويل افكار بليخانوف) قائلاً بنبرة تهديد أقوى : « إني اذهب إلى أبعد من الرفيق كريتشيفسكي فأسأل : بوجه عام ، هل يحق لماركسي أن يحلم ، اللهم إلا إذا نسي أن البشرية ، في رأي ماركس ، لا تضع نصب عينيها على الدوام إلا اهدافاً ممكنة التحقيق ، وأن التكتيك هو عملية نمو المهام التي تنمو مع الحزب ؟ » .

وسرت القشعريرة في بدني لجرد التفكير في هذه الاسئلة الرهيبة ، وأخذت أبحث عن ملجأ اختبئ فيه . فلأختبئ وراء ظهر بيساريف .

كتب بيساريف يقول بشأن الخلاف بين الحلم والواقع : « يقول المثل ، ليست الخلافات كلها واحدة . فقد يسبق حلمي مجرى الاحداث الطبيعي ، أو قد يمنح الى اتجاه لا يمكن لسير الأحداث الطبيعي أن يفضي اليه أبداً . ففي الحالة الأولى لا يسبب الحلم أي ضرر ، بل قد يشجع الانسان الكادح ويشدد من عزيمته . . وليس في هذه الاحلام ما يمكن ان يفسد أو يشل القوة العاملة . بل العكس هو الصحيح . فلو حرم الانسان ملكة الحلم بهذا الشكل ، ولو كان عاجزاً عن أن يستبق مجرى الأحداث أحياناً ، ويتخيل العمل ، الذي بداه ، جاهزاً في صورته الكاملة والنهائية ، فاني لا أستطيع عندئذ أن أتصور ، بوجه من الوجوه ، الدافع ، الذي يحفز الانسان على الشروع في عمل جسيم ومضن في ميادين الفن والعلم والحياة العملية ، وعلى الدأب حتى انجازه . . ان الخلاف بين الحلم والواقع لا يسبب أي ضرر ، اذا كان الحالم يؤمن ايماناً صادقاً بحلمه ، واذا

كان يتأمل الحياة بانتباه ، مقارناً بين ملاحظاته والقصور التي يبنها في الهواء ،
عاملاً بشكل وجداني على تحقيق حلمه . فعندما يوجد تماس بين الحلم والحياة ،
تسير الأمور على ما يرام^(٣٨) .

هذا النوع بالذات من الأحلام قليل جداً في حركتنا لسوء الحظ . ويقع
القسط الأكبر من المسؤولية على ممثلي الانتقادية العلنية « والذنبية » غير العلنية ،
الذين يتبحجون بصفاء ذهنهم و « بقربهم » من « الواقع المشخص » ...

كتب ما بين خريف عام ١٩٠١ وشباط عام ١٩٠٢

ج ٦ ص ١٧١ - ١٧٣



من مقال

« اتجاه مفهوم في الاشتراكية الديمقراطية الروسية »

يعبر الليبراليون عن عدم رضاهم عن الحكم الاستبدادي بالشكل الذي يسمع به الحكم الاستبدادي نفسه ، أي بالشكل الذي يراه الحكم المطلق غير خطر عليه . وأعظم تجل للمعارضة الليبرالية ظهر فقط في التماسات الليبراليين من الحكومة القيصريّة اشراك الشعب في الحكم . كان الليبراليون يتحملون ، كل مرة وبصبر ، الرفض البوليسي لفظ لالتماساتهم ، ويتحملون الملاحقات الوحشية والاشريعة التي كانت الحكومة البوليسية تكفي بها حتى محاولاتهم الشرعية للتعبير عن آرائهم . ومحاولة تحويل المعارضة الليبرالية بكل بساطة الى صراع اجتماعي ضد الحكم الاستبدادي يعني تشويه القضية تشويهاً صريحاً ؛ فالليبراليون الروس لم ينظموا أبداً حزباً ثورياً للنضال في سبيل اسقاط الحكم الاستبدادي ، على الرغم من أنهم كانوا ولا زالوا يستطيعون أن يجدوا الموارد المادية وممثلين لليبرالية الروسية في الخارج على حد سواء . أما ر . م (*) فلا يشوه القضية وحسب ، بل يقحم اسم الاشتراكي الروسي ن . غ . تشرنيشفسكي . يقول ر . م « ان حلفاء العمال في هذا الصراع هم فئات المجتمع الرومي التقدمية كلها ، المدافعة عن مؤسساتها ومصالحها الاجتماعية ، الفاهمة بوضوح منفعتها المشتركة » والتي لا تنسى (وهنا

(*) ر . م صاحب مقالة افتتاحية في ملحق خاص لصحيفة « رابوتشاياميسل » (الفكر العالي) . وقد عبر صاحب المقالة فيها بوضوح تام عن افكار « الاقتصاديين » الانتهازية .

يستشهد ر. م بتشرنشفسكي (كم هو عظيم الفرق في أن يتم تغيير ما يطلب رسمي من المجتمع أو بقرار مستقل من الحكومة . فاذا طبقنا هذه الفكرة على كل ممثلي «الصراع الاجتماعي» ، كما يفهمه ر. م ، أي على الليبراليين الروس كلهم ، سيكون هذا زيفاً صريحاً . فالليبراليون الروس لم يتقدموا أبداً من الحكومة بمطالب رسمية ، ولهذا بالضبط لم يلعبوا أبداً ، وليس في مقدورهم الآن أن يلعبوا دوراً ثورياً مستقلاً . ان حلفاء الطبقة العاملة والاشتراكية الديمقراطية لا يمكن أن يكونوا « فئات المجتمع التقدمية كلها » ، بل الأحزاب الثورية التي يؤسسها أعضاء هذا المجتمع فقط . أما الليبراليون فبمقدورهم ، ومن واجبهم بشكل عام ، أن يكونوا أحد مصادر القوى والموارد الإضافية للحزب العمالي الثوري فقط (كما عبر عن ذلك ب. ب. أكسيلرود بوضوح تام في كراسه الذي ذكرناه سابقاً^(١٣٩)) . كان ن. غ. تشرنشفسكي يسخر بلا رحمة من « فئات المجتمع الروسي التقدمية » لأنها ، بالضبط ، لم تفهم ضرورة مطالبة الحكومة رسمياً ، بل كانت تنظر بلا مبالاة الى هلاك الثوار من بينها تحت ضربات الحكومة الاستبدادية . وفي هذه الحالة يورد ر. م مقتطفات من تشرنشفسكي لا معنى لها تماماً ، كالمقاطع التي يجتزئها في مقاله الثاني (الملحق الخاص) من أقوال تشرنشفسكي ، ويحاول بها أن يدل على أن تشرنشفسكي ، كما يدعي ، لم يكن طوباوياً ، وأن الاشتراكيين الديمقراطيين الروس لم يقدروا أهمية « الاشتراكية الروسي العظيم » حق قدرها . لقد قيم بليخانوف في كتابه عن تشرنشفسكي (مقالاته في مجموعة « الاشتراكية الديمقراطي » التي صدرت في كتاب مستقل بالالمانية) تقييماً كاملاً أهمية تشرنشفسكي ، وأوضح موقفه من نظرية ماركس وانغلز . أما هيئة تحرير « رابوتشاباميسل » فلم تكشف الا عن عدم قدرتها على تقديم اي تقييم منطقي وكامل لتشرنشفسكي ، لنقاط القوة والضعف في نظريته ...

كتب في أواخر ١٨٩٩

ج ٤ ص ٢٥٧ - ٢٥٩

النظرة الماركسية الى المسألة الزراعية

في أوروبا وفي روسيا (٤٠)

المسألة الزراعية في روسيا :

جوهر الشعبية

١ - الآراء القديمة = الشعبية .

الفلاحون = « الانتاج الشعبي » (لا البرجوازية الصغيرة) .

المشاعة = بذور الشيوعية (مشاعة الدولة) .

لا توجد أرضية للرأسمالية :

لا توجد سوق داخلية ، الفلاحون هم التناقض الأعظم .

لا يوجد صراع طبقي في الزراعة .

«الديمقراطية الزراعية»
قيمتها التاريخية .

٢ - إنها نظرية كاملة ، بدءاً من غرتسن وانتهاء بـ ن . مرحلة واسعة من الفكر الاجتماعي .

قيمتها التاريخية : تجسيد الصراع ضد الاقطاعية (الديمقراطية الزراعية) ماركس (٤١) .

ترسباتها عند

الاشتراكيين الثوريين

عناصر ديمقراطية .

+ اشتراكية طوباوية .

+ إصلاحات برجوازية صغيرة .

+ رجعية البرجوازي الصغير .

يجب فصل الزؤان عن القمع .

تفكك طبقة الفلاحين
(خطيئة داود)

٣ - المسألة الجوهرية: تفكك طبقة الفلاحين وتحولها

إلى برجوازية صغيرة ، الصراع الطبقي في

القرية ...

البنية الزراعية في روسيا . لاضرورة لبرنامج

زراعي لو كانت هناك رأسمالية . (انغلز ،

بيوتغر) . لكن ... مخلفات الاقطاعية .

بقايا نظام القنانة

مقومات التفكك :

- ايفاء الدين عملاً .

- الاتاوات العالية .

- انعدام حرية الانتقال .

- الرأسمال عن طريق الربا .

ملاحظة

بقايا نظام القنانة

٤ - الانتقال من نظام السخرة إلى الاقتصاد الرأسمالي .

(نظام فترة
الانتقال) - نظام الايفاء عملاً .

تطور الرأسمالية (١٣٣ ، ١٣٥) (٤٢) .

- قطع الأرض .

طبقة الأجراء في الزراعة : ٣١/٤ مليون كحد

٥ .

٥ - انتقال العمال في روسيا ، بوصفه تعبيراً عن
التطور الاجمالي للرأسمالية .

يهربون من الانتاج الشعبي (تطور الرأسمالية .
٤٦٦ - ٩) (٤٣) .

وبالتالي ، جوهر الفترة الراهنة في التطور
الاقتصادي (وفي تاريخ روسيا كله) .

= القضاء على مخلفات الاقطاعية .
جوهرياً نحن الزراعي

= حرية تطور الرأسمالية .

= حرية الصراع الطبقي للبروليتاريا .

[المسألة الزراعية عندنا غيرها في أوروبا] .

[الجمود ، المجاعات

انحطاط ؟ أو حرية الرأسمالية] .

هنا نواة الشعبية ، نواتها الديمقراطية الثورية

تشكلت فئة الفلاحين الأغنياء

العمال الاجراء بأشكال مختلفة .

١٠ ملايين . تطور
الرأسمالية ٦٢ (٤٤)

— القضاء على مخلفات الاقطاعية بطور سلطتها ،
ويعطيها شكلاً رسمياً .

— ارتفاع مستوى الحياة يقوي السوق الداخلية
ويطور التصنيع .

عدم فهم الاشتراكيين.

الثوريين وامثال

ريزانوف للبرنامج

المزراعي

— تطور البروليتاريا والصراع الطبقي من أجل
الاشتراكية .

كتب في ٢٥ - ٢٦ شباط ١٩٠٣

« المجموعة اللينينية » ، ج ١٩ ، من ٣٣٧ - ٢٤٠

★ ★ ★

من مقال

« الاشتراكية البرجوازية الصغيرة والاشتراكية البروليتارية »

... كانت الشعبية نظرة متكاملة ومتناسكة إلى حد ما . فقد كانت

تكر سيطرة الرأسمالية في روسيا، وتنكر دور عمال المصانع والمعامل ، بوصفهم المناضلين الطليعيين للبروليتاريا كلها ، وتنكر أهمية الثورة السياسية والحربية البرجوازية السياسية ؛ كانت تدعو إلى انقلاب اشتراكي فوري ، ينطلق من المشاعة الفلاحية باقتصادها الزراعي الصغير . ولم يبق الآن من هذه النظرة المتكاملة إلا مزق . ولكن علينا ، إذا ما أردنا أن نتفهم تفهماً واعياً المناقشات المعاصرة كي لا نترك هذه المناقشات تنحط إلى درجة السباب المتبادل ، أن نضع نصب أعيننا الأسس الشعبية العامة والجذرية لاضلالات اشتراكيينا الثوريين .

كان الشعبون يعتقدون أن الموجيك هو إنسان المستقبل في روسيا . وكانت هذه النظرة تنبثق ، بالضرورة ، من ايمانهم باشتراكية المشاعة، ومن عدم ايمانهم بمصائر الرأسمالية . وكان الماركسيون يعتقدون أن العامل هو انسان المستقبل في روسيا . ويؤكد تطور الرأسمالية ، في الزراعة كما في الصناعة ، نظرتهم أكثر فأكثر . وقد أجبرت الحركة العمالية الروسية ذاتها الناس على الاعتراف بها . أما ما يخص الحركة الفلاحية ، فالهوة بين الشعبية والماركسية ما زالت قائمة حتى الآن من حيث فهمها المختلف لهذه الحركة . الحركة الفلاحية ، في رأي الشعبين ، هي ، على وجه الدقة ، حركة في صالح الانقلاب الاشتراكي المباشر ؛ فهي

لا تعترف بأي حركة سياسية برجوازية ! إنها تنطلق ، على وجه التحديد ، من الاقتصاد الصغير لا من الاقتصاد الكبير . وبكلمة مختصرة ، الحركة الفلاحية ، بالنسبة للشعبي ، هي الحركة الاشتراكية الحقيقية ، الاشتراكية فعلاً ، الاشتراكية صراحة . ويفسر الأيمان الشعبي بالمشاعة الفلاحية وبالفوضوية الشعبية تفسيراً كاملاً هذه النتائج .

أما الحركة الفلاحية ، في رأي الماركسي ، فحركة ديمقراطية ، على وجه الدقة ، وليست حركة اشتراكية ، تقتزن في روسيا ، بالضرورة ، كما افتتنت في البلدان الأخرى ، بالثورة الديمقراطية البرجوازية بمحتواها الاقتصادي الاجتماعي . إنها لا تتجه مطلقاً ضد أسس النظام البرجوازي ، ضد اقتصاد السلعة ، ضد رأس المال ، بل تتجه ، على العكس ، ضد العلاقات القديمة ، الاقطاعية ، ما قبل الرأسمالية في القرية ، ضد الملكية الاقطاعية للأرض ، باعتبارها السند الرئيسي لمختلف بقايا الاقطاعية . لذلك ، فإن انتصاراً تاماً لحركة فلاحية ما لن يبعد الرأسمالية ، بل يخلق أرضية أوسع لتطورها ، ويسرع في التطور الرأسمالي الخالص ويصعده . إن ما يستطيع انتصار تام لانتفاضة فلاحية أن يفعله هو إقامة حصن لجمهورية برجوازية ديمقراطية ، يتطور فيها ، لأول مرة ، صراع البروليتاريا ضد البرجوازية بكل نقائه .

هاتان هما النظرتان المتعارضتان ، اللتان يتوجب فهمهما على كل من يرغب تبيين الهوية المبدئية القائمة بين الاشتراكيين الثوريين والاشتراكيين الديمقراطيين . . .

طبع في ٧/٢/١٩٠٥

ج ١٢ ، ٤٠ - ٤٢

من مقال

« بليخانوف وفاسيليوف »

... فاسيليوف منشفيكي بارز عمل مع المناشفة . ولم يعمل مع
مناشفة نكرات في بقعة نائية منسية ، بل عمل مع أبرزهم ممن يحملون أكبر
المسؤوليات. لذلك لا يحق للمناشفة أن ينظروا إليه نظرة عدم اكتراث واستهانة.
ويستشهد فاسيليوف هذا بليخانوف مباشرة ، لابل يعتمد عليه صراحة ،
فيسمي الاقتراح الذي نشره بليخانوف في صحافة الكاديت (وهو الاقتراح الذي
يعيب الحزب الاشتراكي الديمقراطي) ، ودعا فيه الى ايجاد برنامج مشترك مع
الكاديت « استجابة شجاعة » ، ويأسف لأنه « لا يوجد في الأحزاب الأخرى
أمثال بليخانوف » .

ما عند فاسيليوف من الغيرة كثير ، أما ما عنده من الذكاء فقليل . أراد
أن يمدح بليخانوف فلم يجد ما يقوله في مدحه سوى « أنه لا يوجد في الأحزاب
الأخرى مع الأسف « بليخانوفيون » . هذا رائع جداً ! يا لفاسيليوف الطيب !
لقد كان المبادر الى استعمال كلمة بليخانوف في الجمع دلالة على امم عام ، بمعنى
السياسين الذين يعملون بمفردهم وبشكل مستقل عن أحزابهم . وعلى الأرجح
سيقول الناس منذ الآن : بليخانوف في بالمعنى الفاسيليوفي لهذه الكلمة ، ...
ان أمثال فاسيليوف يضعون النقاط على الحروف وهم يرتبون على كتف
أمثال بليخانوف . لقد تحدث واضعو « الكريدو (٤٥) » ، عام ١٨٩٩ ، وهم

السادة من أمثال بروكوبفيتش وشركاه ، عن حركة عمالية صرف بدون بروليتاريا
ثورية . ويتحدث أمثال فاسيليوف الآن عن ثورة يتوجب عليها أن تلده «الدستور» ،
تلده وحسب ، دون أي مولدين ، دون ثوار . غياب المولدين ، غياب الثوار ،
غياب الشعب الثوري - هذا هو شعار فاسيليوف .

لقد هزىء شيدين في زمانه من فرنسا التي أعدمت ثوار الكومونة، فرنسا
المصرفين الزاحفين على بطونهم تذللًا أمام الطغاة الروس ، من فرنسا ، جمهورية
بدون جمهوريين (٤٦) . لقد آن الأوان ليولد شيدين جديد يسخر من
فاسيليوف والمناشفة الذين يدافعون عن الثورة بشعار « غياب ، الثوار ، غياب »
لثورة . . .

طبع في ٧ / ٢ ١٩٠٧

ج ١٤ ص ٢٣٧

* * *

من مقال

« عندما تسمع حكم الغبي ... »

... مأساة الراديكالي الروسي أنه ظل عشرات السنين يتعطش الى الاجتماعات العامة والى الحرية ، ويلتهب شوقاً محمواً (بالكلام) الى الحرية ، ثم وجد نفسه في الاجتماع العام ورأى أن المزاج هنا اكثر يسارية من مزاجه فحزن وقال : « من العسير أن نحكم .. » ، « لا أكثر من العشر » ، « كان يجب أن تكونوا اكثر حذراً ايها السادة ! » ، تماماً كبطل تورغنيف المندفع الذي هرب من آسيا - والذي كتب عنه تشرنيشفسكي مقالته « الانسان الروسي على موعد(*) »
Rendez - vous « (٤٧).

آه منكم ، أنتم الذين تدعون أنكم من انصار الجماهير الكادحة ! من أين لكم أن تضربوا موعداً مع الثورة . هـلاً قبعتم في بيوتكم ، فهذا أبعث على الطمأنينة ، لأنه لن تسنح لكم الفرصة لأن تتعاملوا مع هؤلاء الناس الخطرين « الأكثر منكم حيوية ونشاطاً وحركة » ! لن تكونوا إلا أناساً تافهين لا حياة فيكم ...

طبع في كانون ثاني ١٩٠٧

ج ١٤ ص ٢٨٠

(*) بالافرنسية في الأصل .

من أي زاوية انتقد ن. غ. تشرنشفسكي الكنطية

إضافة الى المقطع الأول من الفصل الرابع من كتاب

« المادة والتجريبية الانتقادية »

أظهرنا بالتفصيل في المقطع الأول من الفصل الرابع ، أن الماديين انتقدوا كنط وينتقدونه من زاوية تتناقض تماماً والزاوية التي ينتقده منها ماخ وأفيناريوس . وليس من نافل القول ، كما نعتقد ، أن نشير هنا الى الموقف المعرفي الذي اتخذته الهيغلي والمادي الروسي العظيم ن. غ. تشرنشفسكي .

بعد فترة قصيرة من نقد ألبرخت راو لكنط (وراو أحد تلامذة فيورباخ الألمانين) حاول الكاتب الروسي العظيم ن. غ. تشرنشفسكي (وهو أيضاً من تلامذة فيورباخ) أن يعرض موقفه مباشرة من فيورباخ وكنط معاً . فقد بدأ ن. غ. تشرنشفسكي بدخل ميدان الأدب الروسي في الخمسينات من القرن الماضي نصيراً لفيورباخ . لكن رقابتنا لم تسمح له بمجرد ذكر اسم فيورباخ .

وقد حاول ن. غ. تشرنشفسكي عام ١٨٨٨ أن يشير بصراحة الى فيورباخ في مقدمة الطبعة الثالثة من كتابه « علاقات الفن الجمالية بالواقع » الذي كان يعد للنشر ، لكن الرقابة لم تسمح له هذا العام أيضاً حتى بمجرد الاستشهاد بفيورباخ . ولم تنشر المقدمة إلا في عام ١٩٠٦ ، وفيها يكرس ن. غ. تشرنشفسكي نصف صفحة لنقد كنط والمجربين الطبيعيين الذي يسرون باستنتاجاتهم الفلسفية . وراء كنط .

اليسكم هذه المحاكمة الرائعة من ن. غ. تشرنيشفسكي عام ١٨٨٨ :

« أولئك الطبيعيون الذين يتوهمون أنفسهم بناء نظريات شاملة ، ليسوا في الواقع إلا تلامذة ، وتلامذة ضعافاً على وجه العموم ، لمفكرين أقدمين أنشأوا نظماً ميتافيزيكية ، ولمفكرين قوض شلينغ جزئياً ، وهيجل نهائياً نظمهم . ويكفي أن نذكر أن غالبية المفكرين الذين يحاولون أن يبنوا نظريات واسعة عن قوانين نشاط الفكر الانساني يكررون نظرية كنت الميتافيزيكية عن ذاتية معرفتنا » ... (نقول ، وهذا لحساب الماخيين الروس الذين يخلطون الحابل بالنابل : إن تشرنيشفسكي يتأخر عن انفاز من حيث أنه يخلط في تعابيره بين معارضة المادية بالمثالية ، وبين معارضة التفكير الميتافيزيكي بالتفكير الديالكتيكي ، لكن تشرنيشفسكي يقف في مستوى واحد مع انفاز حين يأخذ على كنت لا واقعته ، بل لا أدريته وذاتيته ، لا تسليمه بوجود « الشيء في ذاته » ، بل عدم قدرته على أن يستخلص معرفتنا من هذا المصدر الموضوعي) ... « ويقولون ، نقلأ عن كنت ، إن أشكال ادراكنا الحسي لا تشبه أشكال الوجود الواقعي للأشياء » ، ... (نقول ، وهذا لحساب الماخيين الروس الذين يخلطون الحابل بالنابل ، ان نقد تشرنيشفسكي لكنت ، ونقد فينابر وس وماخ وأصحاب نظرية التداخل له ، هما على طرفي نقيض ، لأن أشكال الادراك الحسي ، بالنسبة لتشرنيشفسكي ولأي مادي آخر ، تشبه أشكال الوجود الواقعي أي الموضوعي للأشياء) ... « ولهذا فان الأشياء الموجودة فعلاً ، وصفاتها الفعلية ، والعلاقات الفعلية فيما بينها ، غير قابلة للمعرفة بالنسبة لنا » ... (نقول ، وهذا أيضاً لحساب الماخيين الروس الذين يخلطون الحابل بالنابل ، ان الاشياء أي « الاشياء في ذاتها » (بلغة كنت المزوقة) ، توجد واقعياً في رأي تشرنيشفسكي أو اي مادي آخر ، ويمكن معرفتها تماماً ، كما يمكن معرفتها في وجودها ، وفي صفاتها ، وفي علاقتها الواقعية) ... ولو أنها (الاشياء) كانت قابلة لأن تُعرف ، لما أمكنها أن تكون موضوع تفكيرنا الذي يضع المعارف كلها في أشكال تختلف تماماً عن

اشكال وجودها الواقعي ، وانه حتى قوانين التفكير نفسها ليس لها إلا قيمة ذاتية فقط ،... (نقول ، وهذا لحساب الماخين المضلين : ليس لقوانين التفكير ، بالنسبة لشرنشفسكي كما لأي مادي آخر ، قيمة ذاتية ، قيمة ذاتية فقط ، أي ان قوانين الفكر تعكس اشكال الوجود الواقعي للأشياء ، وتتشابه تماماً مع هذه الاشكال ولا تختلف عنها) » وأنه لا يوجد في الواقع ما يمثل علاقة سبب بفعل ، لانه لا يوجد ما هو سابق أو ما هو لاحق ، لا يوجد كل ولا أجزاء الخ الخ الخ ،... (وللمعلومات الماخين المضلين نقول : أن ما يبدو لنا علاقة سبب بفعل هو ، بالنسبة لشرنشفسكي كما لأي مادي آخر ، سببية موضوعية او ضرورة تفرضها الطبيعة) . . . » وعندما يكف الطبيعيون عن التفوه بهذا الهراء الميتافيزيكي أو بما يشبهه ، يصبحون أهلاً لأن ينشئوا وسينشئون على الأرجح ، وعلى أساس العلوم الطبيعية ، مفاهيم أدق وأكثر من تلك التي عرضها فيورباخ . . (وللمعلومات الماخين المضلين نقول ان شرنشفسكي يسمي أي تراجع عن المادية ، الى جهة المثالية والى جهة اللادرية على حد سواء ، هراء ميتافيزيكياً) . . » ويبقى عرض فيورباخ للمفاهيم العلمية عما يسمى بالمسائل الأساسية المتعلقة بحج المعرفة في الانسان أفضل عرض حتى الآن . ان ما يسميه شرنشفسكي بحج المعرفة في الانسان هو ما نسميه بلغتنا المعاصرة المسائل الأساسية في نظرية المعرفة . فشرنشفسكي هو الكاتب الروسي الوحيد ، العظيم فعلاً ، الذي استطاع منذ الخمسينات وحتى عام ١٨٨٨ ، أن يظل في مستوى المادية الفلسفية المتسكاملة وأن ينبذ الهراء السخيف للكتطين الجدد والوضعيين والماخين وسواهم من المضلين . لكنه لم يرق ، أو قل لم يستطع أن يرقى ، الى مستوى مادية ماركس وانغلز التاريخية بحكم تأخر الحياة الروسية .

آذار عام ١٩٠٩

ج ١٨ ص ٣٨٩ - ٣٨٤

الدقاتر الفلسفية

من ملخص كتاب فيورباخ « محاضرات في ماهية الدين »

ممتع الرد على ناقد (فيورباخ) الاستاذ فون شاون وشالير

... « فانا أضع ، بكل تحديد ، الطبيعة مكان	ملاحظة
الوجود، والانسان مكان التفكير ، أي لا أضع المجرد بل	« الوجود والطبيعة »
المشخص – النفسية الدراماتيكية (*)	« التفكير والانسان »

إن عبارة فيورباخ وتشرنيشفسكي « المبدأ الانساني
(الانتروبولوجي) ، في الفلسفة ضيقة لهذا السبب . وما
المبدأ الانساني. هذا والطبيعة إلاّ وصفان ضعيفان وغير
دقيقين للمادية .

حوالي عام ١٩٠٩ ج ٢٩ ص ٦٣ - ٦٤

(*) die dramatische psychologie - هكذا وردت بالالمانية في النص الاصلي

من مقال

« في سبيل أي شيء نناضل ؟ »

... حركة كانون الأول عام ١٩٠٥ عظيمة لأنها حولت ، لأول مرة ،
« أمة ذليلة ، أمة عبيد » (كما كان يقول تشرنيشفسكي في أوائل الستينات) إلى
أمة قادرة أن تخوض بقيادة البروليتاريا الصراع حتى النهاية ضد الحكم الاستبدادي
الكريه وأن تجذب الجماهير إلى هذا الصراع. هذه الحركة عظيمة ، لأن البروليتاريا
أظهرت ، بالتجربة ، إمكانية استيلاء الجماهير الديمقراطية على السلطة ، إمكانية
قيام الجمهورية في روسيا ، أظهرت « كيف يُصنع هذا » ، أظهرت إقدام الجماهير
على تحقيق هذه المهمة تحقيقاً مشخفاً . لقد خلفت البروليتاريا للشعب بنضالها في
كانون الأول تراثاً يمكنه أن يصبح ، فكرياً وسياسياً ، هادياً لعمل أجيال متعددة .

٢٣ آذار ١٩١٠

ج ١٩ ، ص ٢١٤ - ٢١٥

ملاحظات علم كتاب بليخانوف

« ن. غ. تشرنيشفسكي »، (٤٨)

[٧٦] حضر تشرنيشفسكي ولادة نموذج جديد « من الناس الجدد »

عندنا . وقد ابرز هذا النموذج في شخص راخيتوف . لقد رحب

كاتبنا بظهور هذا النموذج الجديد ولم يستطع أن يحرم نفسه

متعة رسم صورة ولو غير واضحة له . وقد استشف بحزن ،

في الوقت نفسه ، الآلام والعذابات الكثيرة التي سيكون على

الثوري الروسي أن يعانيها ، هذا الثوري الذي يجب أن تكون

حياته نضالاً قاسياً ، ونكران ذات شاقاً . وها هو ذا

تشرنيشفسكي يربنا في راخيتوف زاهداً حقيقياً . فراخيتوف

يعذب نفسه قطعاً ...

— الثوري في

« سوسيال

ديمقراط »

رقم ١ ص ١٧٣

[١٩٩] إن موقف تشرنيشفسكي من هذه النظرية (*) عامة في غاية

السلبية . وهو لا ينفك يعتبر نفسه مادياً متأسكاً على الرغم من

أنه ينظر إلى مجرى التطور التاريخي نظرة مثالية . وهو مخطئ .

وجذور خطاه تكمن في أحد أكبر مثالب نظام فيورباخ

المادي . فقد لاحظ ماركس ملاحظة جيدة جداً وهي : « أن

فيورباخ يريد أن يتعامل مع أشياء مشخصة متميزة ، فعلاً، عن

(*) التالية (الناشر)

الاشياء الموجودة في افكارنا فقط ، لكنه لا يتوصل إلى النظر إلى النشاط الانساني ، بوصفه نشاطاً مادياً . ولهذا بالضبط يعتبر في كتابه « ماهية المسيحية » النشاط النظري وحده النشاط الانساني الحق (*)... ويؤكد تشيرنيسفسكي أيضاً كعمله ، اهتمامه على النشاط « النظري » للانسان تركيزاً يكاد يكون كلياً ، مما يجعل التطور العقلي ، في نظره ، اعنى اسباب الحركة التاريخية ...

وهذا هو أيضاً
عيب كتاب
بليخانوف عن
تشيرنيسفسكي

[٢٠٥] ينتج من كتابات تشيرنيسفسكي أن الرذيلة ، في التاريخ ، تستدعي دوماً العقاب الذي تستحقه . والوقائع التاريخية المعروفة لا تقدم لنا ، بالفعل ، أي أساس لهذه النظرة التي قد تسر ، لكنها تبقى ساذجة على أي حال . ولكن ما يهنا هنا سؤال واحد فقط : كيف كان لهذه النظرة أن تتشأ عند كاتبنا ؟ وللإجابة على هذا السؤال ، يمكن الإشارة إلى الفترة التي عاشها تشيرنيسفسكي . فقد كانت فترة صعود اجتماعي يمكن القول عنها إنها استدعت هذه النظرة الأخلاقية لتوطيد الإيمان بقهر الشر حتماً ...

[٢٤٢-٢٤٣] « عندما ندخل مجتمعاً ما نرى حولنا اناساً عليهم سترات أو ثياب رسمية أو غير رسمية ، طولهم خمس أو ست أقدام أو أكثر من ذلك ، يرسلون شعورهم على خدودهم أو متفتهم العليا أو ذقونهم أو يحلقونها ، نتخيل أن أمامنا رجالاً . هذا خطأ تام ، خداع بصر ، هلوسة لا أكثر . بدون التعود على المشاركة

(*) انظر موضوعاته عن فيورباخ ، وقد كتبت ربيع ١٨٤٥

الذاتية في القضايا العامة ، وبدون امتلاك شعور المواطنة ينسو
الطفل ويبقى كائناً ذكراً، ثم يصبح في منتصف العمر ثم كهلاً،
لكنه لن يصبح رجلاً، أو على الأقل لن يصبح رجلاً ذا خلق
كريم . إن نقص الرجولة الشريفة في المثقفين وذوي الصفات
الإنسانية أكثر بروزاً للعيان منه في الجبهة ، لأن المثقف وذا
الصفات الانسانية يحب التحدث في المسائل الهامة . انه يظل
يتكلم فيها باندفاع وبلاغة ، حتى يبدأ الانتقال من الكلام إلى
الافعال . مادام لم يحن وقت الافعال وما دام الأمر لا يتعدى
ترجية أوقات الفراغ ، أو ملء الرؤوس أو القلوب الكسولة
بأحاديث وأحلام ، فبطلنا جريء جداً . ولكن ما ان يتطلب
الأمر التعبير بصراحة ودقة عن أفكاره حتى ترى قسماً كبيراً
من ابطالنا يبدؤون بالتردد ، ويشعرون بتثاقل في لسانهم .
وقلة منهم ، وهي أشجعهم ، تستطيع أن تستجمع افكارها
بشكل أو بآخر ، وتعتبر لك بلسان متلعثم تعبيراً غائماً عن
افكارها : ولكن فليفكر أحدكم أن يأخذ برغبة هذه الفئة من
ابطالنا ويقول لهم : إنكم تريدون كذا وكذا ، ونحن
مسرورون جداً من ذلك ، باثروا العمل ونحن نساندكم .
سيغنى على نصف أشجع الابطال هؤلاء لدى سماعهم هذا الرد ،
وسأخذ الباقون بلومك بغلاظة لأنك وضعتهم في موقف حرج ،
ولأنهم لم يكونوا ينتظرون منك مثل هذه الاقتراحات ، وأنهم
يفقدون صوابهم نهائياً ، ولا يستطيعون أن يفكروا في شيء
على الإطلاق ، فهل من المعقول أن يتم الأمر بمثل هذه السرعة ؟

ثم إنهم شرفاء ، ومسالون علاوة على ذلك ، ولا يريدون أن يعرضوك للأذى . وهل من المعقول أن يهتم المرء بكل ما كان يتحدث عنه قتلاً للوقت ، وأن أفضل شيء

هو ألا يباشر المرء أي عمل لأنه لا يجلب الا وجع الرأس والمضايقات ولا ينتظر منه أي نتيجة حسنة لأنهم ، كما قالوا سابقاً ، لم يكونوا ينتظرون ولم .. الخ الخ .. .

وصف دقيق
موغاضب للبرالية
الروسية

يمكن القول إن هذه الصورة قد رسمتها يد فنان . لكن الفنان الذي رسمها ليس ناقدًا ؛ بل كاتبًا اجتماعيًا ..

[٣٣٠] « العوام » يقرؤون الصحف ولا يهتمون بالقضايا السياسية ولا

يؤثرون في مجراها . وستبقى الحال على ما هي عليه الآن ، ما دام وعيهم يغطى في سبات عميق . ولكن عندما يستيقظ وعيهم بتأثير الفصيلة الأممية للجيش التاريخي العامل المكونة

من «أفضل الناس» الذين تمثّلوا نتائج العلم الحديث ، سيفهمون عندئذٍ أن مهمتهم هي إعادة بناء المجتمع بناءً جذرياً وسيقبلون على هذا العمل الذي ليس له أي علاقة مباشرة

ملاحظة

بمسائل أشكال التنظيم السياسي . هذه هي نظرة تشرنيشفسكي السائدة في معظم كتاباته السياسية . وإذا كانت هذه النظرة المثالية في جوهرها إلى السياسة تحلّي المكان أحياناً لنظرة أخرى تبدو وكأنها نواة فهم مادي ، فليس هذا إلا استثناء يشبه تماماً ما صادفناه لدى دراستنا لنظرات تشرنيشفسكي التاريخية . ويذكر القارئ أن في هذه النظرات ، المثالية في جوهرها ، بذور نظرة مادية إلى التاريخ أيضاً . ولنوضح الآن بمثلين الطابع

الذي كان يجب أن تتخذه كتابات تشرنيشفسكي السياسية
بتأثير النظرة السائدة عنده إلى علاقة السياسة بالمهام الأساسية

؟

للطبقة العاملة

إن بإيخانوف، بتمييزه النظري بين النظرتين المثالية والمادية
إلى التاريخ ، اغفل الفرق السياسي العملي والطبقي بين
الليبرالي والديمقراطي .

كتب ما بين تشرين أول ١٩٠٩

ونيسان ١٩١١

ج ٢٩، صفحات ٥٤٠ - ٥٤٢،

٥٥٠ ، ٥٥٢ - ٥٥٣ ، ٥٥٩ - ٥٦٠

★ ★ ★

من مقال

« تصفويونا »

عن السيدين بوتريسوف و ف . بازاروف ^(٤٩)

... صلة التصفوية بالمزاج العام الضيق الأفق « للتعين » ظاهرة للعيان.
« فالتعبون » لا يهتمون بأعداد جواب دقيق يكون تقييماً اقتصادياً وسياسياً
للفترة الراهنة : فهم لا يعترفون دائماً بالتقييم المعطى سابقاً والمعترف به رسمياً
تقييماً باسم المجموع ، ولكنهم ، بالمقابل ، يخافون دائماً حتى مجرد التفكير في أن
يقدموا تقييهم الدقيق ، حتى ولو كان هذا التقييم تقييماً محرجياً « ناشأ زارياً »
و « جيزن » ^(٥٠) التصفويتين الخ .. ويؤكد « التعبون » : لم يعد للقديم
وجود ، القديم غير قابل للحياة ، القديم مات الخ .. لكنهم لا ينوون أن يكلفوا
أنفسهم عناء الرد رداً سياسياً خالصاً ، رداً مصاغاً بدقة على سؤال إلزامي
(لأي كاتب اجتماعي شريف) وهو : ماذا يجب علينا بالضبط أن نحل محل القديم ،
هل علينا أن نعتبر ما ليس عرضة للتصفية وكأنه قد صفي (حسب رأي
بوتريسوف) . لقد ظلوا يشتمون القديم ويدمونه منذ ثلاث سنوات ، وخصوصاً
من على خشبات مسارح مُنْع دخول المدافعين عن القديم إليها ، ثم يتعاقنون
بجنان مع امثال ايزغوييف ^(٥١) ويهتفون : يا لها من سخافات . ويا له من وهم الحديث
عن التصفوية !

(٥٠) انظر مقاله في « روسكاياميسل » عام ١٩١٠ عن بوتريسوف . ولن يتطهر
السيد بوتريسوف أبداً من آثار عنافه .

لا يمكننا أن نردد بشأن السيد بوتريسوف وشركاه الأبيات الشهيرة :
« إنهم لم يخونوا ، بل تعبوا من حمل صليهم ؛ تخلى عنهم روح الغضب والحزن في
منتصف الطريق » ، (٥١) .

إن أمثال هؤلاء « التعيين » الذين يظهرون على منصة الكتاب الاجتماعيين
ويبررون منها « تعبهم » من القديم ، وعدم رغبتهم في العمل على اصلاحه ليسوا ،
بالضبط ، أناساً تعيين فقط ، بل خونة .

كانوت ثاني ١٩١١

ج ٢٠ ، ص ١٢٣ - ١٢٤



«الإصلاح الزراعي، والثورة البروليتارية الفلاحية،

وأخيراً أقيمت الذكرى السنوية التي طالما نخوف منها حكم آل رومانوف وذاب شوقاً إليها الليبراليون الروس ، الطيبو القلب حتى البلادة . وقد أحييت الحكومة القيصرية الذكرى بأن روجت بين الشعب ، بقوة ، كرايس للمائة السود اصدها « النادي الوطني » ، مكرسة لهذه الذكرى ، وزادت من توقيف « المشتبه بهم » جميعاً ، ومنعت الاجتماعات حيث كان من الممكن أن تتوقع خطباً فيها شيء ولو يسير من الديمقراطية ، وفرضت غرامات على الصحف وخنقتها ، ولاحقت دور السينما « المشاغبة » ...

وأحيا الليبراليون الذكرى بأن ذرفوا من جديد دمعة على ضرورة « تاسع عشر من شباط » جديد (فيسينك اوروبا) وعبروا عن اخلاصهم (كانت صورة القيصر على الصفحة الاولى من « ريتش ») ، ثم تحدثوا عن انقباض قلوبهم كمواطنين ، عن عدم استقرار « الدستور » الوطني ، وعن « تحطم » سياسة ستولوبين الزراعية ، هذا التحطم « المهلك » للمبادئ الزراعية الأصلية « الخ الخ .. وأعلن نيقولا الثاني في مرسوم ملكي وجهه الى ستولوبين أن سياسة ستولوبين الزراعية ، أي نهب حفنة المستثمرين والكولاك والفلاحين الأغنياء أرض الفلاح الفقير ، ووضع القرية تحت تصرف الاقطاعيين انصار نظام القنانة ، تعتبر تتويجاً « للإصلاح العظيم » الذي تم في التاسع عشر من شباط عام ١٨٦١ .

وعلينا ان نقر أن نقولا الدموي ، وهو أول اقطاعي في روسيا ، اقرب الى الحقيقة التاريخية من ليبرالينا الطيبي القلب . فقد فهم الاقطاعي الاول وأم

نصير للقنانة ، أو الأخرى تعلم من دروس مجلس النبلاء الموحد ، حقيقة الصراع الطبقي القائلة ان « اصلاحات » ، يقوم بها أنصار القنانة ، لا يمكن الا أن تكون ذات صفة اقطاعية من حيث مضمونها ، ولا يمكن الا ان تُقَرَّن بنظام من مختلف اشكال القهر . ان الكاديت عندنا ، وليبراليينا بوجه عام ، يخافون حركة الجماهير الثورية ، الكفيلة وحدها بمحو الاقطاعيين وسلطتهم المطلقة في الدولة الروسية من على وجه الارض . وهذا الخوف بالذات يمنعهم من فهم حقيقة أنه ما لم يسقط الاقطاعيون ، فان اي اصلاحات — وعلى الأخص اصلاحات الزراعة — لا يمكن ان تكون الا بشكل اقطاعي ، وذات طابع وطريقة اجراء اقطاعيين . أما ان نخاف الثورة ونحلم بالاصلاح ، ثم نتباكى على ان « اصلاحات » تم بالفعل من قبل الاقطاعيين ، وعلى الطريقة الاقطاعية ، فهذا منتهى السفالة وقلة العقل . لقد كان نيقولا الثاني على قدر اكبر من الحق ، وقد علم الشعب الروسي ، بطريقة أفضل ، التبصر في اموره ، حين « عرض » ، بكل وضوح ، الاختيار بين « اصلاحات » يجريها الاقطاعيون أو ثورة شعبية تسقط الاقطاعيين .

لقد تم في التاسع عشر من شباط ١٨٦١ اصلاح زراعي ، يستطيع ليبراليونا أن يصغوه ويصوروه على أنه اصلاح « سلمي » لسبب واحد فقط ، هو أن الحوكة الثورية في روسيا كانت ضعيفة ضعفاً متناهياً آنذاك ، ولما يكن بين الطبقات المظلومة طبقة ثورية . ان مرسوم التاسع من تشرين الثاني عام ١٩٠٦ ، وقانون ١٤ حزيران عام ١٩١٠^(٥٢) ، لإصلاحان لها محتوى برجوازي كاصلاح عام ٦١ . إلا أن الليبراليين لا يستطيعون ان يصوروها إصلاحاً « سلمياً » ، ولا أن يبدأوا بتزيينها وصبغها بمثل تلك السهولة (مع أنهم قد بدأوا ذلك في « روسكيا ميسل » مثلاً) ، لأنه من الممكن نسيان ثوار عام ١٨٦١ ، الذين كانوا افراداً قلائل ، أما نسيان ثورة عام ١٩٠٥ فأمر غير ممكن . لقد ولدت في عام ١٩٠٥ طبقة ثورية في روسيا ، هي البروليتاريا ، استطاعت أن تستنهض الجماهير الفلاحية

الى العمل الثوري . وعندما تولد طبقة ثورية في بلد ما ، لا يمكن سحقها بأي ملاحظات . انها تستطيع ان تهلك بهلاك الأمة كلها فقط ، انها لا تستطيع أن تموت إلا بعد ان تلتصر .



ولنتذكر السمات الأساسية للإصلاح الزراعي عام ١٩١٧ . كان التحرير « الشهير » نهياً للفلاحين كأشد ما يكون النهب وقاحة ، ومجموعة من أعمال العنف وإهانة مستمرة لهم . لقد اقتطع من أراضي الفلاحين في المقاطعات ذات التربة السوداء ، بمناسبة هذا « التحرير » ، أكثر من الخمس ، لا بل ما يقارب الخمسين . وبمناسبة « التحرير » حددت أراضي الفلاحين ، وفصلت عن أراضي الاقطاعيين بشكل انتقل معها الفلاحون الى « الاراضي الرملية » ، بينما تداخلت فيها أراضي الاقطاعيين ، كالنصل ، ليسهل على النبلاء الشرفاء أن يستعبدوا الفلاحين ويؤجروهم الأرض بأسعار الربا الفاحش . وبمناسبة « التحرير » أجبر الفلاحون على « التعويض » عن أراضيهم وأخذ منهم ، فوق ذلك ، منها في حدود ضعفي ثمن الأرض الفعلي أو ثلاثة اضعافه . لقد أبقي عهد « اصلاحات » عام ١٨٦١ كله الفلاح فقيراً ، مسجوقاً ، جاهلاً وخاضعاً للاقطاعيين في القضاء والادارة والمدسة والزمستقا على حد سواء .

كان « الإصلاح العظيم » اصلاحاً اقطاعياً ، ولم يكن بوسعه إلا أن يكون كذلك ، لأن من قام به هم الاقطاعيون . فما هي القوة التي اجبرتهم على الإقدام على الإصلاح ؟ إنها قوة التطور الاقتصادي ، وقد جرت روسيا الى طريق الرأسمالية ، إذ لم يكن بوسع الاقطاعيين ان يمنعوا تبادل السلع بين روسيا وأوروبا ، ولم يكن بوسعهم الحفاظ على أشكال الاقتصاد القديمة المنهارة . لقد أظهرت حرب القرم تعفن روسيا الاقطاعية وعجزها ، واجبرت « حوادث

العصيان ، الفلاحى ، التى كانت تزاد مع كل عقد قبل التحرير الاقطاعى الأول ، اسكندر الثانى على الاعتراف بأن التحرير من فوق أفضل من انتظار الاسقاط من تحت .

كان « اصلاح الزراعى » اصلاحاً برجوازيأقام به الاقطاعيون، وخطوة فى تحويل روسيا الى ملكية برجوازية . كان محتواه برجوازيأ ، وبقدر ما كان يقل اقتطاع اراضي الفلاحين ، ويكتمل تحديدها بالنسبة لأراضي الاقطاعيين ، وتهبط قيمة التعويض على الاقطاعيين ، وبقدر ما كان فلاحو هذه المنطقة أو تلك ينظمون أمورهم بعيداً عن تأثير الاقطاعيين وضغوطهم ، كان هذا المحتوى البرجوازي يزاد وضوحاً وبروزاً ، إذ كان الفلاح يقع تحت سيطرة المال فى ظروف الانتاج السلمى ، ويخضع بالتالى لسيطرة رأس المال الناشئ ، بقدر ما كان يتخلص من سيطرة الاقطاعي . وقد كان تطور الرأسمالية فى روسيا ، بعد عام ١٨٦١ ، من السرعة ، بحيث تمت خلال عدة عقود تحولات اقتضت قروناً كاملة فى بعض بلدان أوروبا .

كان الصراع الشهير بين الاقطاعيين والليبراليين ، الذى كثيراً ما ضمه مؤرخونا الليبراليون والليبراليون الشعبيون وزينوه ، صراعاً داخل الطبقات المسيطرة ، وكان القسم الأعظم من هذا الصراع داخل طبقة الاقطاعيين . كان صراعاً يتعلق ، حصراً ، بشكل التنازلات وبمقدارها . وكان الليبراليون ، كالإقطاعيين تماماً ، الى جانب الاعتراف بملكية الاقطاعيين وسلطتهم ، يدينون بسخط أية أفكار ثورية تتعلق بالقضاء على هذه الملكية ، وباسقاط هذه السلطة اسقاطاً كاملاً .

ولم يكن لهذه الأفكار الثورية إلا ان تدور فى رؤوس الفلاحين الأبقان . واذا كانت قرون من العبودية قد سحقت الجماهير الفلاحية وأوهنتها ، حتى انها لم

تكن قادرة في عهد الإصلاح على شيء ، إلا على انتفاضات متفرقة قليلة ، أو حتى على « أعمال عصيان » لا يديرها أي وعي سياسي ، فقد كان في روسيا ، وحتى في ذلك الوقت ، ثوريون وقفوا الى جانب الفلاحين وفهموا الطابع الاقطاعي لهذا الإصلاح ، وكل ما فيه من ضيق أفق ومن بشاعة . وعلى رأس هؤلاء الثوار القليلين جداً آنذاك كان ن. غ. تشرنيسفسكي .

التاسع عشر من شباط عام ١٨٦١ يمثل بداية روسيا جديدة ، برجوازية تمت من عهد الاقطاع . ويمثل ليبراليو العقد السابع من القرن التاسع عشر وتشرنيسفسكي اتجاهين تاريخيين ، قوتين تاريخيتين تحدان ، منذ ذلك الوقت وحتى أيامنا هذه ، نتيجة النضال من أجل روسيا جديدة . ولهذا السبب يتوجب على البروليتاريا في الذكرى الخمسين للتاسع عشر من شباط ان تدرك ، بأقصى ما يمكن من الوضوح ، ماهية هذين الاتجاهين والعلاقة المتبادلة بينهما .

كان الليبراليون يريدون تحرير روسيا « من فوق » ، دون المساس بالقيصرية او بملكية الاقطاعيين للأرض او بسلطتهم ، بل بحشمتهم على القيام « بتنازلات » تتفق وروح العصر . لقد كان الليبراليون ، وظلوا ايدولوجي البرجوازية التي لا تستطيع ان تسلم الاقطاعية ، لكنها تخاف الثورة ، تخاف حركة الجماهير القادرة على اسقاط القيصرية والقضاء على سلطة الاقطاعيين . ولهذا السبب يكتفي الليبراليون « بالنضال من اجل الإصلاح » ، « بالنضال من اجل الحقوق » ، أي باقتسام السلطة بين الاقطاعيين والبرجوازية . ولا يمكن ، في مثل توازن القوى هذا ، ان نحصل من « الاصلاحات » الا على تلك التي يقوم بها الاقطاعيون ، ومن « الحقوق » الا على تلك التي يحدها تعسف الاقطاعيين .

كان تشرنيسفسكي اشتراكياً طوباوياً ، يحلم بالانتقال إلى الاشتراكية من خلال المشاعة الفلاحية القديمة النصف اقطاعية . فلم يرَ ، ولم يكن في وسعه أن

يرى في الستينات من القرن الماضي ، أن تطور الرأسمالية والبروليتاريا هو القادر وحده على خلق الشروط المادية والقوة الاجتماعية لتحقيق الاشتراكية . لكن تشرنيشفسكي لم يكن اشتراكياً طوباوياً وحسب ، بل ديمقراطياً ثورياً أيضاً ، عرف كيف يؤثر في أحداث عصره السياسية كلها بروح ثورية ، باناً فكرة الثورة الفلاحية ، فكرة نضال الجماهير في سبيل اسقاط مختلف اشكال السلطة القديمة ، على الرغم من تضيقات الرقابة وعراقيلها . فقد نعت بالسفالة إصلاح عام ٦١ الذي الذي زينه الليبراليون في البدء ثم مجدوه فيما بعد ، لأنه رأى بوضوح طابعه الاقطاعي ، ورأى بوضوح ايضاً السادة الليبراليين المحررين ، وهم يبنهون الفلاحين نهياً كاملاً . لقد دعا تشرنيشفسكي ليبرالي الستينات « ثوارين متبجحين وأغبياء »^(٥٣) لأنه كان يرى بوضوح خوفهم من الثورة ، وضعف إرادتهم وتزلفهم لأصحاب السلطة .

وقد تطور هذان الاتجاهان التاريخيان خلال الخمسين عاماً التي انقضت على التاسع عشر من شباط ، وازداد تباعدهما خلال ذلك حدة ووضوحاً وتجلياً . فقد نمت قوى البرجوازية الليبرالية الملكية ، التي كانت تدعو الى الاكتفاء بالعمل « الثقافي » والعدول من العمل الثوري السري . ونمت ، بالمقابل ، قوى الديمقراطية والاشتراكية موحدة بادىء ذي بدء في ايديولوجيا طوباوية وفي نضال المثقفين من النارودافولين (٥) والشعبين الثوريين ، ثم أخذت بالتباين منذ تسعينات القرن

(*) النارودافوليون هم جماعة لإرادة الشعب ، انشقت هذه الجماعة عن منظمة « زمليا اي فوليا » (الأرض والحرية) التي اسسها الشعبيون الثوريون في خريف عام ١٨٧٦ والتي حاولت استنهاض الفلاحين للانتفاض على القيصرية . سلك النارودافوليون طريق الارهاب ورأوا فيه الوسيلة الرئيسية للنضال الثوري ضد القيصرية عادلين بذلك عن العمل الثوري في اوساط الفلاحين .

الماضي تبعاً لمدى الانتقال من النضال الثوري الذي مارسه ادهايون ودعاة أفراد إلى نضال الطبقات الثورية نفسها .

ويرينا العقد السابق للثورة من ١٨٦٥ حتى ١٩٠٤ اعمالاً علنية نفذتها جماهير البروليتاريا ، وغماً متزايداً في صفوفها ، وغو النضال بشكل إضرابات ، وغو الحزب والتنظيم والتحرير الاشتراكي الديمقراطي العالمي . ثم بدأت طبقة الفلاحين الثوريين الديمقراطيين تدخل حلبة الصراع الجماهيري وراء الطليعة الاشتراكية للبروليتاريا خصوصاً منذ عام ١٩٠٢ .

وخلال ثورة ١٩٠٥ تطور هذان الاتجاهان ، اللذان بدأت خطوطهما العامة ترسم في الأدب ويصوران فيه منذ عام ١٨٦١ ، وغوا ووجدا تعبيرهما في حركة الجماهير ، وفي صراع الأحزاب في مختلف الميادين ، وفي الصحافة والاجتماعات العامة والإضرابات والانتفاضات ومجالس الدوما .

لقد انشأت البرجوازية الليبرالية الملكية حزبين (الكاديت والأوكتوبرين) تعابشا في البدء في حركة ليبرالية زيمستفوية واحدة (حتى صيف عام ١٩٠٥) ، ثم استقرا حزبين مختلفين ينافس (ولا يزال ينافس) أحدهما الآخر بقوة ، ويقدم أحدهما وجهه الليبرالي في الدرجة الاولى ، بينما يقدم الآخر « وجهه » الملكي ، لكن الاثنين متفقان على الأمر الجوهرى والأهم ، وهو التنديد بالثوار ، وتوجيه الإهانات إلى انتفاضة كاثون الأول ، والركوع أمام ورقة التين الدستورية التي تستر الحكم المطلق ، وكأنها راية من الرايات . لقد وقف الحزبان ، ولا زالا يقفان ، على أرضية « دستورية صارمة » ، أي انها يكتفيان ، في نشاطهما ، بالاطر التي وضعها المائة السود الملكيون الاقطاعيون ، دون أن يفرطوا في شيء من سلطتها ودون ان يتخلوا عن الحكم المطلق ودون أن يضحيا بكوبيك واحد

من أرباح جنوبها منذ عهد العبودية وكرستها القرون ، أو بأي إمتياز من حقوقهم
« المكتسبة بشرف » .

أما الانجهاان الديمقراطي والاشتراكي فقد افترقا عن الاتجاه الليبرالي ،
ثم تميز أحدهما عن الآخر . كانت البروليتاريا تنظم نفسها وتعمل بمعزل عن طبقة
الفلاحين ، متراصة حول حزبي الاشتراكي الديمقراطي العالي . وكان الفلاحون
اثناء الثورة أضعف تنظيماً من البروليتاريا بما لا يقاس ، وأكثر منها تشتتاً وضعفاً
في انتفاضاتهم ، وادنى منها وعياً بدرجات . وكثيراً ما كانت الاوهام حول
الملكية (وما يرتبط عضوياً بها من أوهام حول الدستور) تشل طاقهم وتضعهم
موضع التبعية من الليبراليين ومن المائة السود أحياناً ، وتولد فيهم أحلاماً فارغة عن
« أرض الله » بدلاً من الهجوم على النبلاء أصحاب الاراضي بهدف القضاء على هذه
الطبقة قضاء تاماً . ومع هذا يمكن القول اجمالاً ان الفلاحين ، كجماهير ، ناضلوا
ضد الاقطاعيين بالضبط ، وكانوا يتصرفون ثورياً ، وانشأوا في مختلف الدومات
- وحتى في الدوما الثالثة التي شوه التمثيل فيها لصالح الاقطاعيين - لجان عمل تمثل
الديمقراطية الصحيحة على الرغم من تأرجحاتها المتواترة . لقد كان كل من الكاديت
وجماعات العمل بين عامي ١٩٠٥ - ١٩٠٧ التعبير السياسي عن مواقف واتجاهات
البرجوازية الليبرالية من جهة ، والبرجوازية الديمقراطية من جهة أخرى ، في
الحركة الجماهيرية الواحدة .

إن عام ١٨٦١ هو الذي ولد عام ١٩٠٥ . فالطابع الاقطاعي للإصلاح
البرجوازي الاول « العظيم » عرقل التطور وحكم على الفلاحين بالكثير من أمر
العذاب وأقساه ، لكنه لم يحول اتجاه التطور ، ولم يحل دون قيام ثورة ١٩٠٥ .
البرجوازية . لقد أجل إصلاح عام ٦١ حلول النهاية ، باعطائه فسحة محدودة
للرأسمالية كي تنمو ، لكنه لم يحل دون النهاية المحتومة التي انطلقت في مستوى
اوسع بكثير ، تمثل في هجوم الجماهير على استبداد القصر والاقطاعيين معاً . لقد

ولد الإصلاح، الذي قام به الاقطاعيون في فترة كانت فيها الجماهير المضطهدة في أدنى درجات التطور ، ولد الثورة عندما نضجت العناصر الثورية في قلب هذه الجماهير .

إن الدوما الثالث وسياسة ستوليبين الزراعية هما ثاني اصلاح برجوازي مجريه الاقطاعيون . فإذا كانت التاسع عشر من شباط عام ٦١ الخطوة الاولى في طريق تحويل الحكم المطلق الاقطاعي الخالص الى ملكية برجوازية ، فإن الفترة الممتدة ما بين عامي ١٩٠٨ - ١٩١٠ تشير الى خطوة ثانية ، أكثر جدية في الطريق نفسه . لقد مر ما يناهز أربع سنوات ونصف على اصدار مرسوم التاسع من تشرين الثاني عام ١٩٠٦ ، وأكثر من ثلاث سنوات ونصف على الثالث من حزيران عام ١٩٠٧ ، وها هي ذي البرجوازية الكاديتية ، لا وبل البرجوازية الاوكتوبرية ، تقتنع الآن « بعدم نجاح » « دستور » الثالث من حزيران ، وسياسة الثالث من حزيران الزراعية . وكان أشد الكاديت يمينية - كما كان يسمى السيد النصف او كتوبري ما كلاكوف حتى أمد قريب - محققاً كل الحق عندما قال في الدوما ، في الخامس والعشرين من شباط بامم الكاديت والاوكتوبريين معاً « إن عدم الرضى يسود الآن العناصر الرئيسية في البلد ، وهي التي تريد السلام أكثر من أي شيء آخر ونخشى من اندلاع موجة ثورية جديدة » . والشعار واحد إذ يتابع السيد ما كلاكوف قائلاً : « يقول الجميع انه إذا تابعنا السير على الطريق نفسها ، التي يقودوننا الآن فيها ، فسيوصلوننا الى ثورة ثانية » .

ومنذ مدة قريبة أعلن كويتب مأجور للحكومة القيصرية الايمانية اسمه مينشيكوف في « نوفوي فرميا » قائلاً ان إصلاح التاسع عشر من شباط « اخفق بشكل يدعو الى الرثاء » ، لأن « عام ٦١ لم يستطع أن يتدارك عام ١٩٠٥ » ، والآن يعلن محامو البرجوازية الليبرالية وبرلمانيوها المأجورون عن اخفاق « إصلاحات » ١٩٠٦ / ١١ / ٩ و ١٩٠٧ / ٦ / ٣ ، لأن هذه « الإصلاحات » تؤدي إلى ثورة ثانية .

ويقدم كلا التصريحين ، وتاريخ الحركة الليبرالية والثورية كله ، مادة هامة جداً لتوضيح مسألة خطيرة ، هي علاقة الإصلاح بالثورة ودور الإصلاحيين والثوريين في الصراع الاجتماعي .

يعترف اعداء الثورة ، بعضهم بمقد ، وبعضهم الآخر بمحزن وأسى ، أن إصلاحات اعوام ٨٦١ و ١٩٠٧ - ١٩١٠ فشلت ، لأنها لم تحل دون الثورة . وترد الاشتراكية الديمقراطية ، الممثلة للطبقة الثورية حتى النهاية في أيامنا ، على هذا الاعتراف بقولها : لقد لعب الثوريون دوراً تاريخياً عظيماً جداً في الصراع الاجتماعي وفي الأزمات الاجتماعية كلها ، حتى عندما انتهت هذه الأزمات مباشرة إلى إصلاحات وسطية فقط . إن الثوريين قادة تلك القوى الاجتماعية التي تخلق التحولات كلها ، وما الإصلاحات إلا نتاج ثانوي للنضال الثوري .

لقد كان ثوار عام ٨٦١ أفراداً ، وقد هزموا ، ظاهرياً ، هزيمة تامة . ولكنهم كانوا ، في الواقع ، رجالات ذلك العهد العظام . وبقد ما نبتعد عن تلك الفترة تتضح لنا عظمتهم ، وتتضح ، في الوقت نفسه ، ثقافة إصلاحي تلك الأيام الليبراليين وقبحهم .

لقد منبت الطبقة الثورية والبروليتاريا الاشتراكية بهزيمة تامة ظاهرياً بين عامي ١٩٠٥ و ١٩٠٧ ، وأصم المليون الليبراليون والتصفويون ممن يدعون الماركسية آذاننا بزعمي مفاده أن البروليتاريا الاشتراكية « تجاوزت الحدود » ، ووصلت « حد التطرف » ، وأنها أخذت « بالصراع الطبقي العفوي » ، وأنها علّلت النفس بفكرة مهلكة هي « قيادة البروليتاريا .. الخ ... لكن خطأ البروليتاريا ، الوحيد في الواقع ، هو أنها لم تتجاوز الحدود بما فيه الكفاية . ويبرر خطأها هذا وضع القوى آنذاك ، ويغفر لها عملها الاشتراكي الديمقراطي الثوري المستمر ، حتى في فترات الرجعية الأشد سواداً ، ونضالها الذي لا يلين ضد كافة

مظاهر الإصلاحية والانتهازية . فكل ما انتزع من الأعداء ، وكل ما توطد من انجازات ، انتزع وتوطد بالفعل ، بقدر ما كان نضال البروليتاريا الثوري قوياً وحياً في مختلف المجالات فقط . وبالفعل ، كانت البروليتاريا الوحيدة التي دافعت حتى النهاية عن الديمقراطية المتأسكة ، وهي تعرتي تذبذب الليبرالية ، وتنتزع الفلاحين من دائرة تأثيرها ، ثم وهي تهب بجرأة بطولية إلى الثورة المسلحة .

ليس في وسع أحد أن يتنبأ بالمدى الذي ستتحقق به التحولات الديمقراطية حقاً في روسيا في فترة ثورتها البرجوازية ، لكن لا يوجد ظل من شك في أن نضال البروليتاريا الثوري سيحدد وحده درجة هذه التحولات ونجاحها . ولا يمكن أن يكون بين « الإصلاحات » الاقطاعية التي تجري بروح برجوازية وبين الثورة الديمقراطية بقيادة البروليتاريا ، إلا تأرجحات الليبرالية والإصلاحية الانتهازية العاجزة ، غير المستقرة ، الفارغة .

ولا يسعنا ، ونحن نلقي نظرة عامة على تاريخ روسيا في نصف القرن الأخير وعلى عامي ١٨٦١ و ١٩٠٥ ، إلا أن نردّد بقناعة أكبر الكلمات الواردة في قرار حزبنا بأن « هدف نضالنا هو ، كما في السابق ، اسقاط القيصرية ، واستيلاء البروليتاريا على السلطة السياسية معتمدة في ذلك على الفئات الثورية من الفلاحين ، والقيام بانقلاب برجوازي ديمقراطي عن طريق دعوة جمعية عامة تأسيسية وإقامة جمهورية ديمقراطية .

طبع في ١٩ آذار ١٩١١

ج ٢٠ ، ص ١٧١ - ١٨٠

في ذكرى محمد غرغرين

مر مائة عام على مولد غرغرين . وفي هذا اليوم تكرم روسيا الليبرالية ذكراه وهي تتحاشى ، بعناية ، المسائل الجدية المتعلقة بالاشتراكية ، وتخفي ، بعناية ، الفرق بين غرغرين الثائر و غرغرين الليبرالي . كما تذكره الصحافة اليمينية مؤكدة ، زوراً وبهتاناً ، انه تخلى عن الثورة في آخر ايامه . وتسيطر الكلمات الجوفاء على كل ما يقوله الليبراليون والشعبيون المغتربون في غرغرين .

من واجب الحزب العالمي أن يحتفل بذكرى غرغرين ، لا بقصد التبجيل التافه ، بل ليتبين مهامه ، ويتبين المركز التاريخي الحقيقي لهذا الكاتب الذي لعب دوراً عظيماً في التمهيد للثورة الروسية .

كان غرغرين ينتمي إلى جيل الثوريين النبلاء الاقطاعيين في النصف الأول من القرن الماضي . وقد اعطى النبلاء روسيا الكثير من امثال بيرونوف واركتشيف وعدداً لا يحصى من « الضباط السكيرين والمعربدين والمقامرين وابطال المعارض ومراقبي كلاب الصيد والمشاكسين والجلادين ورجال الحريم وطبيي القلب من امثال مايلوف » . يقول غرغرين : « لقد نما بين هؤلاء رجال ١٤ كانون الأول ، كتيبة ابطال رضعوا ، كرومول وريم ، حليب الحيوان البرقي ... منهم عمالقة صَبَّوا من فولاذ نقي من اعلى الرأس حتى اخمص القدم ، ورفاق سلاح خرجوا بوعي إلى الهلاك المحقق لينهوا الجيل الطالع إلى الحياة الجديدة ، ويطهروا الاطفال الذين ولدوا في وسط الجلادين وتجار الرقيق » (٥٤) .

وكان غرتسن من عداد هؤلاء. فقد ايقظته ثورة كانون الاول «وطهرته»، فاستطاع ، وهو الذي عاش في روسيا الاقطاعية في اربعينات القرن التاسع عشر، ان يرقى الى مستوى جعله يقف على قدم المساواة مع كبار مفكري عصره. فقد تمثل دياكتيك هيجل وفهم انه يمثل «جبر الثورة» ، وتجاوز هيجل الى المادية مقتفياً اثر فيورباخ . وأولى «رسائله في دراسة الطبيعة» - «التجربة والمثالية» - التي كتبت عام ١٨٤٤ تظهره لنا مفكراً ارفع بكثير ، وحتى الآن ، من العديد من التجريبيين الطبيعيين المعاصرين ، والعديد من الفلاسفة الحاليين المثاليين وانصاف المثاليين . لقد اقترب جداً من المادية الديالكتيكية وتوقف امام المادية التاريخية .

هذا «التوقف» هو الذي سبب سقوطه الروحي بعد فشل ثورة عام ١٨٤٨ . كان غرتسن قد غادر روسيا ، واخذ يراقب هذه الثورة مباشرة . كان في ذلك ديمقراطياً ، ثورياً ، اشتراكياً . لكن «اشتراكيته» كانت احد اشكال وانواع الاشتراكية البرجوازية ، والبرجوازية الصغيرة ، التي لم يكن لها حصر في فترة عام ٤٨ ، والتي قضت ايام حزينان عليها نهائياً . وفي الحقيقة ، لم تكن هذه الاشتراكيات اشتراكية ابداء، بل كلمات معسولة واحلاما خيرة خلعتها الديمقراطية البرجوازية على ثورتها آنذاك ، كما لجأت اليها البروليتاريا التي لم تتحرر من تأثير هذه الديمقراطية .

كان سقوط غرتسن الروحي، وربيبته ونشاؤه العميقان بعد عام ١٨٤٨ ، انهياراً للاوهام البرجوازية حول الاشتراكية . فمأساة غرتسن الروحية ولادة تلك الفترة التاريخية العالمية ، حين بدأت ثورة الديمقراطية البرجوازية تتلاشى (في اوروبا) ، في حين ان ثورة البروليتاريا الاشتراكية لمّا تنضج بعد ، وتعبير عن تلك الفترة نفسها . وهذا ما لم يفهمه ، ولم يستطع فهمه ، فرسان العهر الكلامي الليبرالي الروسي ، الذين يسترون الآن مناهضتهم للثورة بمجل منمقة عن ريبية

غرتسن . ان الرابية بالنسبة لهؤلاء الفرسان ، الذين خاضوا الثورة الروسية عام ١٩٠٥ ، ونسوا حتى مجرد التفكير في صفته كثوري ، هي شكل انتقالهم من الديمقراطية الى الليبرالية ، هذه الليبرالية المداهنة ، السافلة ، القنطرة والوحشية ، التي اطلقت النار على العمال في عام ٤٨ ، واعادت العروش المقنطرة ، وصفت لنابليون الثالث ، ولعنها غرتسن دون ان يستطيع فهم طبيعتها الطبقية .

أما الرابية فكانت ، بالنسبة لغرتسن ، شكل انتقال من أوهايم الديمقراطية البرجوازية ، « الفوق طبقية » ، الى نضال البروليتاريا الطبقي المبرر ، الذي لا يلين ولا يمكن قهره . والبرهان على ذلك هي « رسائل رفيق قديم » (أى باكونين) التي كتبها غرتسن عام ١٨٦٩ ، أي قبل عام من وفاته ، وفيها يقطع صلته بالفوضوي باكونين . صحيح أن غرتسن لا يزال يرى في هذا الانفصال مجرد خلاف في التكتيك ، وليس هوة تفصل بين نظرية البروليتاري المؤمن بانتصار طبقته ونظرية البرجوازي الصغير اليائس من الخلاص . صحيح أن غرتسن يكررها ، من جديد ، تعابير ديمقراطية برجوازية قديمة مؤداها أن على الاشتراكية أن تأتي عن طريق « الوعظ الموجه بقدر متساو الى العامل وصاحب العمل ، الى الفلاح وصاحب الأرض » . لكن غرتسن ، وهو يقطع علاقته بباكونين ، يشخص بأبصاره ، على الرغم من هذا كله ، لا الى الليبرالية بل الى الاممية ، الى الأمية التي كان يقودها ماركس - الى الاممية التي بدأت « تجمع فياتق » البروليتاريا ، وتوحد « عالم العمل » ، الذي يتخلى عن عالم المتفعين دون أن يعملوا ، (٥٥) .

* * *

وإذا كان غرتسن لم يفهم الماهية البرجوازية الديمقراطية لحركة ١٨٤٨ كلها ، ولتختلف أشكال الاشتراكية السابقة للماركسية ، فبالأحرى ألا يستطيع ان يفهم الطبيعة البرجوازية للثورة الروسية . غرتسن هو مؤسس الاشتراكية

« الروسية » ، اي « الشعبية » ، إذ كان يرى أن « الاشتراكية » تقوم في تحرير الفلاحين مع ارضهم ، وفي مشاعية الأرض ، وفي الفكرة الفلاحية عن « الحق في الأرض » . وقد عرض غرتسن افكاره الأثرية على نفسه حول هذا الموضوع مراراً كثيرة جداً .

والواقع أنه لا يوجد في تعاليم غرتسن هذه ، كما في الشعبية الروسية كلها ، بما فيها شعبية « الاشتراكيين الثوريين » ، الحاليين التي بهت لونها ، مقدار ذرة واحدة من الاشتراكية . وهي ليست الا كلمات معسولة وأحلاماً خيرة تعبر ، كالأشكال المختلفة « لاشتراكية عام ١٨٤٨ » ، في الغرب ، عن ثورية الديمقراطية الفلاحية البرجوازية في روسيا . فبقدر ما كان الفلاحون يحصلون على أرض اكبر عام ١٨٦١ ، وبقدر ما كان ثمنها أرهد ، كانت سلطة الاقطاعيين تقوض بسرعة اكبر ، وكان تطور الرأسمالية في روسيا يتم بحرية واتساع اكبر . فليست فكرة « الحق في الارض » ، والتقسيم المتساوي للأرض ، الا التعبير عن نزوع الفلاحين الثوري إلى المساواة ، هؤلاء الفلاحين الذين يناضلون في سبيل اسقاط السلطة الاقطاعية اسقاطاً تاماً والقضاء قضاء مبرماً على ملكية الاقطاعيين للارض .

وقد برهنت ثورة ١٩٠٥ تماماً على هذا ! فمن جهة تقدمت البروليتاريا النضال الثوري مستقلة تماماً ، وأنشأت الحزب الاشتراكي الديمقراطي العمالي ، ومن جهة أخرى بقي الفلاحون الثوريون (جماعات العمل ، « والاتحاد الفلاحي »)^(٥٦) ، وهم يكافحون من اجل القضاء على مختلف أشكال الملكية الاقطاعية للارض وحتى على « الغاء الملكية الخاصة للأرض » ، يناضلون بصفتهم ملاكاً ، بصفتهم اصحاب اعمال صغاراً . ولا تستهدف المناقشات الكلامية الفارغة الدائرة اليوم حول « اشتراكية الحق في الارض الخ .. إلا تعمية مسألة تاريخية جدية وهامة حقاً ، وإخفاءها وهي : اختلاف مصالح البرجوازية الليبرالية والفلاحين الثوريين داخل الثورة .

الروسية البرجوازية ، وبعبارة اخرى ، مسألة الاتجاهين الليبرالي والديمقراطي ، « التوفيقى » (الملكى) والجمهورى فى هذه الثورة . وقد طرح غرتسن فى « الكولو كول » ، هذه المسألة بالضبط ، اذا ما نظرنا إلى جوهر القضية لا إلى الكلمات الجوفاء ، اذا ما بحثنا فى الصراع الطبقي على انه اساس « النظريات » ، والتعاليم ، وليس العكس .

لقد انشأ غرتسن صحافة روسية حرة فى الخارج — وفى هذا فضله العظيم . لقد بعثت « بوليارنايا زفيزدا »^(٥٧) تقاليد الديسمبريين ، ودافعت « الكولو كول » بكل عزم عن تحرير الفلاحين . لقد خرق الصمت ، صمت العبيد .

لكن غرتسن كان ينتمى الى وسط الاقطاعيين النبلاء ، وكان قد غادر روسيا عام ١٨٤٧ ، فلم ير الشعب الثورى ، ولم يكن فى مقدوره الايمان به . ومن هنا نداؤه الليبرالى الى « المقامات العليا » ، ومن هنا رسائله العديدة المعسولة فى « الكولو كول » الى الاسكندر الثانى ، ناصب المشائق ، وهى رسائل لا يمكننا قراءتها الآن بدون اسمئزاز . ولقد كان تشرنيشفسكى ودوبر الوبوف وسيرنوسالوف وقتش ، الذين يمثلون الجيل الجديد من الثوريين ذوي المنبت الشعبى ، محقين الف مرة عندما لاموا غرتسن على تراجعهم عن الديمقراطية نحو الليبرالية . ويقتضى العدل منا ان نقول ان الديمقراطى فى غرتسن كان يتغلب على الليبرالى فيه ، على الرغم من كل ذبذباته بين الديمقراطية والليبرالية .

فعندما ثار كافلين ، وهو أحد اشد نماذج النذالة الليبرالية اثاره للاشمئزاز (وكان شديد الاعجاب « بالكولو كول » لاتجاهاتها الليبرالية) ، على وضع الدستور ، وهاجم التحريض الثورى ، واحتج على « العنف » والدعوة اليه ، واخذ يبشر بالصبر ، قطع غرتسن علاقته بهذا الحكيم الليبرالى ثم هاجم مقالته « المجانية السقيمة والسخيفة والضارة » التى كتبها « بقصد توجيه الحكومة التى

أخذت تتبع سياسة ليبرالية من طرف خفي ، كما هاجم « مواظله السياسية العاطفية » التي كانت تصور « الشعب الروسي قطعاً من الحيوانات ، والحكومة ذكية متبصرة » .

وقد نشرت « الكولو كول » مقالة بعنوان « تأبين » ، عنت فيها « الاساتذة الذين ينسجون من افكارهم الصغيرة المتعالية خيوط عنكبوت نتنه ، والاساتذة السابقين الذين كانوا في وقت ما سليمي القلب ثم امتلأت نفوسهم حقداً ، وهم يرون ان الشيبة المعافاة لا تستطيع ان تتعاطف مع فكرهم المريض » . وقد عرف كافيلين فوراً نفسه في هذه الصورة .

وعندما القي القبض على تشرنيشفسكي كتب كافيلين ، هذا الليبرالي السافل ، يقول : « لا يبدو لي أن هذه الاعتقالات تثير الاستياء... فالحزب الثوري يعتبر كافة الوسائل التي تؤول الى اسقاط الحكومة حسنة ، والحكومة تدافع عن نفسها بوسائلها » . وكان غرتسن يرد على هذا الكاديت بالذات ، عندما تحدث عن محاكمة تشرنيشفسكي : « هناك أناس ذليون ، أناس في ضعة عشب الأرض ، أناس حقيرون يقولون إنه لا يجب لوم هذه العصاة من قطاع الطرق والأنذال التي تحكمنا » (٥٨) .

وعندما وجه الليبرالي تورغنيف رسالة خاصة الى الاسكندر الثاني يؤكده فيها إخلاصه ، ثم ضحى بقطعتين من الذهب في سبيل الجنود الذين جرحوا وهم يقيمون انتفاضة البولونيين ، كتبت « الكولو كول » ، تتحدث عن المجدلية ذات الشعر الأشيب (التي تنتمي الى الذكور) ، التي كتبت الى القيصر تقول له إنها لم تعد تذوق طعم النوم ، وهي تتألم لأن القيصر لم يعرف بعد بتوبتها (٥٩) . وعرف تورغنيف نفسه فوراً .

وعندما انقضت جماعة الليبراليين الروس من حول غرتسن لدفاعه عن بولونيا ، واعرض « المجتمع المثقف » عن « الكولوكول » ، لم يتكدر ، بل تابع دفاعه عن حرية بولونيا وتنديده بالجلادين والقامعين وناصبي المشائق من أتباع الاسكندر الثاني ، فأخذ شرف الديمقراطية الروسية . وقد كتب الى تورغيف يقول : « انقذنا شرف الاسم الروسي ، وعانينا في سبيل ذلك من عبودية الأكثرية » (٦٠) .

وعندما انتشر خبر مصرع اقطاعي على يد قنّ ثاراً لاعتداء الاقطاعي على خطيبته ، كتب غرتسن في « الكولوكول » معلقاً : « قام بعمل ممتاز ! » . وعندما وصل الى علمه أن السلطات تعين قادة عسكريين « من أجل التحرير الهادي » ، كتب غرتسن يقول : « إن أول عقيد ذكي ينضم بكتيبته الى الفلاحين سيتربع على عرش آل رومانوف بدلاً من ان يخنق الفلاحين » . وحين انتحر العقيد ريتون في فرصوفيا باطلاق الرصاص على نفسه كي لا يكون مساعداً للجلادين ، كتب غرتسن قائلاً : « إذا كان لا بد من اطلاق الرصاص ، فيجب إطلاقه على اولئك الجنرالات الذين يأمرّون باطلاقه على العزّل » . وعندما قتل (٥٠) خمسون من الفلاحين في بيزدن ، وأعدم زعيمهم اتون بيتروف (٦١) (١٢ نيسان عام ١٨٦١) كتب غرتسن في « الكولوكول » ما يلي :

« آه ، لو كان بمقدور كلماتي أن تصلك يا كادح الأرض الروسية ومعذبها ! ولكم وددت ، لو أني أعلمك ان تحترق رعائك الروحيين الذي سلّطهم عليك سينودوس بطرسبرج والقيصر الألماني ... انك تبغض الاقطاعي وتبغض القس لكنك تخافها . وأنت محقّ كل الحق . إنك لازلت تثق في القيصر وفي المطران ... فلا تصدقهما . إن القيصر الى جانبهم وهم يؤيدونه . إنك تراه الآن ، أنت والد الشاب الذي قتل في بيزدن ، وأنت ابن الوالد الذي قتل في بينزي ... إن رعائك

جهلة كما أنت جاهل ، وفقراء كما أنت فقير ... هكذا كان انطون (لا المطران انطون بل انطون ، فتى بيزدن) الذي قضى في سبيلك ... ان أجساد قديسيك لن تجترح المعجزات ودعواتك لن تهديء وجع أسنانك . إلا أن ذكرهم الحية تستطيع ان تجترح اعجوبة واحدة هي تحريك ، (٦٢) .

يتضح لنا من هنا مدى السفالة والدناءة في افتراء ليبرالينا المسترخين في أحضان الصحافة « الشرعية » الخائعة على غرتسن ، وهم يضخمون نقاط الضعف فيه ، ويسكتون عن نقاط القوة . فقصبة غرتسن ، لا خطيئته ، أنه لم يتمكن من رؤية الشعب الثائر في روسيا نفسها في الاربعينات . وعندما رآه في الستينات ، وقف دون وجل الى جانب الديمقراطية الثورية ضد الليبرالية . لقد ناضل في سبيل انتصار الشعب على القيصرية ، لا من أجل تواطؤ البرجوازية الليبرالية مع القصر الاقطاعي . لقد رفع علم الثورة .



إننا نرى ، ونحن نكرم غرتسن ، ثلاثة أجيال ، ثلاث طبقات عملت في الثورة الروسية : في البدء كان النبلاء والاقطاعيون ، الديسمبريون وغرتسن . لقد كانت ضيقة حلقة هؤلاء الثوار ، وكانوا بعيدين جداً عن الشعب . إلا أن عملهم لم يذهب هدراً . فقد أيقظ الديسمبريون غرتسن ، الذي قام بعملية تحريض ثورية واسعة .

وتلقف الثوريون ذوو المنبت الديمقراطي ، بدءاً من تشرنيشفسكي وانتهاء بأبطال « نارودنابا فوليا » ، هذه الدعوة ووسعوها ووطدوها وصقلوها ، فأصبحت حلقة المناضلين أوسع ، وصلتهم بالشعب أوثق . وكان غرتسن يدعوهم : « ملاحي العاصفة العتيدة الشباب » . لكنها لم تكن العاصفة .

العاصفة هي تحريك الجماهير نفسها . فقد هبت البروليتاريا ، وهي الطبقة

الوحيدة الثورية حتى النهاية ، تتقدم الجماهير ودفعت بملايين الفلاحين الى النضال الثوري العلني لأول مرة . ففي عام ١٩٠٥ كان هجوم العاصفة الأول ، ويبدأ على مرأى منا هجومها التالي .

ان البروليتاريا ، وهي تحتفل بذكرى غرتسن ، تتعلم من مثله الأهمية العظمى للنظرية الثورية . تتعلم ان تفهم أن الاخلاص اللامتناهي للثورة ، ونشر الفكر الثوري في أوساط الشعب ، لا يذهبان هدراً ، حتى ولو فصلت عقود كاملة من السنين بين الزرع والحصاد ؛ - تتعلم أن تحدد دور مختلف الطبقات في الثورتين الروسية والعالمية . وتستشق البروليتاريا طريقها ، وقد اغتنت بهذه الدروس ، الى الاتحاد الحرّ مع العمال الاشتراكيين في مختلف البلدان ، ساحقة هذه القذارة التي تسمى بالقيصرية ، والتي كان غرتسن أول من رفع ضدها لواء النضال العظيم بتوجهه بالكلمة الروسية الحرة الى الجماهير .

طبع في ٨ أيار ١٩١٢

ج ٢١ ص ٢٥٥ - ٢٦٢



طوبافيتان

الطوباوية كلمة يونانية تعني : أو (لا) توبوس (مكان) أي مكان لا وجود له ، خيال ، فكرة وهمية .

والطوباوية في السياسة رغبة لا يمكن تحقيقها إطلاقاً ، لا الآن ، ولا مستقبلاً ، رغبة لا تستند الى القوى الاجتماعية ، ولا يدعمها نمو القوى السياسية والطبقية وتطورها .

وبقدر ماتكون الحرية في البلد قليلة ، وتجليات الصراع الطبقي المكشوف نادرة ، ومستوى التعليم بين الجماهير منخفضاً ، تبرز الطوباويات السياسية عادة بسهولة أكبر ، وتترسخ لفترة أطول .

وفي روسيا المعاصرة نوعان من الطوباوية السياسية توپدا أكثر من غيرهما ، ويجدثان ، بإغرائها ، تأثيراً معيناً في الجماهير ، هما : الطوباوية الليبرالية والطوباوية الشعبية .

وتدعي الطوباوية الليبرالية أنه يمكن الحصول على تحسينات جذية في روسيا ، في حريتها السياسية وفي وضع جماهير الشعب الكادح سلاماً ووفقاً ، دون اساءة إلى أحد ، دون كنس أمثال بوريشكيفيتش ، ودون صراع طبقي عنيف يجري حتى نهاية الشوط . إنها طوباوية السلام بين روسيا الحرة وبين أمثال بوريشكيفيتش .

أما الطوباوية الشعبية فهي حلم المثقف الشعبي والفلاح العامل بإمكانية .

ابعاد سلطة رأس المال وسيطرته ، وإزالة عبودية العمل المأجور ، عن طريق توزيع الأراضي كلها توزيعاً جديداً وعادلاً ، أو بإمكانية الاحتفاظ بتوزيع « عادل » ومُتساوٍ » للأراضي في ظل سيطرة رأس المال ، في ظل سلطة النقد ، في ظل الانتاج السلعي .

مم تتولد هاتان الطوباويتان ؟ ولماذا لا تزالان راسختين بقوة الى حدّ ما في روسيا المعاصرة ؟

إنهما وليدتا مصالح الطبقات التي تخوض صراعاً ضد النظام القديم ، ضد الاقطاعية وضد عدم الشرعية ، وبكلمة مختصرة ، ضد « أمثال بوريشكيفتش » ، الطبقات التي لا تمثل مركزاً مستقلاً في هذا الصراع . الطوباوية ، الأحلام ، وليدة فقدان الاستقلال الذاتي ، وليدة نقطة الضعف هذه . والاسترسال في الأحلام من قدر الضعفاء .

إن البرجوازية الليبرالية بعامه ، وفئة المثقفين البرجوازين الليبراليين بخاصة ، لا تستطيع الا أن تنزع الى الحرية والشرعية ، فبدون هذا لا تكون سيطرة البرجوازية كاملة ، مطلقة ومضمونة . لكن البرجوازية تخاف حركة الجماهير أكثر مما تخاف الرجعية . ومن هنا ضعف الليبرالية المدعش الذي لا يصدق في السياسية ، وعجزها التام . ومن هنا هذه السلسلة من المواربة والكذب والرياء والمراوغات الرغيدة في مجمل سياسة الليبراليين ، الذين لا يستطيعون الا أن يلعبوا لعبة الديمقراطية ، ليستميلوا الجماهير الى جانبهم ، لكنهم يعادون ، في الوقت نفسه ، الديمقراطية معاداة عميقة ، يعادون حركة الجماهير ومبادئها ومبادئها وطريقتها في « اقتحام السماء » ، كما قال ماركس ذات مرة أثناء حديثه عن إحدى الحركات الجماهيرية الأوروبية في القرن الماضي .

فطوباوية الليبرالية هي طوباوية العجز عن قضية تحرير روسيا سياسياً ، طوباوية كبس المال الجشع الذي يريد أن يتقاسم ، « سلاماً » ، الامتيازات مع أمثال بوريشكيفتش ، مبرزاً هذه الرغبة الكريمة وكأنها نظرية الانتصار « السلمي » ، للديمقراطية الروسية . الطوباوية هي حلم بالانتصار على أمثال بوريشكيفتش دون إلحاق الهزيمة بهم ، وبكسرهم دون اصابتهم بأي ألم . من الواضح أن هذه الطوباوية خاتمة ، لا لأنها طوباوية وحسب ، بل لأنها تفسد وعي الجماهير الديمقراطي . والجماهير المؤمنة بهذه الطوباوية لن تتال حريتها مطلقاً ، فمثل هذه الجماهير غير جذيرة بالحرية ، ومثل هذه الجماهير تستحق تماماً أن يسخر منها أمثال بوريشكيفتش .

أما طوباوية الشيعيين وجماعات العمل فهي حلم المالك الصغير ، الذي يقف في منتصف الطريق بين الرأسمالي والعامل المأجور ، بالقضاء على عبودية العمل المأجور دون صراع طبقي . وعندما تصبح مسألة تحرر روسيا الاقتصادي مسألة قريبة ، عاجلة وملحة ، كما هي عليه الآن مسألة تحررها السياسي ، لن تكون طوباوية الشيعيين أقل ضرراً من طوباوية الليبراليين .

لكن روسيا لازالت تعيش الآن فترة تحولها البرجوازي ، لا البروليتاري ؛ فليست مسألة تحرر البروليتاريا الاقتصادي هي التي نضجت نضجاً نهائياً ، بل مسألة الحرية السياسية ، أي ، في الواقع ، مسألة الحرية البرجوازية الكاملة .

وفي هذه المسألة الأخيرة تلعب طوباوية الشيعيين دوراً تاريخياً متميزاً . فهي ترافق النهوض الديمقراطي الجماهيري العظيم للفلاحين (أي الجماهير تشكل أكثرية السكان في روسيا المعاصرة ، روسيا الاقطاعية البرجوازية) وتدل عليه بحكم كونها طوباوية تتعلق بطبيعة النتائج الاقتصادية التي يجب أن تنشأ (وستنشأ) من التقسيم الجديد للأراضي . (ففي روسيا البرجوازية الخالصة كما في أوروبا البرجوازية الخالصة ، لن يكون الفلاحون أغلبية السكان) .

الطوباوية الليبرالية تفسد وعي الجماهير الديمقراطي . أما الطوباوية الشعبية فتظل ، الى جانب افسادها وعي الجماهير الاشتراكي ، علامة من علامات صعودها الديمقراطي ، ورفيقة له ، ومعبرة عنه الى حد ما .

وبالكثير من التاريخ يقول بأن الشيعيين وجماعات العمل يقترحون ويطبقون اجراء رأسمالياً حاسماً متمسكاً كل التمسك في المسألة الزراعية في روسيا بوصفه وسيلة مضادة للرأسمالية . « التساوي » في التوزيع الجديد للأراضي طوباوية . لكن قطع الصلة الكامل بكافة أشكال الملكية القديمة للأرض ، سواء كانت ملكية اقطاع أو « دولة » أو ملكية « حصص » (وهو قطع ضروري للتوزيع الجديد) ، اجراء اكثر ما يكون الحاحاً وضرورة وتقديمية ، من الناحية الاقتصادية ، لدولة كروسيا ، تسير في الاتجاه البرجوازي الديمقراطي .

وعلينا ان نذكر كلمات انغلز الرائعة : « ما هو كاذب بالمعنى الاقتصادي الشكلي ، قد يكون حقيقة بالمعنى التاريخي العالمي » .

لقد اعلن انغلز هذه الموضوعات العميقة عندما كان يتحدث عن الاشتراكية الطوباوية : فهذه الاشتراكية كانت « كاذبة » ، عندما قالت ان فضل القيمة يعتبر ظاهراً من وجهة نظر قوانين التبادل . وكان نظريو الاقتصاد السياسي البرجوازي محقين ، بالمعنى الاقتصادي الشكلي ، في ردّهم على هذه الاشتراكية ، إذ ان فضل القيمة ينتج بشكل « طبيعي » تماماً و « عادل » تماماً عن قوانين التبادل .

لكن الاشتراكية الطوباوية كانت محقة بالمعنى التاريخي العالمي ، لأنها كانت دليلاً من دلائل تلك الطبقة ، تشير إليها وتعبر عنها ، تلك الطبقة التي نمت الآن ، في اوائل القرن العشرين ، واصبحت قوة جماهيرية قادرة على ان تضع حداً للرأسمالية التي ولدتها ، وستفعل ذلك حتماً .

وعلينا ان نذكر موضوعات انغلز العميقة هذه عند تقييمنا لطوباوية الشعبية

او جماعات العمل المعاصرة في روسيا (وقد لا تكون في روسيا وحدها ، بل في العديد من الدول الآسيوية التي تعيش في القرن العشرين فترة الثورات البرجوازية) .

الديمقراطية الشعبية ، الكاذبة بالمعنى الاقتصادي الشكلي ، هي حقيقة بالمعنى التاريخي . فهذه الديمقراطية الكاذبة تعبر ، بوصفها طوباوية اشتراكية ، عن حقيقة النضال الديمقراطي ، المتميز والمشروط تاريخياً ، لجمهير الفلاحين التي تشكل عنصراً لا يتجزأ من التحول البرجوازي وشرطاً لانتصاره التام .

الطوباوية الليبرالية تعلم جماهير الفلاحين ان تطلع عن النضال ، اما الطوباوية الشعبية فتعبر عن رغبة هذه الجماهير في النضال ، وتعدّها بلايين النعم مكافأة لها على انتصارها ، في حين ان هذا الانتصار لن يوفر لها الا مائة نعمة . ولكن اليس طبعياً ان تضاعف الملايين التي هبت الى النضال والتي عاشت قروناً في جهل وحاجة وفقر ووسخ واحتقار وإهمال ما سمعت بمثله اذن ، اليس طبعياً ان تضاعف هذه الملايين عشرات المرات ثمار انتصارها المحتمل ؟

ليست الطوباوية الليبرالية الا ستاراً ، يخفي المستغلون الجدد وراءه رغبتهم الجشعة في اقتسام الامتيازات مع المستغلين القدامى . اما الطوباوية الشعبية فتعبر عن نزوع الملايين الكادحة من البرجوازية الصغيرة الى القضاء نهائياً على المستغلين الاقطاعيين القدامى ، وهي ، « في الوقت نفسه » ، أمل كاذب بتجنب المستغلين الجدد الرأسماليين .



من الواضح ان على الماركسيين ، وهم اعداء مختلف أنواع الطوباويات ، ان يدافعوا عن الاستقلال الذاتي للطبقة ، التي تستطيع ان تناضل بكل اخلاص ضد الاقطاعية ، لسبب واحد بالذات هو انها لم « تنشب ظفرها » ، ولو بمقدار

واحد بالمائة مشاركة في الملكية ، هذه المشاركة التي تجعل من البرجوازية نصف
عدو للاقطاعية ، لا بل حليفها الى حد ما . أما الفلاحون فقد « انشوا أظفارهم »
في الانتاج السلعي الصغير ، ويستطيعون ، إذا واثم ظروف تاريخية مناسبة ،
أن يقضوا قضاء تاماً على الاقطاعية ، الا أنهم سيظهرون دائماً ، وبالضرورة لا بالصدفة ،
بعض التردد بين البرجوازية والبروليتاريا ، بين الليبرالية والماركسية .
ومن الواضح أيضاً أن من واجب الماركسيين أن يفرزوا بعناية من
قشارة الطوباويات الشعبية النواة السليمة القيمة ، نواة الروح الديمقراطية المخلصة ،
المصممة ، الكفاحية في جماهير الفلاحين .

ويمكننا أن نجد في الأدب الماركسي القديم ، أدب الثمانينات من القرن
الماضي ، رغبة منتظمة لفرز هذه النواة الديمقراطية القيمة . ولا بد للمؤرخين أن
يدرسوا ذات يوم هذه النزعة دراسة منتظمة ، ويستقصوا علاقتها باسمي « بالبلشفية »
في العقد الأول من القرن العشرين .

طبع قبل ٥ تشرين أول ١٩٢٢

ج ٢٢ ص ١١٧ - ١٢١



من مقال

« في الشعبية »

... الشعبية ايدولوجيا (نظام نظرات) الديمقراطية الفلاحية في روسيا .
ومن واجب كل عامل واع ، لهذا السبب ، أن يتابع باهتمام تغير هذه الايدولوجيا .

- ١ -

الشعبية قديمة جداً . ويعتبر غرتسن وتشرنيفسكي مؤسسيها . وكان
« النزول الى الشعب » (الى الفلاحين) ، الذي قام به ثوريو السبعينات ، الفترة
التي ازدهرت فيها الشعبية ازدهاراً كان له تأثيره . وقد وضع ف. ف (فورونستوف)
ونيقولاى - أون ، في العقد التاسع من القرن الماضي ، نظرية الشعبين الاقتصادية
في أكمل صورها . وعبر الثوريون الاشتراكيون في مطلع القرن العشرين أكمل
تعبير عن نظرات اليساريين من الشعبين .

وكانت ثورة ١٩٠٥ ، التي اظهرت قوى روسيا الاجتماعية كلها في حركتها
الطبقية الجماهيرية المكشوفة ، امتحاناً عاماً للشعبية حدد مكانها في هذه الثورة .
إن الديمقراطية الفلاحية هو مضمون الشعبية الفعلي الوحيد وقيمتها الاجتماعية .

إن البرجوازية الليبرالية الروسية مضطرة بحكم وضعها الاقتصادي أن
تسعى لا الى القضاء على امتيازات بوريشكيفتش وشركاه ، بل الى توزيعها بين
الاقطاعيين والرأسماليين . أما الديمقراطية البرجوازية في روسيا ، اي الفلاحون ،
فمضطرة الى محاولة القضاء على هذه الامتيازات كلها .

إن الكلام عن « الاشتراكية » على لسان الشعبين ، وعن « جعل الارض

استراتيجية ، ، وعن التساوي وما الى ذلك ، كلام فارغ يغطي واقعاً فعلياً ، هو سعي الفلاحين الى المساواة التامة في السياسة ، والقضاء التام على ملكية الاقطاعيين للأرض .

وقد كشفت ثورة عام ١٩٠٥ كشفاً تاماً هذه الماهية الاجتماعية وهذه الطبيعة الطبقية للشعبية . فقد كنست حركة الجماهير ، سواء كانت في شكل اتحادات فلاحين عام ١٩٠٥ ، أو شكل نضال الفلاحين في اماكنهم في عامي ١٩٠٥ و ١٩٠٦ ، أو شكل انتخابات للدوما الاولى والدوما الثانية (انشاء جماعة العمل) (٦٣) . وهذه الوقائع الاجتماعية العظيمة كلها ، التي أظهرت لنا ملايين الفلاحين في حركاتها كنست ، كما يكنس الغبار ، لغو الشعبين الذي يدعي صفة الاستراتيجية وكشفت عن نواته الحقيقية وهي الديمقراطية الفلاحية (البرجوازية) ذات الاحتياطي الضخم من قوى لم تنفذ بعد .

٢٠ كانون ثاني عام ١٩١٣

جزء ٢٢ ص ٣٠٤ - ٣٠٥

الشعبيون

عن ن . ك . ميخايلوفسكي

تميزت الذكرى العاشرة لوفاة ن.ك. ميخايلوفسكي (توفي في ٢٨/١/١٩٠٤) بظهور فيض من مقالات الإطراء في الصحف البرجوازية الليبرالية والشعبية (أي البرجوازية الديمقراطية) . وليس من العجيب أن يطري الليبراليون والديمقراطيون البرجوازيون ميخايلوفسكي . ولكن لا يمكننا الا أن نحتج على التشويه الفاضح للحقيقة ، وافساد وعي البروليتاريا الطبقي حين يحاولون اعتبار ميخايلوفسكي اشتراكياً ، والبرهنة على امكانية التوفيق بين فلسفته ونظريته الاجتماعية وبين الماركسية .

كان ميخايلوفسكي واحداً من أفضل ممثلي افكار الديمقراطية البرجوازية الروسية ، ومن أفضل المعبرين عنها في الثلث الأخير من القرن الماضي . كان جمهور الفلاحين ، وهو الحامل الوحيد الجاد والجاهري (اذا لم نأخذ بعين الاعتبار البرجوازية الصغيرة في المدن) للافكار الديمقراطية البرجوازية في روسيا ، يغطي نوم عميق آنذاك . وقد حاول أفضل الناس الخارجين من هذا الوسط الفلاحي ، وكذلك الناس الذين يفيضون عطفاً على وضعه الشاق بمن دعوا بالرازنوشتينين – ومعظمهم من الطلاب والمعلمين وغيرهم من ممثلي المثقفين – أن ينوروا الجماهير الفلاحية النائمة وبوقظوها .

ومأثرة ميخايلوفسكي التاريخية العظيمة في الحركة البرجوازية الديمقراطية الهادفة الى تحرير روسيا أنه كان يعطف عطفاً حاراً على الفلاحين المضطهدين ،

ويدافع بقوة ضد مظاهر الظلم الاقطاعي بكافة اشكالها ، وأنه دعا في الصحافة العلنية الشرعية - وان كان فعل ذلك تلميحاً - الى التعاطف مع «العمل السري» واحترامه ، اذ كان ينشط في هذا العمل أشد الرانوتشينين الديمقراطيين تماسكاً واقداماً ، لا بل انه ساعد مباشرة هذا العمل السري . ولا يسعنا الا ان نذكر بالكلمة الطيبة مآثرة ميخايلوفسكي هذه الآن ، ونحن نرى هذا الموقف المارق والوقع الذي يقفه من العمل السري لا الليبراليون وحسب ، بل التصفيون الشعبيون من جماعة (روسكوبي بوجانستفو) وادعاء الماركسية أيضاً .

الا ان ميخايلوفسكي ، وهو النصير المتحمس للحرية ولجماهير الفلاحين المظلومة ، شارك الحركة البرجوازية نقاط ضعفها كلها . فكان يعتقد أن إعطاء الأرض كلها للفلاحين - وخصوصاً إعطاءها دون تعويض - عمل « اشتراكي » ، ولهذا كان يعتبر نفسه « اشتراكياً » . وهذا ، بالطبع ، خطأ كبير فضحه ماركس تماماً كما فضحته تجربة البلدان المتقدمة كلها ، حيث كان الديمقراطيون البرجوازيون باستمرار ، وحتى سقوط الاقطاعية والحكم المطلق سقوطاً كاملاً ، يتوهمون انفسهم « اشتراكيين » . ان إعطاء الأرض كلها للفلاحين ، وخصوصاً بالشروط السابقة ، اجراء نافع جداً في ظل سيطرة الاقطاع ، لكنه اجراء برجوازي ديمقراطي . ويدرك اي اشتراكي ذكي هذه الحقيقة الآن . وتبرهن تجربة العالم كله أنه بقدر ما كانت الأرض التي حصل عليها الفلاحون من السادة الاقطاعيين اكبر (وأرخص) ، وبقدر ما كان مقدار « الأرض والحرية » اكبر ، كان تطور الرأسمالية يجري بصورة أسرع ، وطبيعة الفلاح البرجوازية تبرز ، هي أيضاً ، بصورة أسرع . واذا لم يفهم السيد ن . راكيتنيكوف (مجلة فرناياميسل عدد ٣) ^(٦٤) حتى الآن أن مساندة البروليتاريا للفلاحين البرجوازيين الديمقراطيين ضد الاقطاعيين ليست « اشتراكية » بالمره ، فلا يبقى لنا الا ان

نبتسم لسذاجة كهذه . فمن الممل أن تدحض اخطاء رفضها العمال الواعون كلهم منذ أمد بعيد .

ولم تكن نظرات ميخايلوفسكي نظرات ديمقراطية برجوازية مخفيا لغوي يدعي « صفة الاشتراكية » في المجال الاقتصادي وحده ، بل في الفلسفة وعلم الاجتماع ايضاً . وهذا هو فحوى « صيغة التقدم » التي ينادي بها ، ونظريته عن « الصراع من أجل الفردية » .. الخ .. لقد خطا ميخايلوفسكي خطوة الى الوراء في الفلسفة بالنسبة لتشرنيشفسكي ، اعظم ممثلي الاشتراكية الطوباوية في روسيا . كان تشرنيشفسكي مادياً ، وظل حتى آخر أيامه (أي في الثمانينات من القرن الماضي) يسخر من التنازلات الصغيرة التي قام بها « أنصار الوضعية » في تلك الأيام (الكنطيون والماخيون وغيرهم) أمام المثالية والصوفية . أما ميخايلوفسكي فقد انساق وراء هؤلاء الوضعيين بالذات . ولا زالت هذه الافكار الفلسفية الرجعية تسيطر حتى هذا الوقت في أوساط اتباع ميخايلوفسكي ، وحتى في أوساط الشعبين الأشد « يسارية » من امثال تشيرنوف .

أما ان « اشتراكية » ميخايلوفسكي والشعبين مجرد لغو ديمقراطي برجوازي فأمر برهنت صحته نهائياً تجربة الأعمال التي قامت بها مختلف الطبقات ، وتجربة نضالها الجماهيري بين عامي ١٩٠٥ - ١٩٠٧ ، إذ وقفت غالبية نواب الفلاحين في الدوما الاولى والثانية ، لا الى جانب الشعبين اليساريين ، بل الى جانب « جماعات العمل » و « الاشتراكيين الشعبين » . وهذا واقع لا يمكن نسيانه أو تشويهه . واضطر حتى الشعيون اليساريون انفسهم ممثلين بأشخاص السادة فيخليايف وتشيرنوف على الاعتراف ، اثر الماركسيين ، ببرجوازية الاشتراكيين الشعبين من جماعات العمل !! .

وليطلب بعض العمال المتعاطفين مع الشعبين اليساريين من معلمهم كافة

مؤلفات الشعيين اليساريين ضد « الاشتراكيين الشعيين من جماعات العمل » .
في عامي ١٩٠٦ - ١٩٠٧ .

لقد قدمت الانتفاضات الجماهيرية ، التي قام بها الفلاحون في هذه الأعوام ،
برهاناً قاطعاً على ان طبقة الفلاحين تقف موقفاً برجوازيّاً ديمقراطياً بالضبط .
وما الشعبية اليسارية ، في أحسن الأحوال ، الا جناح صغير من الديمقراطية
الفلاحية (أي البرجوازية) في روسيا . لقد ساند العمال الفلاحين (ضدالاقطاعيين)
وسيطلون يساندونهم ، لكن الخلط بين هاتين الطبقتين ، الخلط بين الديمقراطية
البرجوازية والبروليتاريا الاشتراكية ، مغامرة رجعية سيدناضل العمال الواعون
كلهم مجزم ضدها ، وخصوصاً الآن بعد ان برهنت تجربة النضال الجماهيري العظيمة
بين عامي ١٩٠٥ - ١٩٠٧ ، برهاناً اكيداً على التمايز بين الطبقات ، وعلى ان هذا
التمايز يبرز بوضوح متزايد في قريتنا يوماً بعد يوم .

ظل ميخايلوفسكي طويلاً ، اكثر من عشر سنوات ، قائد مجموعة
الادباء في « روسكوبي بوغاتستفو » وروحها . فماذا كان من أمر هذه الجماعة في
السنوات العظيمة سنوات ١٩٠٥ - ١٩٠٦ - ١٩٠٧ ؟

خرج منهم التصفيويون الأول في وسط الديمقراطيين ! وليطلب
بعض العمال ممن يعطفون على الشعيين اليساريين من معلمهم كتيب آب الذي
أصدرته « روسكوبي بوغاتستفو » عام ١٩٠٦ ، وكل ما كتبه هؤلاء الشعيون .
اليساريون حيث سموا هذه المجموعة « السكايت الاشتراكيين » الخ !

لقد خرج من جماعة ميخايلوفسكي أوائل التصفيوين ، الذين أعلنوا
عام ١٩٠٦ عن انشاء « حزب علني » ، وتخلوا عن « العمل السري » وعن
شعاراته قبل تصفيوبينا الماركسيين بسنتين أو ثلاث . وماذا نتج عن هذا « الحزب
العلني » الذي أنشاه السادة من أمثال ميالكوتين وبيشخونوف وغيرهما من رفاق

ميخايلوفسكي؟ نتج الغياب التام لأي حزب ، وانقطاع تام «لهذه الجماعة العلنية» من انتهازيي الشعبية عن الجماهير .

لا يمكننا أن نحمل ميخايلوفسكي ، الذي لم يتخل أبداً عن العمل السري (أو بشكل أدق ، الذي توفي قبل وقت يسير من انتقال جماعته الى صفوف (التصفويين) ، كامل المسؤولية عن انتهازية السيدين بيشخونوف ومياكوتين وشركاهما الذليلة المحترقة . ولكن ، أليس بماله دلالاته المحسدة أن نرى من جديد ، في العدد الثالث من «فرنايا ميل» المكرس لميخايلوفسكي ، الاتحاد العفن بين الشعبين «اليساريين» والكاديت الاشتراكيين ! وإذا تذكرنا ما كتبه لافروف لميخايلوفسكي عن موقفه (لافروف) من الثوريين ، ألا يتحتم علينا أن نعتزف بأن «الكاديت الاشتراكيين» هم ، بوجه عام ، خلفاؤه الأمانة ؟

إننا نحبي ذكرى ميخايلوفسكي تكريماً لما يتسم به نضاله ضد الاقطاعية «والبيروقراطية» (اعندوني على هذه الكلمة غير الدقيقة (١٥) ..) من إخلاص وموهبة ، واحترامه العمل السري ومساعدته له ، لال نظراته الديمقراطية البرجوازية ، ولا لتورده وميله نحو الليبرالية ، ولا لجماعته من «الكاديت الاشتراكيين» في مجلة «روسكوي بوغاستفو» .

إن الديمقراطية البرجوازية في روسيا ، والفلاحين بالدرجة الأولى ، تتأرجح بين البرجوازي الليبرالي وبين البروليتاري ، لا صدفة ، بل بحكم وضعها الطبقي . ومهمة العمال هي تحرير الفلاحين من تأثير الليبراليين ، والنضال الذي لا هوادة فيه ضد التعاليم «الشعبية» .

طبع في ٢٢ شباط ١٩١٤

ج ٢٤ ص ٣٣٣ - ٣٣٧

اجتماع سوفيات بيتروفغراد

الذي انعقد في ١٢ / ٣ / ١٩١٩

من ردّة على سؤال خطي

... قلائل ، بيننا، الذين يذكرون نظام القناة (ولربما كانوا افراداً) ..
فالشيوخ وحدهم يستطيعون أن يتذكروا ذلك. ومع هذا، يوجد أناس يذكرون.
ما كان يجري قبل ٣٠ - ٤٠ سنة . ويعرف كل من زار القرية أنه كانت يمكن
العثور في القرية قبل ٣٠ عاماً على عدد غير قليل من الشيوخ الذين كانوا يرددون :
« كانت الامور أفضل في عهد القناة ، فالنظام كان أكثر توفراً ، والصرامة كانت
موجودة ، ولم تكن النساء يرتدين ملابس بمثل هذا الترف » . وإذا قرأنا الآن
أوسينسكي ، ونحن نقيم له الآن تمثالاً بوصفه واحداً من أفضل الكتاب الذين
وصفوا حياة الفلاحين ، يمكننا أن نجد وصفاً من الثمانينات والتسعينات لشيوخ ،
وحتى لكهول شرفاء من الفلاحين ، كانوا يقولون إن الامور كانت أفضل في
عهد نظام القناة . فمن غير الممكن ، حين يُقضى على النظم الاجتماعية القديمة ، أن
يُقضى عليها فوراً في وعي الناس ، إذ يبقى عدد قليل منهم يحنّ إلى القديم ..

ج ٣٨ ص ١٠ - ١١

من خطاب

« خداع الشعب بشعاري الحرية والمساواة »

١٩ أيار ١٩١٩ ،

... ونتساءل : هل وقعنا في تناقض مع انفسنا عندما دعونا الكادحين إلى الثورة ووعدناهم بالسلام ، وألبنا العالم المتمدن كله ضد روسيا الضعيفة المنهكة المتأخرة والمخطمة ، أم وقع في تناقض مع أبسط مفاهيم الديمقراطية والاشتراكية من له وقاحة قذفنا بهذا اللوم ؟ هذا هو السؤال . وسأعقد مقارنة حتى أتمكن من طرح هذا السؤال طرْحاً عاماً ، نظرياً . إننا نتحدث عن الطبقة الثورية ، عن سياسة الشعب الثورية ، وأنا اقترح عليكم أن نأخذ ثورياً واحداً وليكن تشرنيشفسكي ، ولنتقيم نشاطه . كيف سيقوم انسان جاهل تماماً بهذا النشاط ؟ سيقول ، على الأرجح ، ما يلي : « وماذا ؟ حطم حياته . أُلقي به في سيبيريا ، ولم يحصل على أي شيء » . هذا نموذج . وسنقول ، إذا سمعنا مثل هذا التقييم من انسان نجمله : « هذا التقييم صادر ، في احسن الاحوال ، عن انسان في اقصى درجات الجهل ، انسان قد يكون بريئاً بما هو عليه من ثقافة لا يستطيع معها أن يفهم أهمية مايقوم به ثوري واحد من نشاط ، مأخوذاً في سلسلة عامة من الاحداث الثورية » ؛ وقد نقول : « هذا التقييم يصدر عن نذل نصير للاقطاعية ، يريد ، واعياً ، تخويف العمال ليقعدهم عن الثورة » . لقد أخذت تشرنيشفسكي مثلاً لأنه لا يمكن أن تقوم

خلافات جوهرية في تقييم هذا الثوري الفرد بين من يدعون « الاشتراكية » ، منها
تباينت اتجاهاتهم . فكلهم يوافقون على أن تقييم انسان ثوري فرد ، من وجهة نظر
ما قدم من توضيحات غير مجدية في الظاهر ، دون أخذ محتوى نشاطه وعلاقة هذا
النشاط بالثوريين السابقين واللاحقين بعين الاعتبار ، لدليل جهل مطبق أو دفاع
شرير ومراء عن مصالح الرجعية ، مصالح الاضطهاد والاستغلال والظلم الطبقي .
ولا مكان هنا لأي اختلاف ..

ج ٢٨ ص ٣٣٥ - ٣٣٦

* * *

من مقال

« في التعاون »

... فيم تكمن خيالية برامج التعاونيين القدامى ابتداءً من روبرت. أوين ؟ — تكمن في أنهم حملوا بتغيير العالم المعاصر تغييراً سلمياً عن طريق الاشتراكية، دون أن يحسبوا حساباً لمسألة أساسية كمسألة الصراع الطبقي واستيلاء الطبقة العاملة على السلطة السياسية ، واسقاط سيطرة طبقة المستغلين . ولهذا السبب نحن على حق حين نعتبر هذه الاشتراكية « التعاونية » ، بأحلامها عن إمكانية تحويل الاعداء الطبقيين الى متعاونين طبقياً ، والصراع الطبقي الى سلام طبقي . (أي ما يسمى بالسلام الاهلي) بمجرد اشاعة التعاونيات بين السكان ، خيالاً صرفاً ، شيئاً رومنتيقياً ، لا بل مبتذلاً .

لقد كنا على صواب ، دون ادنى شك ، من وجهة نظر مهمة عصرنا الأساسية ، إذ لا يمكن للاشتراكية أن تتحقق دون صراع طبقي في سبيل الاستيلاء على السلطة السياسية في الدولة .

لكن انظروا كيف تغير الوضع الآن ، بعد أن أصبحت سلطة الدولة في يدي الطبقة العاملة ، وبعد ان سقطت سلطة المستغلين السياسية ، وبعد ان أصبحت وسائل الانتاج كلها بيد الطبقة العاملة (طبعاً باستثناء تلك التي تتنازل عنها الدولة العمالية طوعاً وبشرط ولمدة زمنية معينة) .

إننا محقون الآن ، حين نقول ان نمو التعاون يعني بالنسبة لنا نمو الاشتراكية (ما عدا « الاستثناء الصغير » الذي أشرنا اليه سابقاً) . ونحن مضطرون ، في الوقت نفسه ، للاعتراف بالتبدل الجذري الذي طرأ على وجهة نظرنا الى الاشتراكية . وفحوى هذا التبدل الجذري أن النضال السياسي والثورة والاستيلاء على السلطة الخ كانت مركز الثقل في نشاطنا ، بينما انتقل هذا المركز الآن الى تنظيم العمل السلمي « التثقيفي » . وأنا مستعد ان اقول إن مركز الثقل بالنسبة لنا ينتقل الى « التثقيف » لولا هذه العلاقات الدولية ، ولولا واجب الدفاع عن موقعنا في المجال الدولي . لكن ، لو تركنا هذا جانباً واكتفينا بالعلاقات الاقتصادية الداخلية ، فإن مركز ثقل عملنا ينصب عندنا الآن فعلاً على التثقيف .

وأما الآن مهمتان رئيسيتان يشكل تنفيذهما عهداً بكامله : أولاهما تغيير جهازنا الإداري الذي لا يصلح لشيء ، والذي ورثناه كله عن العصر السابق . فنحن لم نستطع أن نقوم ، ولم يكن لدينا الوقت لأن نقوم بأي شيء جدي في هذا المجال خلال سنوات الصراع الحس الماضية . وثانيتهما تنحصر في العمل الثقافي لأجل الفلاحين ، وهدفه الاقتصادي إشاعة التعاون بالضغط . فإذا استطعنا تنظيم الناس كلهم في تعاونيات ، نكون قد وقفنا بكلتا قدمينا فوق أرضية اشتراكية . لكن هذا الشرط ، شرط إشاعة التعاون الكامل ، يحتوي ضمناً على مستوى من الثقافة عند الفلاحين (الفلاحين بالضغط باعتبارهم يشكلون الجمهور الساحق من السكان) بحيث يتعذر إشاعة التعاون الكامل دون إحداث ثورة ثقافية كاملة .

لقد قال لنا خصومنا اكثر من مرة إننا نقوم بعمل أحمق ، هو محاولة غرس الاشتراكية في بلد لم يتوفر له مستوى كافٍ من الثقافة . لكنهم أخطأوا التقدير بقولهم إننا لم نبدأ من حيث كان ينبغي ان نبدأ ، وكما كانت تقضي بذلك النظرية (نظرية أدعاء العلم على اختلاف ألوانهم) ، وان الانقلاب الاجتماعي

والسياسي في بلدنا سبق الانقلاب الثقافي ، أي هذه الثورة الثقافية التي نقف الآن
وجهاً لوجه أمامها .

حسبنا الآن أن نقوم بهذه الثورة الثقافية ، حتى نصبح بلداً اشتراكياً
تماماً . لكن هذه الثورة الثقافية تتطوي ، بالنسبة لنا ، على صعوبات غير عادية ،
صعوبات ذات طابع ثقافي خالص (فنحن أميون) ومصاعب ذات طابع مادي
أيضاً (فلنكي نصبح مثقفين ينبغي تطوير وسائل الانتاج الى حدٍ معين وينبغي
تأمين قاعدة مادية معينة) .

طبع في ٢٦ و ٢٧ / ٥ / ١٩٢٣

ج ٤٥ ص ٣٧٥ - ٣٧٧



في تُولُسْتُوِي

ليبف تولستوي مرآة للثورة الروسية

قد يبدو اسم الكاتب العظيم ، مقروناً بثورة من المؤكد أنه لم يفهمها وابتعد عنها ، أمراً غريباً ومصطنعاً للوهلة الأولى . فكيف نسمي مرآة ما لا يعكس بشكل أكيد الظواهر عكساً صحيحاً ؟ لكن ثورتنا ظاهرة في غاية التعقيد ؛ فين القائمين بها والمشاركين فيها بصورة غير مباشرة كثير من العناصر الاجتماعية التي لم تكن تفهم بوضوح ، هي الأخرى ، ما يجري ، وكانت تتجنب المهام التاريخية الحقيقية التي طرحها مجرى الأحداث . فإذا كان أمامنا كاتب عظيم حقاً ، لا بد له أن يعكس في مؤلفاته بعض الجوانب الجوهرية في ثورتنا على الأقل .

وتبدي الصحافة الروسية الشرعية ، المتخمة مقالات ورسائل وملاحظات بمناسبة يوبيل تولستوي الثمانين ، أقل ما يكون من الاهتمام بتحليل مؤلفاته من وجهة نظر طابع الثورة الروسية ، وقواها المحركة . فهذه الصحافة تطفح كلها رياء يثير القرف ، ورياء مزدوجاً : رسمياً وليبرالياً . أما النوع الأول فرياء وقع من كتاب صغار مأجورين أمروا بالأمس بالتشجيع على تولستوي ويؤمرون اليوم بالكشف عن وطنيته ، وبمحاولة التزام الأدب واللباقة أمام أوروبا . أما أن هذا النوع من الكتاب قد دُفع له لقاء كتاباته فأمر يعرفه الجميع ، ولا يستطيع أحد منهم ان يماري فيه . أما الرياء الليبرالي فآشد ضرراً وخطراً من الأول ، لأنه أذكى . فإذا ما استمعنا الى المهلبين الكاديت من صحيفة « ريتش » ،^(٦٦) يبدو لنا و كأن تعاطفهم مع تولستوي في غاية الإخلاص والكمال . إلا أن تغنيهم

المدرس « بالباحث العظيم عن الله » ، وكلامهم المزوق فيه ، ليس إلا زيفاً خالصاً ؛ إذ أن الليبرالي الروسي لا يؤمن بiale تولستوي ، ولا يتعاطف مع نقد تولستوي للنظام القائم . إنه يتمسح باسم له شعبيته ليزيد من رأسماله السياسي الصغير ويمثل دور قائد المعارضة الوطنية العامة ، ويجادل أن يخلق بضجيج الكلمات وقرقتها الحاجة الملحة الى إعطاء جواب صريح وواضح عن السؤال التالي : ما الذي أثار هذه التناقضات الصارخة في « التولستوية » ، وعن أي عيوب ونقاط ضعف تعبر هذه التناقضات ؟

صارخة حقاً هي التناقضات في مؤلفات تولستوي ونظراته وتعاليمه ومدرسته . نرى ، من جهة ، فناً عظيماً لم يهنا لوحات لا مثيل لها للحياة الروسية وحسب ، بل مؤلفات أدبية من الدرجة الأولى على المستوى العالمي . أيضاً ، ونرى ، من جهة أخرى ، اقطاعياً مأخوذاً بالمسيح ؛ نرى ، من جهة ، احتجاجاً رائعاً في صراحته وقوته وإخلاصه على الدجل والزيف الاجتماعيين ، ونرى ، من جهة أخرى ، « تولستويًا » أي إنساناً ضعيفاً هستيرياً مضئ يدعى بالمتقف الروسي ، يدق على صدره علناً أمام الناس ويقول : « أنا سيء ، أنا دنيء ، لكنني أهتم بكهالي الذاتي . لم أعد أكل اللحم وأكتفي الآن بالأرز » . نرى ، من جهة ، نقداً لا يرحم للاستغلال الرأسمالي وفضحاً لأعمال العنف التي تمارسها الحكومة ولمهازل القضاء والادارة الحكومية وكشفاً عن عمق التناقضات بين ازدياد الثروة وإنجازات الحضارة وبين آلام العمال وازدياد توحشهم ، ونرى ، من جهة أخرى ، دعوة « مجنونة لعدم مقاومة الشر بالعنف » ؛ نرى ، من جهة ، أكثر أنواع الواقعية تبصراً وتمزيقاً للأقنعة على اختلافها ، ونرى ، من جهة أخرى ، دعوة إلى استبدال الكهنة الموظفين بكهنة عن قناعة داخلية ، أي غرس أكره أنواع الروح الكهنوتية لأنها أذكاه . وبقينا :

أنت فقيرة وأنت غنية

أنت عظيمة وأنت ضعيفة

يا أمنا روسيا^(٦٧)

من الطبيعي ، إذا ، أن لا يستطيع تولستوي ، في ظل تناقضات كهنه ، أن يفهم ، على الإطلاق ، لا الحركة العمالية ودورها في النضال من أجل الاشتراكية ، ولا الثورة الروسية . إلا ان التناقضات في نظرات تولستوي وتعاليمه ليست صدفة ، بل تعبيراً عن تلك الظروف المتناقضة التي كانت تحيط بالحياة الروسية في الثلث الأخير من القرن التاسع عشر . إذ ما كادت القرية ذات النظام الأبوي تتخلص من نظام القنانة ، حتى أخذ رأس المال وخزينة الحكومة تعملان فيها نهياً وإفقاراً ، وأخذت الأسس القديمة في الاقتصاد الفلاحي والحياة الفلاحية ، وهي أسس توطدت خلال قرون ، تتزعزع بسرعة فائقة . وعلينا ألا نقيم التناقضات في آراء تولستوي من وجهة نظر الحركة العمالية المعاصرة والاشتراكية المعاصرة (ومثل هذا التقييم ضروري بالطبع ، لكنه غير كافٍ) ، بل من وجهة نظر الاحتجاج الذي حتمت القرية الروسية ذات النظام الأبوي وجوده ، وهو احتجاج ضد الرأسمالية المتقدمة ، وضد افقار الفلاحين ونزع أراضيهم منهم : فتولستوي ، نبياً يكشف للإنسانية طريقاً جديدة للخلاص ، انسان مضحك . وتافهون تماماً ، لهذا السبب ، هم « التولستويون » الروس والأجانب ، الذين يريدون أن يجعلوا من أضعف نقطة بالذات في تعاليم تولستوي عقيدة . تولستوي عظيم بوصفه المعبر عن أفكار ملايين الفلاحين الروس ونفسياتهم عشية الثورة البرجوازية في روسيا . وتولستوي أصيل ، إذ ان أفكاره ، إذا أخذت مجتمعة ، تعبر بالضبط عن خصائص ثورتنا بوصفها ثورة فلاحية برجوازية . فالتناقضات في آراء تولستوي ، من وجهة النظر هذه ، مرآة حقيقية لتلك الظروف

المتناقضة التي أحاطت بنشاط الفلاحين التاريخي في ثورتنا . فمن جهة ، تكدست جبال من البغض والكراهية والعزم اليائس ، نتيجة قرون من ظلم نظام القناة وعشرات السنين من الامعان في افقار الفلاحين . ويتجلى السعي الى نفس الكنيسة الرسمية والاقطاعيين والحكومة الاقطاعية من أسسها والى القضاء على كافة أشكال ملكية الأرض ونظمها ، والى تطهيرها واقامة مجتمع فلاحين صغار أحرار متساوي الحقوق على انقاض الدولة الاقطاعية البوليسية ، يتجلى هذا السعي في كل خطوة تاريخية قام بها الفلاحون في ثورتنا . ولاشك في أن المضمون الفكري لكتابات تولستوي تتطابق مع هذا السعي الفلاحي أكثر بكثير مما تتطابق « مع الفوضوية المسيحية » المجردة ، كما تقم في بعض الأحيان « منظومة » أفكاره .

ومن جهة أخرى ، كان الفلاحون يتخذون في سعيهم الى أشكال جديدة من الحياة المشتركة موقفاً لا واعياً الى درجة كبيرة ، موقفاً تقليدياً ، أرباباً وأحق من المسائل التالية . مثلاً : كيف يجب ان تكون هذه الحياة المشتركة ! بأي أشكال النضال يجب انتزاع الحرية ؟ من هم الذين يستطيعون أن يكونوا قادة الفلاحين في هذا النضال ؟ ماذا سيكون موقف البرجوازية والمثقفين البرجوازيين من مصالح الثورة الفلاحية ؟ ولماذا يجب اسقاط السلطة القيصرية بالقوة للقضاء على الملكية الاقطاعية للأرض ؟ لقد علمت الفلاح حياتهم الماضية كلها ان يكره السيد والموظف ، لكنها لم تعلمه ، ولم يكن بإمكانها ان تعلمه ، ان يجب عليه ان يبحث عن جواب على هذه الأسئلة كلها . ففي ثورتنا لم يشارك فعلياً في النضال الا القسم الأصغر من الفلاحين الذين لم ينظموا انفسهم الا قليلاً لهذه الغاية ، كما قامت قلة قليلة منهم فقط تحمل السلاح لسحق اعدائها ، والقضاء على خدام القصر والمدافعين عن الاقطاعيين . اما الغالبية العظمى من الفلاحين فكانت تبكي وتبكي ، وتفلسف وتحلم ، تكتب استعطافات وتبعث « بالوسطاء » - تماماً

بروح ليف نيكولايتش تولستوي ! وكما يحدث دائماً في مثل هذه الحالات ، كان من شأن هذا العزوف التولستوي عن السياسة والامتناع التولستوي عنها ، وفقدان الاهتمام بها وفهمها ، أن أقلية الفلاحين فقط سارت وراء البروليتاريا الثورية ، بينما وقعت الغالبية منهم فريسة أولئك المثقفين البرجوازيين المداهنين العديمي المبادئ ، الذين كانوا يحملون اسم الكاديت ، ويهرعون من اجتماعات جماعات العمل الى غرفة انتظار ستولوبين ، يستعطون ويساومون ويصالحون أو يعدون بالمصالحة ، الى ان طردوا ركلاً بجزم الجنود . ان أفكار تولستوي لمرآة ضعف ثورتنا الفلاحية ونقائصها وانعكاس لضعف عزيمه القرية ذات النظام الابوي ، ولما يتحلى به « الموجيك الحسن التدبير » من جن وجمود .

خذوا انتفاضات الجنود في عامي ١٩٠٥ - ١٩٠٦ . ان التركيب الاجتماعي لمناضلي ثورتنا هؤلاء وسط بين طبقتي الفلاحين والبروليتاريا . كانت اقليتهم من البروليتاريا ، ولهذا السبب لم تُظهر الحركة العمالية ، حتى بشكل تقريبي ، مثل ذلك التلاحم الروسي العام ، ومثل هذا الوعي الحزبي الذين أظهرتها البروليتاريا التي اصبحت ديمقراطية اشتراكية كأنما بفعل عصا سحرية . ومن ناحية أخرى ، ليس ما هو أخطأ من الرأي الذي يزعم ان سبب اخفاق انتفاضات الجنود كان فقدان قادة من الضباط . والامر على العكس من ذلك ، اذ تجلّى تقدم الثورة الهائل منذ أيام الارادة الشعبية ^(٦٨) ، على وجه الدقة ، في ان الذي حمل السلاح ضد السلطة كان ذلك « القطيع الجاهل » ، الذي ألقى عمله المستقل الذاتي الرعب في نفوس الاقطاعيين الليبراليين والضباط الليبراليين . كان الجندي ممتلئاً عطفاً على قضية الفلاح ، وكانت عيناه تلمعان عندما يذ كراسم الأرض أمامه . وكثيراً ما كانت السلطة تنتقل في القطعات الى أيدي جماهير الجنود . الا انهم لم يستخدموا هذه السلطة الاستخدام الحازم . كان الجنود مترددين ، فبعد يومين وأحياناً بعد

بضع ساعات ، كان الجنود يطلقون سراح الضباط الموقوفين ، بعد أن يكونوا قد أجهزوا على واحد منهم يكرهونه ، ثم يأخذون بالتفاوض معهم وينتهي الأمر بأن يعدم الجنود ويجلدوا ، فيعودون يحملون نيرهم من جديد - تماماً بروح ليف نيكولايتش تولستوي !

لقد عكس تولستوي حقداً كان يغلي ، وسعيًا إلى الأفضل اختمر ، ورغبة في الخلاص من الماضي ، كما عكس عدم النضوج في الاسترسال في الأحلام وفي عدم التربية السياسية واللين الثوري . إن الظروف الاقتصادية التاريخية هي التي تفسر ضرورة بروز نضال الجماهير الثوري واستعدادها لهذا النضال ، كما تفسر تعاليم تولستوي ، التي كانت تدعو إلى عدم مقاومة الشر ، والتي كانت اخطر الأسباب التي أدت إلى إخفاق الجولة الأولى من الثورة .

يقال إن الجيوش المهزومة تتعلم جيداً . إن مقارنة الطبقات الثورية بالجيوش صحيحة بالطبع ، وإنما بمعنى ضيق جداً . فتطور الرأسمالية يغير في كل ساعة ويصعد تلك الظروف التي كانت تدفع إلى النضال الديمقراطي الثوري بملين الفلاحين ، الذين رصّ صفوفهم الحقد على الاقطاعيين والملاكين العقاريين وحكومتهم . فنمو التبادل في أوساط الفلاحين انفسهم ، وسيطرة السوق والمال يزيجان بصورة متزايدة الماضي الأبوي القديم ، وايدبولوجيا تولستوي الأبوية .

لكن الدروس المستقاة من السنوات الأولى للثورة ، ومن الهزائم الأولى في النضال الثوري الجماهيري ، هي ، بحد ذاتها ومن دون شك ، ضربة لقائلة موجبة إلى ما كان في الجماهير سابقاً من خور وتمزق . لقد أصبحت الحدود الفاصلة أكثر حدة وبروزاً . وتوضحت الفروق بين الطبقات والأحزاب . وتحت مطارق الدروس التي اعطانا إياها ستولوبين ، وبالتحريض المستمر الذي يباشره الديمقراطيون الاشتراكيون الثوريون ، ستدفع جماهير الفلاحين الديمقراطية من بين صفوفها حتماً ،

لا البروليتاريا الاشتراكية وحدها ، بمناضلين يكونون أكثر تمسكاً ، وأقل تعرضاً
للسقوط في خطيئتنا التاريخية ألا وهو التولستوية !

طبع في ١١ ايلول ١٩٠٨

ج ١٧ ، ص ٢٠٦ - ٢١٣

ل . ن . تولستوي

توفي ليف تولستوي . توفي الكاتب الذي عكست اهميته العالمية بوصفه
فناناً ، وشهرته العالمية بوصفه مفكراً وواعظاً ، كل منها على طريقته الخاصة ،
الأهمية العالمية للثورة الروسية .

برز تولستوي فناناً عظيماً منذ عهد القنانة . فقد وصف في عدد من مؤلفاته
العبرية ، التي كتبها في فترة نشاطه الأدبي التي امتدت ما يزيد على نصف قرن
روسيا القديمة في الدرجة الأولى ، روسيا ما قبل الثورة ، روسيا التي ظلت ، حتى
بعد عام ١٨٦١ ، في حالة نصف قنانة ، روسيا القروية ، روسيا الملاك العقاري
والفلاح . واستطاع تولستوي ، وهو يصف هذه الحقبة التاريخية من حياة روسيا ،
أن يطرح في مؤلفاته عدداً من المسائل العظيمة ، وأن يسمو إلى درجة من القدرة
الفنية ، مكنت مؤلفاته من أن تشغل واحدة من المراتب الأولى في الأدب العالمي .
فكان اعداد الثورة في بلد رازح تحت نير القنانة خطوة إلى الأمام في مضمار التطور
الفني للانسانية كلها بفضل عبقرية تولستوي في وصفه . إن أقلية ضئيلة من الناس ،
حتى في روسيا نفسها ، تعرف تولستوي الفنان . ولكي تصبح مؤلفاته العظيمة
في متناول الناس جميعهم فعلاً ، لا بد من النضال الدؤوب ضد النظام الاجتماعي ،
الذي فرض على الملايين وعشرات الملايين من الناس حياة الجهل والبلادة والعمل
للساق والفقر ، لا بد من انقلاب اشتراكي .

ولم يدع تولستوي فقط مؤلفات فنية ستقدها الجماهير وستقرأها دائماً ،
عندما ستخلق لنفسها ظروف حياة جديدة بالإنسان ، وبعد أن تخلع عنها زي
الملاكين العقارين الرأسماليين ، بل عرف أيضاً كيف يصف بقوة رائعة الحالة
النفسية للجماهير الواسعة التي يظلمها النظام القائم ، ويصور وضعها ويعبر عن مشاعر
الاحتجاج والغضب التي تتفجر فيها بصورة عفوية . ولقد جسد تولستوي ، وهو
الذي ينتمي أساساً إلى الحقبة الواقعة بين عامي ١٨٦١ - ١٩٠٤ ، في مؤلفاته
بوصفه فتاناً ومفكراً وواعظاً ، جسد بوضوح مدهش ما تنسم به الثورة الروسية
الأولى من أصالة تاريخية ، جسد قوتها وضعفها .

إن إحدى السمات الرئيسية المميزة لثورتنا تتلخص في أنها كانت ثورة
برجوازية فلاحية في عهد بلغت الرأسمالية فيه درجة من التطور ، عالية جداً في
العالم كله ، ورفيعة نسبياً في روسيا . لقد كانت ثورة برجوازية ، لأن مهمتها
المباشرة كانت الإطاحة بالسلطة القيصرية الاستبدادية والملكية القيصرية ونحطيم
ملكية الاقطاعيين للأرض ، لا إسقاط سيطرة البرجوازية . وكان الفلاحون ،
بنوع خاص ، لا يدركون هذه المهمة الأخيرة ، ولا يدركون ما يميزها من المهام
النضالية الأقرب والأكثر مباشرة . وكانت أيضاً ثورة برجوازية فلاحية ، لأن
الظروف الموضوعية دفعت إلى المقام الأول مسألة تغيير ظروف حياة الفلاحين
تغييراً جذرياً ، وهدم الشكل القديم المنحد من العصور الوسطى للملكية الأرض ،
« وتمهيد التربة ، للرأسمالية ، لأن الظروف الموضوعية دفعت بجماهير الفلاحين إلى
حلبة نشاط تاريخي مستقل نوعاً ما .

وقد انعكست في مؤلفات تولستوي قوة الحركة الفلاحية الجماهيرية بالذات
وضعفها ، قنيتها وضيق افقها . فكان احتجاجه . الحار ، المتحمس والحاد بلا هوادة
في بعض الأحيان ، على الدولة والكنيسة الرسمية البوليسية ، المعبر عن مزاج

الديمقراطية الفلاحية البدائية ، التي كدست فيها قرون من القنانة وتعسف الموظفين .
ونهم ، ومن رياء الكنيسة وخداعها واحتياها ، جبالاً من الكراهية والغضب .
ويعكس رفضه العنيد للملكية الخاصة للأرض نفسية جماهير الفلاحين في فترة
تاريخية أصبحت فيها الطريقة القديمة المنحدرة من العصور الوسطى في ملكية الأرض
والطريقة الرسمية القائمة على منع تقطع الأرض ، والملكية الاقطاعية ، أصبحت نهائياً
عقبة لا تطاق أمام تطور البلد في المستقبل ، وأصبح هدم هذا النوع القديم
من الملكية بمنتهى الحزم والسرعة أمراً لا يقبل التأخير . وفضحه الدائم
الرأسمالية ، المفعم بعمق المشاعر واشد الاستياء ، يعبر عن مدى رعب الفلاح الأيوبي
وقد أخذ يزحف ، عليه عدو جديد ، خفي وغير مفهوم ، آتيا من مكان ما من المدينة
أو من خارج البلد ، يقوض « الاسس » القديمة لحياة الريف ، ويحمل معه خراباً لم يعهد له .
مثل من قبل ، كما يحمل البؤس والموت جوعاً والمهجنة والدعارة والزهري ، أي
نكبات « عهد التراكم البدائي » كلها متفانمة تفاقماً خطيراً بنقل أحدث أساليب
النهب التي اخترعها السيد كوبون إلى الأرض الروسية .

إلا أن هذا المحتج المتحمس ، والفاضح المنذع ، والناقد العظيم ، أظهر
في مؤلفاته ، مع ذلك ، عدم ادراك لأسباب الأزمة الزاحفة على روسيا ، ولوسائل
الخروج منها ، يليق بفلاح أبوي ساذج ، لا بكاتب أوروبي الثقافة . فتحول صراعه
ضد الدولة الاقطاعية والبوليسية وضد الملكية إلى انكار للسياسة ، وأدى إلى
مذهبه القائم على « عدم مقاومة الشر » ، وإلى الابتعاد نهائياً عن نضال الجماهير
الثوري ، في اعوام ١٩٠٥ - ١٩٠٧ . واقتوت صراعه ضد الكنيسة الرسمية
بالدعوة إلى دين جديد مطهر ، أي الى سم جديد مصفى ، أفعل في الجماهير
المضطهدة . ولم يؤدبه انكاره للملكية الخاصة للأرض الى تركيز الكفاح كله ضد
العدد الحقيقي ، أي ملكية الاقطاعيين للأرض واداة سلطتها السياسية ، أي الملكية ،
بل أدى الى تأوهات حاملة غامضة وعاجزة . واقتوت تعويته للرأسمالية ، ولما

تعود به على الجماهير من مصائب ، بموقف من اللامبالاة التامة بالنضال التحرري العالمي الذي تخوضه البروليتاريا الاشتراكية العالمية .

ولست التناقضات في آراء تولستوي تناقضات فكره الشخصي فقط، بل إنها، أيضاً، انعكاس للظروف المتناقضة والمعقدة غاية التناقض والتعقيد، والتأثيرات الاجتماعية والتقاليد التاريخية ، التي ساهمت كلها مجتمعة في تحديد نفسية مختلف الطبقات ، ومختلف الفئات في المجتمع الروسي في الحقبة التالية للإصلاح ، والسابقة للثورة .

وعليه لا يمكن تقييم تولستوي تقيماً صحيحاً إلا من وجهة نظر تلك الطبقة التي برهنت ، بدورها السياسي ونضالها اثناء الانفجار الأول لهذه التناقضات ، أي خلال الثورة ، على أن رسالتها هي قيادة النضال من أجل حرية الشعب وتحرير الجماهير من الاستغلال ، وبرهنت على وفائها للامتناهي لقضية الديمقراطية، وقدرتها على النضال ضد ضيق افق الديمقراطية البرجوازية (بما فيها الديمقراطية الفلاحية) وعدم تماسكها . إن مثل هذا التقييم غير ممكن إلا من وجهة نظر البروليتاريا الاشتراكية الديمقراطية .

انظروا إلى تقييم تولستوي في الصحف الحكومية . إنها تنوف دموع التماسيح مؤكدة احترامها « للكاتب العظيم » ، ومدافعة في الوقت نفسه عن « المجمع المقدس » ، في حين أن الآباء القديسين لم يكادوا ينتهون بعد من اقتراف خسة بالغة بإرسالهم الكهنة إلى تولستوي وهو محتضر ليقولوا للشعب خداعاً إن تولستوي قد « تاب » . لقد حرم المجمع المقدس تولستوي^(٦٩) . حسناً . سوف تحسب له هذه المأثرة حين يصفى الشعب حسابه مع الموظفين الذين يلبسون ثياب الكهنة ، ومع درك يسوع ورجال محاكم التفتيش الجبهة الذين أيدوا مذابح اليهود وغيرها من المآثر التي قامت بها عصابة « المائة السود » القيصرية .

وانظروا إلى تقييم الصحف الليبرالية لتولستوي . إنها تعتمد إلى تلك الجمل
 الفارغة ، الليبرالية الرسمية والجامعية المطروقة والمبعوجة ، حول « صوت
 الانسانية المتمدنة » و « الصدى العالمي الاجماعي » و « أفكار الحق والخير » الخ .
 - وهي الجمل التي كان تولستوي ينهال بسياط النقد على العالم البرجوازي لاستعماله
 إياها، وهو محق في ذلك كل الحق . إن الصحف الليبرالية لا تستطيع أن تفصح
 بوضوح وصراحة عن تقييمها لآراء تولستوي في الدولة والكنيسة والملكية الخاصة
 للأرض ، وفي الرأسمالية ، لأن المراقبة تعيقها عن ذلك ، فالرقابة، على العكس ،
 تساعد على الخروج من المأزق ، بل لأن كل موضوع وردت في نقد تولستوي
 صفة لليبرالية البرجوازية ، لأن طرح تولستوي لألح مسائل عصرنا وألغنها هذا
 الطرح الجريء والصريح والحاد الذي لا يرحم ، يعتبر في حد ذاته لطمة للجمل
 التقليدية والتعابير المطروقة والأكاذيب الملتوية « المتمدنة التي يمتلئ بها أدبنا
 الليبرالي » (والليبرالي الشعبي) . فالليبراليون يدافعون بكل قواهم عن تولستوي
 ويقفون بكل قواهم ضد المجتمع المقدس ، ويؤيدون في الوقت نفسه ...
 « الفيخين » الذين « يمكن النقاش » معهم ، والذين « يجب » التعايش معهم في
 حزب واحد « ويجب » العمل معهم في السياسة والأدب . أما الفيخيون هؤلاء
 فأنطون فولينسكي هو الذي يعانقهم .

يبرز الليبراليون ، في الدرجة الأولى ، الموضوعة القائلة ان تولستوي
 هو « الضمير العظيم » . أليست هذه جملة فارغة ترددها بمختلف الأساليب
 « نوفويي فريميا » ومثيلاتها ؟ أليس هذا تهرباً من المسائل المشخصة للديمقراطية
 والاشتراكية التي طرحها تولستوي ؟ أليس هذا إبرازاً لما يعبر عن أوهام
 تولستوي وليس عن عقله ، لما يعود منه للماضي وليس للمستقبل ، لإنكاره السياسة
 وتبشيره بالكمال الأخلاقي الذاتي ، وليس لاحتجاجه العنيف على السيطرة الطبقية
 منها كانت ؟

لقد توفي تولستوي ومضت روسيا ما قبل الثورة ، روسيا التي عبّر هذا الفنان العبقرى عن ضعفها وعجزها في فلسفته ، وصورتها في مؤلفاته . إلا أن في تراثه أشياء لم تذهب مع الماضي ، بل بقيت للمستقبل . ول سوف تأخذ بروتاريا روسيا هذا التراث وتدرسه ، وستشرح للجماهير الكادحين والمستغلين معنى انتقاده للدولة والكنيسة والملكية الخاصة للأرض ، لا لكي تقنع الجماهير بالتكامل الذاتي وبالتأوهات على حياة حسب مشيئة الله ، بل لكي تنهض فتسدّ ضربة جديدة للنظام الملكي القيصري ، والملكية الاقطاعيين الأرض ، الذين لم يكسروا عام ١٩٠٧ إلا كسراً طفيفاً ، والذين يجب تحطيمها نهائياً . وستشرح البروليتاريا للجماهير نقد تولستوي للرأسمالية ، لا لتقنع بصب اللعنات على رأس المال وسلطة المال ، بل لكي تتعلم أن تعتمد في كل خطوة من خطوات حياتها ونضالها على المنجزات التقنية والاجتماعية التي وفرتها الرأسمالية ، ولكي تتعلم كيف تتلاحم جيشاً واحداً يعدّ الملايين من المناضلين الاشتراكيين الذين سيطيحون بالرأسمالية و يقيمون مجتمعاً جديداً ، ينتفي منه بؤس الشعب واستغلال الانسان للانسان ..

ج ٢٠ ، ص ١٩ - ٢٤

طبع في ١٩١٠ / ١١ / ٢٩

ن. ل. تولستوي والحركة العمالية المعاصرة

كان لوفاة تولستوي صداها في أوساط العمال الروس في مدن روسيا الكبيرة كلها تقريباً ، وقد عبروا ، بشكل أو بآخر ، عن موقفهم من الكاتب الذي اعطى العالم مجموعة من أروع المؤلفات الفنية رفعتهم إلى مصاف الكتاب العظام في العالم كله ، وعن موقفهم من المفكر الذي طوح بقوة وثقة وإخلاص عظيم عدداً من المسائل تمس سمات النظام السياسي والاجتماعي الراهن الأساسية . ويمكن القول ، بصورة عامة ، ان هذا الموقف قد انعكس في البرقية^(٧٠) التي ارسلها النواب العمال في الدوما الثالثة ونشرتها الصحف .

بدأ تولستوي نشاطه الأدبي في ظل نظام القنانة ، ولكن في فترة كانت من الواضح فيها ان هذا النظام يعيش ايامه الأخيرة . ويقع نشاط تولستوي الرئيسي في حقبة من التاريخ الروسي تمتد بين نقطتي انعطاف فيه ، أي بين عامي ١٨٦١ و ١٩٠٥ . فخلال هذه الحقبة كلها نفذت آثار القنانة ورواسبها المباشرة الى حياة البلد الاقتصادية (وخصوصاً في الريف) والسياسية كلها . وفي الوقت نفسه كانت هذه الحقبة ، على وجه الضبط ، فترة نمو الرأسمالية السريع من الأسفل ، وغرسها من الأعلى .

فقيم تجلّت رواسب القنانة ؟ تجلّت ، قبل كل شيء وبأوضح صورة ، في أن الزراعة في روسيا ، وهي بلد زراعي في الدرجة الاولى ، كانت آنذاك في أيدي فلاحين حل بهم الحراب والفقر ، يديرون اقتصاداً قديماً بدائياً فوق قطع قديمة من الأرض تحدرت اليهم من عهد القنانة ، واقتطعت منها في عام ١٨٦١

أقسام لصالح الاقطاعيين . ومن جهة أخرى كانت الزراعة في روسيا الوسطى في ايدي اقطاعيين يزرعون الأراضي بكدح الفلاج، ومحراث الفلاح، وحصان الفلاح ، مقابل « الأراضي المقطعة » والاعشاب والسقاية الخ . وقد كان هذا ، في حقيقة الأمر ، نظام عهد القنانة القديم في ادارة الزراعة . وكان نظام روسيا السياسي في تلك الفترة مشبعاً هو الآخر بروح القنانة . ويتضح هذا من تركيب جهاز الدولة حتى المحاولات الأولى لتغييره في عام ١٩٠٥ ، ومن هيمنة النبلاء - ملاكي الأراضي - على أمور الدولة، ومن تحكم الموظفين المطلق الذي كانوا بشكل رئيسي، والكبار منهم خصوصاً ، من النبلاء - ملاكي الأراضي .

أخذت روسيا الأبوية القديمة هذه تنهار بسرعة بعد عام ١٩٦١ بتأثير الرأسمالية العالمية . فشرع الفلاحون ، الذين أصبحوا عرضة لجوع وموت وخراب لم يعهد له مثيل من قبل ، يفرون الى المدن مخلفين وراءهم أراضيهم . وأخذت الخطوط الحديدية تمدد، والمصانع والمعامل تبنى بسرعة بفضل « اليد العاملة الرخيصة » من الفلاحين الذين حل بهم الحراب . فتم الرأسمال المالي الكبير ، والتجارة والصناعة الكبيرتان في روسيا .

وهذا التداعي السريع والشاق والحاد لتلك « الدعائم » القديمة كلها في روسيا القديمة ، هو الذي انعكس في مؤلفات تولستوي الفنان ، وفي آراء تولوستوي المفكر .

كان تولستوي على معرفة رائعة بروسيا الفلاحية وبجياة الاقطاعي والفلاح . وقد رسم في مؤلفاته الفنية صوراً لهذه الحياة هي من روائع الأدب العالمي . وقد زاد التداعي الحاد « للدعائم القديمة » كلها في روسيا الفلاحية من انتباه تولستوي الى ما يجري حوله ، ومن عمق اهتمامه به ، وأدّى الى تحول في نظرتة الى العالم كلها . كان تولستوي ينتمي، أصلاً وتربية، الى انبل النبلاء من الاقطاعيين

في روسيا . الا انه قطع صلته بكل ما في هذه البيئة من آراء مألوفة وراسخة ،
وانهال ، في مؤلفاته الأخيرة ، بالنقد العنيف على كافة نظم الدولة والكنيسة
والمجتمع والاقتصاد المعاصرة القائمة على استبعاد الجماهير وبؤسها وخراب الفلاحين
والملاك الصغار بوجه عام ، وعلى العنف والرياء الذين يتغلغلان في الحياة المعاصرة
كلها من أعلاها الى ادناها .

ليس نقد تولستوي بالجديد . فهو لم يقل شيئاً لم يقله قبله ، بزمان طويل ،
الكتاب الذي وقفوا الى جانب الكادحين في الأدبين الأوروبي والروسي على حد
سواء . لكن أصالة نقد تولستوي وأهميته التاريخية في أن هذا النقد يعبر بقوة ،
لا يمتلكها الا العباقرة من الفنانين ، عن التصدع في آراء أوسع الجماهير الشعبية في
روسيا في الفترة المذكورة ، وعلى الاخص في روسيا الريفية ، روسيا الفلاحية .
ويتميز نقد تولستوي للأنظمة المعاصرة عن نقد ممثلي الحركة العالمية المعاصرة لهذه
الانظمة نفسها ، بأنه ينظر الى الامور من وجهة نظر الفلاح الابوي الساذج ،
ويضمّن تعاليمه ونقده نفسية هذا الفلاح . واذا كان نقد تولستوي يتميز بمثل هذه
القوة والاندفاع والقدرة على الاقتناع والنضارة والاخلاص والجرأة التي لا تعرف
الوجل في محاولته الوصول إلى الجذور ، والكشف عن السبب الحقيقي لمصائب
الجماهير ، فلأن هذا النقد يعبر بالفعل عن تحول في نظرة ملايين الفلاحين الذين ما
كادوا يتحررون من القنانة حتى رأوا ان هذه الحرية تعني فظائع جديدة ، فظائع
الافلاس والموت جوعاً ، وحياة التشرد بين « نصاي » المدينة الخ . لقد عبّر
تولستوي عن حالتهم النفسية تعبيراً بلغ من الامانة حداً جعل تولستوي نفسه
يحمل تعاليمه سذاجتهم ، وعزوفهم عن السياسة ، وصوفيتهم ، ورغبتهم في الهروب
من الدنيا ، « وعدم مقاومتهم الشر » ، ولعناتهم العاجزة ، يصبونها على الرأسمالية
« وسلطة المال » .

ففي تعاليمه المستوي امتزج احتجاج ملايين الفلاحين وبأسهم في كل واحد .

ان ممثلي الحركة العمالية المعاصرة يرون أن هناك ما يجب الاحتجاج عليه ، ولكن ليس هناك ما يدعم اليأس . اليأس من صفات الطبقات المتحضرة ، في حين ان طبقة العمال المهاجرين تنمو وتتطور وتتوطد بشكل حتمي في المجتمعات الرأسمالية كلها ، بما في ذلك روسيا . اليأس من صفات الذين لا يفهمون أسباب الشر ، ولا يجدون منه مخرجاً ، ولا هم بالقادرين على النضال . والبروليتاريا الصناعية المعاصرة ليست في عداد هذه الطبقات .

طبع في ٢٨ تشرين الثاني عام ١٩١٠

ج ٢٠ ، ص ٣٨ - ٤١



تولستوي في النضال البروليتاري

سلط تولستوي بقوة وإخلاص شديد على النقد على الطبقات المسيطرة
وضمحل بوضوح كبير ما في صميم المؤسسات التي يستند إليها المجتمع المعاصر: كنيسة
وقضاء وروحاً عسكرياً وزواجاً شرعياً ، وعملاً برجوازيّاً ، من هتان . إلا أن
نعالمه كانت على تناقض تام مع حياة البروليتاريا ، حفارة عبر النظام القسائم ،
وعملها ونضالها . فما هي إذا وجهة النظر التي عكسها مواعظ تولستوي ؟ إن
الجمهير الواسعة من الشعب الروسي ، التي أصبحت تكره سادة الحياة المعاصرة ،
إلا أنها لمّا تبلغ مرحلة النضال الواعي المتأسك الذي لا يعرف الهوادة ، بل يسير
حتى نهاية الشوط ، هي التي تتكلم بلسان تولستوي .

وقد بين تاريخ الثورة الروسية العظيمة ما انتهت إليه أن الجماهير ،
التي كانت في موقع وسط بين البروليتاريا الاشتراكية الواعية وبين المدافعين
بجزم عن النظام القديم ، هي بالضبط الجماهير التي تحدث تولستوي بلسانها . وقد
أبدت هذه الجماهير — ومعظمها من اللادين — خلال الثورة عظيم كرهاً للقديم ،
ومدى شعورها بوطاة النظام القائم ، ورغبتها العفوية في التخلص منها والبحث عن
حياة أفضل .

وقد أظهرت هذه الجماهير في الوقت نفسه خلال الثورة أنها كانت على
وعي غير كاف في حقدتها ، وغير متأسكة في نضالها ، ومحدودة ضمن أطر ضيقة في
بجتها عن حياة أفضل .

لقد انعكس هذا الخضم العظيم من الناس ، المضطرب حتى أعماقه ،
في تعاليم تولستوي بكل ما فيه من نقاط قوة وضعف .

إن الطبقة العاملة الروسية ستتعرف على أعدائها بشكل أفضل ، وهي
تدرس مؤلفات ليف تولستوي الأدبية . ولا بد للشعب الروسي ، وهو يتمعن في
تعاليم تولستوي ، من ان يفهم ما هي طبيعة ضعفه الذي عاقه عن السير بقضية
تحرره حتى النهاية ، وعليه ان يفهم هذا كي يسير الى الأمام .

إن الذين يعيقون هذا السير الى الأمام هم الذين ينعثون تولستوي .
« بالضمير الحي » ، و « بعلم الحياة » . وهذا كذب ينشره الليبراليون الراغبون
عن وعي في استغلال الجانب المعادي للثورة من تعاليم تولستوي . كما يردد بعض
الاستراكيين الديمقراطيين سابقاً ، وراء الليبراليين ، هذه الأكاذوبة عن تولستوي .
« معلماً للحياة » .

ولن يظفر الشعب الروسي بتحرره إلا عندما يدرك أن عليه ان يتعلم
كيف يناضل في سبيل حياة أفضل لا على يدي تولستوي ، بل على يدي الطبقة
التي لم يدرك تولستوي أهميتها ، والقادرة هي وحدها على تقويض العالم القديم الذي
كان تولستوي يكرهه ، أي على يدي البروليتاريا .

طبع في ١٨ كانون اول ١٩١٠

ج ٢٠ ، ص ٧٠ - ٧١

ل. ن. تولستوي وعصره

الحقبة ، التي ينتمي اليها تولستوي ، والتي انعكست بوضوح عظيم في مؤلفاته الأدبية العبقريّة ، كما في تعاليمه ، هي الحقبة الممتدة ما بين عامي ١٨٦١ و ١٩٠٥ . صحيح أن نشاط تولستوي الأدبي ابتداءً قبل هذه الحقبة وانتهى بعدها ، إلا أن تولستوي ، فناناً ومفكراً ، قد نضج نهائياً في هذه الحقبة بالذات التي نتج عن طابعها الانتقالي كل ما تتصف به مؤلفات تولستوي و « التولستوية » على حد سواء من سمات مميزة .

لقد عبّر تولستوي في روايته « أنا كارينينا » وعلى لسان ليفين ، بوضوح بالغ ، عن فحوى الانعطاف الذي تم في التاريخ الروسي خلال هذه السنوات الخمسين حين قال : « ... الأحاديث الدائرة حول المحصول واستئجار العمال الخ — وهي أحاديث كان ليفين يعرفها وكانت تعتبر شيئاً سافلاً جداً — بدالها الآن أنها ، هي وحدها ، ذات أهمية . وأخذ ليفين يفكر : « ربما لم يكن لهذا أهمية في ظل القنانة ، أو ليس له من أهمية الآن في انكلترا . فالظروف نفسها محدّدة في كلتا الحالتين . أما عندنا الآن ، حيث انقلب هذا كله ، وما زال يتوضع من جديد ، فإن معرفة كيف ستتوضع هذه الظروف هي المسألة الوحيدة الهامة في روسيا » (مؤلفات ج ١٠ ، ص ١٣٧) .

— « انقلب هذا كله الآن عندنا وما زال يتوضع من جديد » . —

يصعب على المرء ان يتصور وصفاً أدق للفترة الواقعة بين عامي ١٨٦١

و ١٩٠٥ من هذا الوصف . إن كل روسي يعرف جيداً ما « انقلب » ، أو أنه ، على الأقل ، مطلع تماماً عليه . إنه القنانة « والنظام القديم » كله الذي يتناسب معها . أما الذي « ما زال يتوضع من جديد » فشيء تجهله اوسع الجماهير الشعبية وهو غريب عنها لا تفهمه . وهذا النظام البرجوازي « الذي ما زال يتوضع » يرتسم غامضاً امام عيني تولستوي بشكل مجدار هو انكلترا . وهو مجدار على وجه الدقة ، لأن تولستوي يرفض ، مبدئياً إن صح التعبير ، أي محاولة لتفهم السمات الأساسية للنظام الاجتماعي في « انكلترا » هذه ، وعلاقة هذا النظام بسيطرة رأس المال ، وبدور المال وظهور التبادل وتطوره . إنه ، كالشعبيين ، لا يريد أن يرى ، إنه يغمض عينيه معرضاً عن الفكرة القائلة إن ما يتوضع في روسيا ليس سوى النظام البرجوازي .

صحيح أن معرفة « كيف سيتوضع » هذا النظام ، النظام البرجوازي الذي يتخذ اشكلاً متنوعة جداً في « انكلترا » والمانيا واميركا وفرنسا الخ كانت أهم مسألة ، إن لم تكن المسألة « الوحيدة الهامة » ، من حيث المهام المباشرة للنشاط الاجتماعي والسياسي كله في روسيا خلال الحقبة الممتدة بين عامي ١٨٦١ و ١٩٠٥ (وبالنسبة للفترة الراهنة ايضاً) . لكن مثل هذا الطرح المحدود والتاريخي المشخص للمسألة شيء غريب تماماً عن تولستوي . فهو يحاكم الأمور محاكمة مجردة ، ولا يقبل إلا المبادئ « الخالدة » في الأخلاق ، وإلا حقائق الدين الخالدة دون أن يعي أن وجهة النظر هذه ليست إلا انعكاساً ايديولوجياً للنظام القديم (« الذي انقلب ») ، لنظام القنانة ، لنظام حياة الشعوب الشرقية .

لقد صرح تولستوي في قصة « لوتسرن » (التي صدرت عام ١٨٥٧) ان الاعتراف « بالحضارة » خيراً ليس الا « معرفة موهومة » « تقضي على ما في الطبيعة الانسانية من حاجات غريزية ، بدائية وسعيدة الى فعل الخير » . ويهتف تولستوي

قائلاً :- « عندنا مرشد واحد ، وواحد فقط معصوم عن الخطأ هو الروح الكوني المستقر في أعماقنا » (مؤلفات ج ٢ ص ١٢٥) .

ويكرر تولستوي في « عبودية عصرنا » (المكتوبة عام ١٩٠٠) باصرار متزايد هذه النداءات الى الروح الكوني معلناً ان الاقتصاد السياسي « علم وهمي » لانه يتخذ « انكلترا الصغيرة الموجودة في وضع استثنائي تاماً » « نموذجاً » له ، بدل ان يتخذ « وضع البشر في الكون اجمع خلال الحقبة التاريخية كلها » . أما ما هو هذا « الكون اجمع » فتكشف عنه مقالته « التقدم وتعريف الثقافة » (عام ١٨٦٢) . يحاول تولستوي في هذه المقالة أن يفسر رأي « المؤرخين » القائل ان التقدم « قانون عام للبشرية » باستشاده « بكل ما يسمى شرقاً » (ج ٤ ، ١٦٢) ، معلناً « أنه لا يوجد قانون عام لحركة البشرية الى الامام ، والبرهان على ذلك هي الشعوب الشرقية الساكنة » .

وهكذا ، فالتولستوية بضمونها التاريخي الواقعي هي ، بالضبط ، ايدولوجيا النظام الشرقي ، النظام الآسيوي . ومن هنا كانت دعوته الى النقشف وعدم مقاومة الشر بالعنف ورنات التشاؤم العميقة ، وقناعته بأن « كل شيء عدم ، كل شيء عدم مادي . . (في معنى الحياة ٢٢ ، ص ٥٢) ، والايان « بالروح » « والمبدأ الكلبي » ، حيث ان الانسان بالنسبة له ليس الا « عاملاً » « مكلفاً بقضية خلاص نفسه » الخ . وظل تولستوي اميناً لهذه الايدولوجيا في « سونات كرتزر » ايضاً اذ يقول : « ان يتحقق تحرير المرأة في الجامعات او في البرلمانات بل في غرفة النوم » ، كما يعلن في مقالة كتبها عام ١٨٦٢ ان الجامعات « لا تعد إلا ليبراليين نزقين ومرضى » « لا حاجة للشعب بهم بتاتاً » ، « انتزعوا دون جدوى من وسطهم القديم » ، « ولا يجدون لهم مكاناً في الحياة » الخ (ج ٤ ، ص ١٣٦ - ١٣٧) .

التشاؤم وعدم المقاومة والالتجاء الى « الروح » ايدولوجيا تظهر بالضرورة في حقبة « انقلب » فيها النظام القديم كله ، حقبة لا ترى فيها الجماهير التي نشأت في هذا النظام القديم ورضعت مبادئه وعاداته وتقاليده مع حليب امهاتها ، ولا تستطيع أن ترى ، ما هو النظام الجديد الذي « يتوضع » ، وما هي القوى الاجتماعية التي « تنسقه » ، وكيف « تنسقه » ، وما هي القوى الاجتماعية القادرة على ان تحمل لها الخلاص من الآلام العديدة والحادة جداً التي تميز فترات « التصدع » .

وكانت الفترة من ١٨٦٢ إلى ١٩٠٤ واحدة من تلك الفترات في تاريخ روسيا ، إذ كان القديم قد انهار إلى غير رجعة أمام اعين الناس جميعاً ، وكان الجديد ما يزال يتنسق ، علماً بأن القوى الاجتماعية التي كانت تخلق هذا التنسيق لم تظهر مقدرتها عملياً لأول مرة ، وعلى المستوى لوطني العام وفي اعمال جماهيرية سافرة في مختلف الميادين إلا في عام ١٩٠٥ ، واعقبت احداث عام ١٩٠٥ في روسيا أحداث مماثلة في عدد من دول هذا « الشرق » نفسه ، الذي استشهد تولستوي عام ١٨٦٢ « بسكونه » : لقد كان عام ١٩٠٥ بداية النهاية للسكون « الشرقي » . ولهذا السبب بالضبط ، وضع هذا العام حداً تاريخياً للتواستوية ، وحداً لذلك العهد كله الذي استطاع ، وكان لا بد له ، أن يولد تعاليم تولستوي ، لا بوصفها شيئاً فردياً أو نزوة أو تظاهراً بالأصالة ، بل بوصفها ايدولوجيا اطروف حياة أحاطت فعلاً بالملايين والملايين من الناس خلال فترة معينة من الزمن .

تعاليم تولستوي طوباوية لا شك في ذلك ، وهي بضمونها رجعية بأدق واعق ما في هذه الكلمة من معنى . إلا ان علينا أن لا نستنتج من ذلك إطلاقاً أن هذه التعاليم لم تكن اشتراكية ، أو أنها لم تكن تنطوي على عناصر نقد قادرة على أن توفر مادة ثمينة لتنوير الطبقات التقدمية .

هناك اشتراكية واشتراكية . ففي البلدان التي يكون شكل الانتاج فيها رأسمالياً ، توجد اشتراكية تعبر عن ايدولوجيا الطبقة المدعوة لان تحمل محل البرجوازية ، وتوجد اشتراكية تتطابق وايدولوجيا الطبقات التي تحمل البرجوازية

محلها . فالاستراكية الاقطاعية ، مثلاً ، استراكية من هذا النوع الأخير ، ولقد
قيّم مار كس منذ أمد طويل ، منذ أكثر من ستين سنة ، طابع استراكية كهذه
كما قيّم مختلف انواع الاستراكية (٧١) .

وبعد ، فإن العناصر الانتقادية تميز تعاليم تولستوي الطوباوية ، كما تميز
كثيراً من المذاهب الطوباوية . إلا أنه لا يجوز لنا أن ننسى ملاحظة مار كس
العميقة القائلة ان أهمية العناصر النقدية في الاستراكية الطوباوية «تناسب عكساً
والتطور التاريخي» . فبقدر ما يتطور نشاط القوى الاجتماعية التي «تنسق»
روسيا الجديدة وتحمل الخلاص من المصائب الاجتماعية الراهنة ، ويزداد طابعه
تحديداً ، «تفقد» الاستراكية الطوباوية الانتقادية «كل معنى عملي وكل
تبرير نظري لها» ،

منذ ربع قرن كان بوسع العناصر الانتقادية في تعاليم تولستوي أن تكون
أحياناً ذات نفع من الناحية العملية لبعض فئات الشعب ، على الرغم مما في
التولستوية من سمات رجعية وطوباوية . أما في العقد الأخير مثلاً ، فلم تعد الحال
كما كانت عليه ، إذ ان التطور التاريخي خطا خطوات لا بأس بها إلى الأمام منذ
عام ١٨٨٠ حتى نهاية القرن الماضي . وفي أيامنا هذه ، بعد ان وضعت الأحداث
المشار إليها آنفاً حداً للسكون «الشرقي» ، في أيامنا هذه ، حيث أصابت افكار
«الفيخيين» الرجعية عن وعي - الرجعية بالمعني الطبقي الضيق ، بالمعنى الطبقي
الأناني للكلمة - انتشاراً واسعاً جداً في اوساط البرجوازية الليبرالية ، حتى
أصابت بالعدوى قسماً من ادعياء الماركسية ، ووجدت تيار «التصفية» ،
كل محاولة في أيامنا لتمجيد تعاليم تولستوي ، وتبرير «عدم مقاومته» والتجائه
إلى «الروح» ودعوته إلى «الكهال الذاتي الأخلاقي» ، ومذهبه في «الضمير»
«والحب» الشامل ، ودعوته إلى التقشف وحياة التأمل الخ . او التخفيف من
وقعها إنما تجلب اكبر الضرر وافدحه .

طبع في ٢٢ كانون ثاني ١٩١١ ج ٢٠ ، ص ١٠٠ - ١٠٤

من مقال

« حول الحملة الانتخابية والبرنامج الانتخابي »

... قال ليف تولستوي قبل وفاته بقليل ، وقال بأسف يميز اسوأ جوانب « التولستوية » ، إن الشعب الروسي « تعلم » بسرعة فائقة « ان يضع الثورة ». ونحن نأسف فقط لأن الشعب الروسي لم يتقن تماماً هذا العلم الذي قد يبقى لقرون كاملة بدونه عبداً لامثال بوريشكيفتش. ولكنه من الصحيح أيضاً ان البروليتاريا الروسية ، في سعيها إلى تحويل المجتمع تحويلاً اشتراكياً تاماً ، اعطت الشعب الروسي بعامة ، والفلاحين الروس بخاصة ، دروساً لا تعوض في هذا العلم. ولان تستطيع اية مشائخ ينصبها ستوليبين ولا اي جهود يائسة يبذلها « الفيخيون » ان تنسي احداً هذه الدروس . لقد اعطى الدرس . والدرس يستوعب الآن . وسيعاد الدرس ...

طبع في ١٨ (٣١) / ١٠ / ١٩١١

ج ٢٠ ص ٣٦٢

من مقالات وخطب ورسائل
ما قبله أوكتوبر

من مقال

« اتجاه مفهوم في الاشتراكية الديمقراطية الروسية » (٧٢)

بدل تاريخ الحركة العمالية في مختلف البلدان على أن الفئات الأكثر أعداداً من العمال هي التي تتقبل بسهولة أكبر وقبل غيرها أفكار الاشتراكية ، ومن هؤلاء العمال بصورة رئيسية ، العمال – الطليعون الذين تفرزهم أي حركة عمالية ، وهم عمال يعرفون كيف يكسبون ثقة الجماهير العمالية كاملة ، عمال يكرسون انفسهم كلية لقضية تعليم البروليتاريا وتنظيمها ، عمال يتبنون الاشتراكية عن وعي كامل ، لا بل ينشئون بانفسهم نظريات اشتراكية . وقد اعطت أي حركة عمالية حية مثل هؤلاء القادة ، اعطت برودون وفاليان وفيتلنغ وبيل وغيرهم . وتبشر حركتنا العمالية الروسية بأنها لن تتأخر عن اختها الأوروبية في هذا المجال . وفي الوقت الذي يفقد فيه المجتمع الراقي الاهتمام بالأدب الشريف ، الأدب غير الشرعي ، ينمو بين العمال ميل شديد إلى المعرفة وإلى الاشتراكية ، ويبرز من بين صفوفهم أبطال حقيقيون يجدون في انفسهم من التصميم وقوة الإرادة ما يمكنهم من أن يتعلموا ويتعلموا ويتعلموا ، على الرغم من وضعهم الحيثاني البالغ السوء ، وعلمهم الشاق والمضني في المصانع ، ومن أن **يخلقوا** من انفسهم اشتراكيين ديمقراطيين حقيقيين و « انتليغنسيا عمالية » ، (*) . وهذه « الانتليغنسيا العمالية » موجودة الآن في روسيا ، وواجبنا أن نبذل كافة الجهود لكي تتوسع صفوفها باستمرار ، ولكي تلبى بشكل تام كافة حاجاتها العقلية العالية حتى يخرج من صفوفها قادة الحزب

(*) الانتليغنسيا كلمة روسية تعني فئة المثقفين .

الاشتراكي الديمقراطي العالمي . وعلى الصحيفة ، التي قد ترغب في أن تصبح لسان حال الاشتراكيين الديمقراطيين الروس جميعهم ، أن تكون في مستوى العمال الطليعيين : فليس عليها فقط ان لا تنحط بمستواها بشكل اصطناعي ، بل عليها ، بالعكس ، أن ترفع منه وأن تتابع مسائل الديمقراطية الاشتراكية العالمية كلها ، التكتيكية والسياسية والنظرية ، وعندئذ فقط يمكن إشباع متطلبات الانتليغنسيا الروسية التي تستطيع آئذ أن تأخذ بيديا القضية العالمية الروسية ، وبالتالي قضية الثورة الروسية .

ونأتي بعد هذا العدد القليل من الطليعيين فئة واسعة من العمال المتوسطين . وهؤلاء ينزعون بقوة إلى الاشتراكية ، ويشاركون في الحلقات العالمية ، ويقرؤون الصحف والكتب الاشتراكية ، ويشاركون في التحريض ، لكنهم يتميزون عن الفئة الأولى بأنهم لا يستطيعون أن يصبحوا قادة مستقلين تماماً للحركة الاشتراكية الديمقراطية العالمية . فهذا العامل الوسط لن يفهم هذه المقالة أو تلك من الصحيفة ، التي قد تكون لسان حال الحزب ، وقد لا يتبين تماماً إحدى المسائل النظرية أو العملية المعقدة . وليس معنى هذا أن على الصحيفة أن تهبط إلى مستوى جماهير قرائها ، بل واجبها ، على العكس ، أن ترفع من مستواهم وتساعد على إخراج عمال طليعيين من الفئة المتوسطة . إن على مثل هذا العامل ، الذي يستغرقه النشاط العملي المحلي ، والذي ينصب جل اهتمامه على اخبار الحركة العالمية ومسائل التحريض المباشرة ، أن يربط بين أي خطوة من خطواته وبين فكرته عن الحركة العالمية الروسية كلها ، وعن اهميتها التاريخية ، وعن الهدف النهائي للاشتراكية . ولهذا فعلى الصحيفة التي يشكل العمال المتوسطون جمهور قرائها أن تربط الاشتراكية والنضال السياسي بأي مسألة محلية وضيقة .

كتب في آواخر ١٨٩٩

ج ٤ ص ٢٦٨ - ٢٧٠

في ذكرى الأمير غيدين

(ماذا يعلم الشعب «ديمقراطيوننا» اللاخزيون ؟)

« عبرت الصحافة التقدمية كلها عن مواساتها العميقة للخسارة الفادحة التي حلت بروسيا بفقد ب. أ. غيدين . فشخصية بيوتر الكسندروفيتش الرائعة كانت تجذب إليها الناس الشرفاء كلهم من أي حزب أو اتجاه كانوا . فباله من مصير نادر وسعيد هذا المصير!!! » يلي ذلك مقتطفات واسعة من «روسكي فيدموسي» الديمقراطية الدستورية البينية ، حيث يفيض الأمير بافل ديمتريفتش دولغاروكوف رقة وحناناً ، وهو يستعيد حياة « هذا الانسان العجيب » ونشاطه . والأمير دولغاروكوف واحد من هذه السلالة الدولغاروكوفية التي اعترف بمثلها صراحة بمجنون ديمقراطيتهم ! الأفضل أن نسوي امورنا مع الفلاحين سلماً من أن ننتظر حتى يأخذوا الأرض بانفسهم ... » نحن نشاطر مشاطرة عميقة مشاعر الأمي التي بعثها موت الأمير غيدين في نفس من اعتاد أن يقدر الانسان منهما كان حزبه . والفقيه غيدين كان ، بالضبط ، إنساناً قبل أي شيء آخر .

هكذا نكتب جريدة «توفاريش» (٧٣) في عددها ٢٩٦ الصادر يوم

الثلاثاء في التاسع عشر من عام ١٩٠٧

ليس كتاب «توفاريش» اكثر الديمقراطيين حماسة في صحافتنا الشرعية وحسب ، بل يعتبرون انفسهم اشتراكيين - اشتراكيين تقديين بالطبع . إنهم يكادون يكونون اشتراكيين ديمقراطيين ؛ ويلقى المناشفة بليخانوف ومارتوف

وسميرونوف وبيريالافسكي ودان وغيرهم ترحيباً حاراً في الصحيفة التي يزين السادة بروكوبوفيتش وكوسكوف وبورتوغالوف وغيرهم من « الماركسيين السابقين » اعمدها بتوقيعهم . وبكلمة واحدة ، لا مجال لأي شك في أن كتاب « توفاريش » اكثر ممثلي مجتمعنا « المتنور » ، والبعيد عن العمل السري الضيق « والديمقراطي » الخ « يسارية » .

ولا يسعنا ، عندما تقع اعيننا على اسطر كالتي أوردناها سابقاً ، إلا أن نهتف بوجه هؤلاء السادة : أي سعادة لنا ، نحن البلاشفة ، أننا لم ننتم ، قصداً ، إلى هؤلاء الناس الشرفاء من صحيفة « توفاريش » !

أيها السادة « الشرفاء » من الديمقراطية الروسية المتنورة ! إنكم تعلمون الشعب الروسي البلاة ، وتسمونه بعفونات التؤلف والخنوع اكثر بمائة مرة مما يفعل جماعة المائة السود الشهيرين بوريشكيفتش وكروشيفان ودوبروفان ، الذين تخوضون ضدهم حرباً إلى هذه الدرجة من الجد والليبرالية والرخص ، وإلى هذه الدرجة من المنفعة والأمان لكم . أنهزون اكتافكم وتتوجهون إلى « شرفاء » مجتمعكم جميعاً بابتسامة ازدراء بخصوص هذه « المفارقات الغبية » جداً ؟ أجل ، أجل ! نحن نعرف بشكل رائع أن لا شيء في العالم يمكن أن يزعزع غروركم الليبرالي التافه . ولهذا بالضبط نسر ، لاننا نبحنا ، بنشاطنا كله ، أن نغزل أنفسنا عن حلقة شرفاء المجتمع الروسي المتنور بمجدار صلب .

هل نستطيع أن نجد أمثلة على أن جماعة المائة السود قد أفسدت وأربكت أي فئات واسعة من السكان ؟ كلا .

فلا صحافتهم ولا اتحادهم ولا اجتماعاتهم ولا انتخابات الدوما الأولى أو الثانية ، تستطيع ان تقدم مثل هذه الامثلة . جماعة المائة السود تثير غضب الشعب بأعمال العنف وبوحشيتها التي تشارك فيها الشرطة وقوات الجيش . المائة السود

يثيرون الحقد والاحتقار باحتيائهم ومكاندهم ورشاويهم . المائة السود ينظمون باموال الحكومات مجموعات وعصابات من السكيرين الذين لا يقدرّون على العمل إلا بإذن من البوليس وبتحريض منه . وليس لهذا كله أي تأثير فكري خطر على أي فئات واسعة من السكان .

وبالعكس ، فمثل هذا التأثير تمارسه دون شك صحافتنا الشرعية ، الليبرالية « والديمقراطية » . وما انتخابات الدوما الأولى والثانية ، والاجتماعات والاتحادات والتعليم إلا برهان على ذلك . وحديث « التوفاريش » بمناسبة موت غيدن يري بأم العين ماهية هذا التأثير الفكري .

« ... خسارة فادحة ... شخصية رائعة ... مصير سعيد . . . كان انساناً قبل أي شيء آخر » .

كلن الاقطاعي ، الأمير غيدن ، يمارس بكل نبل سياسة ليبرالية حتى ثورة اوكتوبر^(٧٤) . وانتقل بعد أول انتصار للشعب ، مباشرة بعد ١٧ اوكتوبر عام ١٩٠٥ ، وبدون أي تردد إلى معسكر الثورة المضادة ، إلى حزب الاكتوبريين ، إلى حزب الإقطاعي والرأسمالي الكبير ، الحاقدين على الفلاحين وعلى الديمقراطية . في الدوما الاولى كان هذا الرجل النبيل يدافع عن الحكومة ، أما بعد طرد الدوما الأولى فقد اخذ يتفق — لكن الاتفاق لم يتم — على الدخول في الوزارة . هذه هي اهم المراحل في حياة هذا الاقطاعي النموذجي المعادي للثورة .

ويظهر سادة ذوو ملابس لائقة ، متنورون ومتعلمون ، فوق شفاههم كلمات عن الليبرالية والديمقراطية والاشتراكية ، وخطب عن تعاطفهم مع قضية الحرية ونضال الفلاحين من أجل الارض وضد الاقطاعيين . انهم السادة الذين يحتكرون بالفعل المعارضة الشرعية في الصحافة والاتحادات والاجتماعات

والانتخابات ثم يعطون الشعب بعد ذلك وهم يرفعون عيونهم إلى العلاء : « يا له من مصير نادر وسعيد ! .. كان الامير الفقيد انساناً قبل أي شيء آخر » .

أجل ، لم يكن غيدين انساناً وحسب ، بل مواطناً عرف كي يرقى إلى فهم المصالح العامة لطبقته والدفاع عنها بذكاء كبير . أما انتم ، أيها السادة الديمقراطيون المتنورون ، فلستم إلا اغنياء صغاراً بكائين تسترون بغائكم الليبرالي أنسكم لستم أهلاً إلا لان تكونوا خداماً مثقفين لهذه الطبقة الاقطاعية نفسها .

إن تأثير الاقطاعيين في الشعب ليس بالامر الخفيف . فهم لن ينجحوا أبداً في أن يخذعوا جمهوراً واسعاً من العمال ، وحتى من الفلاحين لمدة طويلة . إلا ان تأثير المثقفين الذين لا يشاركون مباشرة في الاستغلال والذين تعلموا استعمال الكلمات والمفاهيم العامة ، المثقفين المولعين بالوصايا «الخيرة» ، الذين يرفعون ، عن طيب قلب وغباء في احيان كثيرة ، وضعهم بين الطبقات إلى مستوى المبدأ ، مبدأ الاحزاب القائمة فوق الطبقات ، والسياسة القائمة فوق الطبقات ، إن تأثير هؤلاء المثقفين البرجوازيين في الشعب خطير . هنا ، وهنا فقط ، يتضح جلياً تسميم الجماهير الواسعة تسميماً في مقدوره أن يجر وراءه أذى حقيقياً ، ومن الواجب تكتيل قوى الاشتراكية كلها لمحاربته .

- كان غيدين انساناً متعلماً ، مثقفاً ، انسانياً وصبوراً - يتكلم هؤلاء الليبراليون والديمقراطيون الحقيرون الضعيفون الإرادة وهم يلهثون بسرعة واندفاع ، متصورين انهم ارتفعوا فوق « أي حزبية » ، ارتفعوا حتى مستوى النظرة « الانسانية العامة » .

انكم مخطئون ، أيها المبجلون . ليست هذه النظرة نظرة انسانية عامة ، بل نظرة العبيد المترفين . إن العبد الذي يعي وضعه العبودي ، ويناضل ضد هذا الوضع لثأره . والعبد الذي لا يعي عبوديته ويقضي حياة عبودية صامتة

لا واية لا يفوه ببنت شفة هو عبد فقط . اما العبد الذي يسيل لعابه ، وهو يصف راضياً سحر حياة العبودية ، فهو جلف مستزلم . وانتم بالضبط أجلاف مثله ، ايها السادة من جريدة « توفاريش » . انكم تذبون رقة ونبلاً يبعثان الاشمئزاز ، وانتم تذكرون ان الاقطاعي المعادي للثورة والمساند لحكومة الثورة المضادة كان متعلماً وإنسانياً . انتم لا تفهمون انكم تجعلون من العبد جلفاً مستزماً بدلاً من ان تجعلوا منه ثائراً . كلما تكلم عن الحرية والديمقراطية يريق زائف وجميل محفوظة عن ظهر قلب وثرثرة شائعة او نفاق . إنها اعلان مصقول . وانتم انفسكم قبور مكلسة . نفوسكم الصغيرة نفوس عبيد أجلاف ، وما علمكم وثقاقتكم وتطوركم إلا نوع من البغاء الممتن . فانتم لا تبيعون ارواحكم دفعاً للحاجة وحسب ، بل « حباً بالفن » ايضاً !

وترددون بتأثر : كان غيدين دستورياً عنيداً إنكم تُرجفون او ان امثال غيدين قد خدروكم تماماً . ان تدعوا امام الشعب علناً من اسس حزباً يساند حكومة فيتي ودوباسوف وغوريميكين وستوليبيين انساناً دستورياً عنيداً يشبه قولكم عن كاردينال ما إنه مناضل عنيد ضد البابا . وبدلاً من ان تعلموا الشعب كيف يفهم الدستور فهمها صحيحاً ، تحولونه ، ايها الديمقراطيون ، في كتاباتكم إلى اكلة سمك بالفجل ، إذ لاسك ان الدستور للاقطاعي المعادي للثورة هو ، بالضبط ، اكلة سمك بالفجل ، إنه اكمل الاساليب في نهب وإخضاع الفلاح والجماهير الشعبية كلها . فإذا كان غيدين دستورياً عنيداً ، معناه ان دوباسوف وستوليبيين دستوربان عنيدان ايضاً ، لان غيدين نفسه كان يساند في واقع الأمر سياستها . ولم يكن باستطاعة دوباسوف وستوليبيين ان يكونا ما كانا عليه ويمارسا سياستها بدون مساعدة الاوكتوبريين ومنهم غيدين . على اي اساس يجب علينا ان نحكم على الوجه السياسي للانسان (الدستوري) ، أيها الديمقراطيون

العظيم والحكمة من الناس « الشرفاء » ؟ أمن خطبته ودقه على صدره
وذرفه دموع التأسيع ؟ أم من نشاطه الفعلي على الصعيد العام ؟

ما هو الشيء المميز ، النموذجي في نشاط غيدين السياسي ؟ هل انه لم
يستطع أن يتفق مع ستوليبين على الاشتراك في الوزارة بعد طرد الدوما الاولى ،
أم انه حاول الاتفاق مع ستوليبين ؟ هل انه كان يتلفظ فيما مضى بعبارات
ليبرالية أم أنه اصبح أوكتوبرياً (معادياً للثورة) بعد السابع من تشرين الاول
(اوكتوبر) مباشرة ؟ إنكم تعلمون الشعب ، حين تدعون غيدين دستورياً
عنيداً ، ان افعال غيدين الاولى هي النموذجية والمميزة . ومعنى هذا أنكم
ترددون مقتطفات من الشعارات الديمقراطية دون أن تفقهوا الفباء الديمقراطية .

إن الديمقراطية ، وتذكروا هذا جيداً ايها السادة الشرفاء من المجتمع
الراقي ، تعني النضال ضد سيطرة الاقطاعيين المعادين للثورة على البلد ، هذه
السيطرة التي ساندتها السيد غيدين وجسدها طوال حياته السياسية كلها . - كان
غيدين انساناً متعلماً ... يردد ديمقراطيوناً من رواد الصالونات وهم يذوبون رقة .
جل ، لقد اعترفنا بذلك ، ونعترف الآن بطيبة خاطر انه كان اكثر علماً وذكاء
(والعلم والذكاء لا يجتمعان دائماً) من الديمقراطيين انفسهم ، لانه كان يفهم
مصالح طبقته وحر كته الاجتماعية المضادة للثورة افضل مما تفهمون ، ايها السادة
من « توفاريش » ، مصالح الحركة التحررية .

كان هذا الاقطاعي المتعلم والمعادي للثورة يعرف كيف يدافع عن
مصالح طبقته بنهارة ومكر ويخفي ببراعة تحت ستار من الكلمات النبيلة ،
« واجنتلمانية » في مظهرها ، مطامع الاقطاعيين وجشعهم ويصرّ (أمام ستوليبين)
على إحاطة هذه المصالح بأكثر اشكال السيطرة الطبقية تمدناً . لقد ضحى غيدين
وأضرابه « بعلمهم » كله خدمةً لمصالح الاقطاعيين . وهذا الواقع كان يمكن

أن يكون لديمقراطي " حقيقي " ، لا جلف « شريف » من الصالونات الروسية
الرايكاكية ، موضوعاً عظيماً يظهر « تعهت » العلم في المجتمع المعاصر .

عندما يثرثر « الديمقراطي » عن العلم ، يريد أن يحدث في فكر القارئ
تصوراً عن المعارف الغنية والافق الواسع ونبل القلب والعقل . أمّا العلم بالنسبة
للأسياد من امثال غيدين فطلاء رقيق ، ترويض « وتدريب » على عقد أقنذ الصفقات
السياسية وأفظعها بطرق جنتمانية . فالأوكتوبرية ، ونظرية غيدين « في التجدد
السلمي (٧٥) » ومباحثاته مع ستولييين بعد طرد الدوما الأولى ، كانت كلها ،
من حيث جوهرها ، تدبيراً لأقنذ أمر وأفظعه ، وهو تنظيم الدفاع عن حقوق
النبلاء الروس في دم وعرق الموجيك الذي نهبه الغيدينيون دائماً وباستمرار حتى
عام ١٨٦١ ، وفي عام ١٨٦١ ، وبعد عام ١٨٦١ ، وبعد عام ١٩٠٥ ، تنظيماً
أكثر ما يكون أماناً وخبثاً وبراعة ورسوخاً من الداخل وتمويهاً من الخارج .

لقد علم نيكرا سوف وسالتيكوف منذ أمدٍ المجتمع الروسي أن
يتبين مصالح الاقطاعي المتعلم الجشعة تحت مظهره المصقول والمصوغ ، وعلموا
الشعب أن يبغض نفاق امثاله وغلاظة قلوبهم . أمّا المثقف الروسي المعاصر المنتمي
إلى حزب الكاديت (*) أو أبواقه ، الذي يتوهم نفسه الحافظ الأمين للتراث
الديمقراطي ، فانه يعلم الشعب الخنوع ، ويتباهى بعدم تحيزه بوصفه ديمقراطياً
لاحزبياً . إن مشهد هذا المثقف يكاد يكون أكثر بشاعة من مآثر دوبا سوف
وستولييين .

كان غيدين إنساناً ، كان إنسانياً ، - يردّد ديمقراطيو الصالونات في انبهار .

(*) - أظهر الكاديت من الهوان في تقييحهم غيدين أكثر بمائة مرة مما أظهره
الاسادة من « توفاريش » ، لكننا أخذنا هؤلاء مثلاً على « ديمقراطية » الناس « الشرفاء »
من المجتمع الروسي « الراقي » .

هذا التأثير بإنسانية غيدبن يذكرنا لابنيكراسوف وشيدر بن فقط ، بل بكتاب تورغنيف « مذكرات صياد » . أما ما إقطاعي متمدن ، متعلّم ، مهذب ناعم في تعامله مع الناس وذو صبغة أوروبية . يقدم هذا الإقطاعي الحمر لضيفه ويدير معه أحاديث فكرية رفيعة . ويسأل الإقطاعي خادمه : « لماذا لم تسخن الحمر ؟ » فيصمت الخادم ويشجب لونه . وينادي الإقطاعي خادماً آخر ويقول له دون أن يرفع صوته : « تصرف ... بخصوص فيودور » .

هاكم مثلاً صغيراً على « الانسانية » الغيدبنية ، أو الانسانية على طريقة غيدبن . إن إقطاعي تورغنيف « إنساني » أيضاً ... بالمقارنة مع سالتيتشيتشا مثلاً ، إنساني لدرجة أنه لا يذهب بنفسه إلى الإصطبل ليحقق ممّا إذا اتخذ خدمه الترتيبات الملائمة لجلد فيودور . إنه إنساني لدرجة أنه لم يهتم ببلّ القضبان التي يجلد بها فيودور في الماء . إنه ، هذا الإقطاعي ، لا يسمع لنفسه بضرب خادم أو شتمه ، إنه « يتصرف » من بعيد فقط بوصفه إنساناً متعلّماً ذا اساليب ناعمة وإنسانية ، بدون ضجة ، بدون فضيحة ، « بدون ظهور علنيّ » ..

هكذا تماماً إنسانية غيدبن هي الأخرى . إنه لم يشترك شخصياً في جلد الفلاحين وتعذيبهم مع امثال لوجينوفسكي وفيلونوف ، ولم يذهب في حملات نأديبية مع امثال رينينكامبف وميليرزا كاميلسكي . إنه لم يطلق الرصاص على موسكومع دوباسوف . كان إنسانياً لدرجة أنه امتنع عن مثل هذه المآثر ، تاركاً لامثال هؤلاء الابطال من « الاصطبل » الروسي أن « يتصرفوا » ، ومكتفياً بأن يقود ، من هدوء مكتبه الأنيق ، الحزب السياسي الذي ساند حكومة دوباسوف وأمثاله ، والذي شرب قاداته نخب دوباسوف ، قاهر موسكو .. أليس إنسانياً بالفعل أن ترسل امثال دوباسوف « ليتصرفوا بخصوص فيودور » ، بدلاً من أن تحضر أنت نفسك إلى الاصطبل ؟ إن هذا مثال الانسانية بالنسبة للعجائز القائمين على القسم

السياسي في صحافتنا الليبرالية والديمقراطية ... كان انساناً رائعاً ، لم يزعج ذبابة واحدة ! « مصير نادر وسعيد » أن تساند أمثال دوبا سوف وتنجني ثمار تشكيل امثاله، ثم أن لاتكون مسؤولاً عن امثال دوبا سوف .

يعتبر ديمقراطيو الصالونات أن اعلى درجات الديمقراطية هي الشكوى من أن امثلك غيدين لايحكموننا (إذ لاتخطر على بال غيي الصالونات هذا فكرة التقسيم « الطبيعي » للعمل بين غيدين وأمثال دوبا سوف) . اسمعوا :

« كم هو مؤسف أن يكون غيدين قد مات الآن بالضبط ، ونحن أحوج ما نكون إليه . إذاً لكان ناضل ضد اليميين المتطرفين ، مبدئياً أفضل جوانب روحه ، ومنافحاً عن المبادئ الدستورية بكل ما اتصف به من مهمة وفطنة . » (« توفاريش » العدد ٢٩٩ ، الجمعة ٢٢ حزيران ، « ذكرى الأمير غيدين » . رسالة من مقاطعة بسكوف) .

من المؤسف أن غيدين المتعلم والانساني وصاحب « التجدد السامي » لم يعد يستر بكلامه الفارغ عن الدستور عري الدوما الثالثة ، دوما اوكتوبر ، وعري السلطة الاستبدادية التي قوّضت الدوما ! إن مهمة الكاتب الاجتماعي « الديمقراطي » لا أن يمزق الستر الكاذبة ، لا أن يري الشعب اعداءه الظالمين بكامل عريهم ، بل أن يأسف لغياب المنافقين المجرّبين الذين يزينون صفوف الأوكتوبريين . « من هو الانسان التافه الضيق الافق ؟ إنه معاء فارغ مملوء جنباً وأملأ في أن يرحمه الله (٧٦) » . ومن هو الانسان التافه ، الضيق الافق ، الليبرالي الديمقراطي الروسي من معسكر الكاديت أو القريب منه ؟ إنه معاء فارغ مملوء جنباً وأملأ في أن يرحمه الاقطاعي المعادي للثورة !

حزيران ١٩٠٧

ج - ١٦ - ص ٣٧ - ٤٥

بطدد « الفيخي » ، (٧٧)

تمثل المجموعة الشهيرة « فيخي » ، التي وضعها كتاب ذوو تأثير عظيم من الكاديت ، وصدرت منها عدة طبعات متوالية في وقت قصير ، واستقبلتها الصحافة الرجعية كلها باعجاب كبير ، علامة حقيقية من علامات العصر . ومهما « صححت » صحف الكاديت بعض المقاطع الفظة منها ، وتبرأ منها بعض الكاديت العاجزين تماماً عن التأثير في مجمل سياسة حزبهم أو الهادفين إلى خداع الجماهير عن المعنى الحقيقي لهذه السياسة ، يبقى واقع لا شك فيه ، هو ان « فيخي » عبرت عن جوهر الكاديتية المعاصرة الحقيقي . وبالتالي فان حزب الكاديت هو حزب « الفيخي »

وعلى الديمقراطية العالمية ، التي تقدر اعلى التقدير نحو وعي الجماهير السياسي والطبقي ، ان ترحب « بالفيخي » بوصفها فضحاً ممتازاً ، يقوم به قادة الكاديت الفكريون ، لماهية انجاءهم السياسي . لقد كتب « الفيخي » السادة : بيرد ياييف وبولغاكوف وغرشنزون وكيستياكوفسكي وستروفي وفرنك وإيزغوييف . هذه الاسماء وحدها ، وهي اسماء نواب مشهورين ، ومرتدين مشهورين ، وكاديت مشهورين ، تفصح عن ذاتها بما فيه الكفاية . إن مؤلفي « الفيخي » بدون قادة فكر حقيقين لانجاء اجتماعي كامل ، وهم يقدمون بإيجاز موسوعة كاملة في مسائل الفلسفة والدين والسياسة والأدب وتقييم مجمل حركة التحرر وتاريخ الديمقراطية الروسية . إن مؤلفي « الفيخي » يقلصون الموضوع الحقيقي لمؤلفهم ، حين يضعون له عنواناً ثانوياً « مجموعة مقالات في الانتليغنسيا الروسية » ، اذان « الانتليغنسيا » تظهر عندهم فعلاً بوصفها القائدة الروحية لحركتي الديمقراطية الروسية والتحرر

الروسية كلتها ، وملهمتها والمعبرة عنها . « الفيخي » علامات بارزة على طريق انفصال الحركتين الكاديتية الروسية والليبرالية الروسية عامة انفصالا كاملا عن حركة التحرر الروسية ومهامها الأساسية وتقاليد الصميمية كلها .

- ١ -

تتناول موسوعة المرتدين الليبراليين ثلاثة مواضيع رئيسية : ١ - النضال ضد الاسس الفكرية لمجمل نظرة الديمقراطية الروسية (والعالية) إلى العالم ، ٢ - التخلي عن حركة التحرر في السنوات الأخيرة والتشهير بها ؛ ٣ - الاعلان الصريح عن مشاعرهم ، مشاعر العبيد (وبالتالي سياسة « العبيد ») نحو برجوازية اوكتوبر والسلطة القديمة ، ونحو روسيا القديمة كلها بوجه عام .

ويبدأ مؤلفو « الفيخي » من الاسس الفلسفية لنظرة « المتقنين » إلى العالم . وتبرز من خلال الكتاب كله فكرة النضال الحاسم ضد المادية التي توصف بأنها عقيدة ، ميتافيزيكا ، وبأنها « أدنى اشكال الفلسفة واكثرها بدائية » (ص ٤ الطبعة الأولى من « فيخي ») . كما يندد بالوضعية ، لأنها كانت والميتافيزيكا المادية شيئا واحداً « بالنسبة لنا » (أي بالنسبة للاتليغنسيا الروسية التي قضت عليها « الفيخي » ، أو لأنها كانت « تفسر بروح المادية فقط ، في حين لا يستطيع صوفي واحد أو مؤمن واحد أن ينكر الوضعية العلمية أو العلم » . لا تمزحوا ! « العداء للاتجاهات المثالية والدينية الصوفية » هو سبب تهجم الفيخي على « الاتليغنسيا » ، وعلى أي حال كان بور كيفتش فيلسوفاً حقيقياً بالمقارنة مع تشرنشفسكي .

من الطبيعي تماماً أن تتدد الفيخي دور كل بإلحاد المتقنين ، وتحاول بكل حزم تجديد النظرة الدينية بكل مداها بحكم أخذ اصحاب المجموعة بوجهة النظر تلك . ومن الطبيعي أن الفيخي ، بقضائها على تشرنشفسكي فيلسوفاً ، تقضي على بيلنسكي كاتباً اجتماعياً . فبلنسكي ودوبر الوبوف وتشرنشفسكي قادة

« المثقفين » (١٣٤ ، ٥٦ ، ٣٢ ، ١٧ الخ) . أما تشاباداييف وفلاديمير سولوفيوف ودوستويفسكي « فليسوا بمثقفين » . الأولون قادة اتجاه تحاربه الفيخي حرب حياة أو موت . أما الآخرون (فكانوا يؤكدون دون كلل) ما تؤكده الفيخي بالضبط . لكن « أحدا لم يصنع اليهم ، بل كان المثقفون يمرون بهم مرور الكرام » هذا ما تؤكده الفيخي .

ويستطيع القارئ أن يرى من هنا أن الفيخي لا تهاجم المثقفين ، فليس هذا إلا طريقة مصطنعة في التعبير لتعمية القضية . إن الهجوم يجري على طول الخط ضد الديمقراطية ، ضد النظرة الديمقراطية إلى العالم .

وبما أنه من المخرج بالنسبة لقادة فكر في حزب يعلن أنه « دستوري ديمقراطي » أن يسموا الأشياء بأسمائها الحقيقية ، تراهم يأخذون هذه العبارة عن (مسكوفسكي فيدموستي^(٧٨)) ويتخلون لا عن الديمقراطية (فيالها من فرية غير لائقة !) ، بل عن « الانتلغنسيا » فقط .

وتعلن الفيخي ان رسالة بيلنسكي إلى غوغول « تعبير ملتهب وكلاسيكي عن مزاج المثقفين » (٥٦) . « يعتبر تاريخ ادبنا الاجتماعي بعد بيلنسكي ، من حيث فهمه للعالم ، كابوساً متصلاً (٨٢) » .

هكذا ، إذاً ، هكذا . مزاج الفلاحين الاقنان ، وهو مزاج معادٍ للقنائة ، « مزاج مثقفين » إذاً . وتاريخ احتجاج أوسع جماهير السكان على مخلفات بقايا نظام القنائة في الحياة الروسية كلها ونضالها ضده من عام ١٨٦١ حتى ١٩٠٥ « كابوس متصل » . او لعل مزاج بيلنسكي في رسالته إلى غوغول لم يكن مرتبطاً بمزاج الاقنان في رأي مؤلفينا الاذكياء والمتعلمين ؟ او ان تاريخ ادبنا الاجتماعي لم يكن مرتبطاً باستياء الجماهير الشعبية من بقايا الظلم الاقطاعي ؟

كانت (موسكوفسكي فيدموستي) تحاول دائماً ان تبرهن على ان

الديمقراطية الروسية ، بدءاً من بيلنسكي ، لا تعبر مطلقاً عن مصالح اوسع جماهير السكان في نضالها لنيل ابط حقوق الشعب ، التي كانت تخرقها المؤسسات الاقطاعية ، بل تعبر فقط « عن مزاج مثقفين » .

إن برنامج « فيخي » وموسكوفسكي فيديموستي واحد في الفلسفة وفي الأدب الاجتماعي . إلا ان المرتدين الليبراليين في الفلسفة قرروا ان يقولوا الحقيقة كلها ، ويكشفوا برنامجهم كله (وهو محاربة المادية ، والوضعية المفسرة مادياً ، وتجديد الصوفية والنظرة الصوفية الى العالم) . اما في الأدب فهم يدورون ويلوبون ويراؤون . لقد قطعوا صلتهم بأهم افكار الديمقراطية ، وبابطال الاتجاهات الديمقراطية ، لكنهم يتظاهرون بأنهم يقطعون صلتهم بالمثقفين فقط .

لقد تحولت البرجوازية الليبرالية تحولاً حاسماً من الدفاع عن حقوق الشعب إلى الدفاع عن المؤسسات الموجهة ضد الشعب ، لكن السياسيين الليبراليين يودون الاحتفاظ باسم « ديمقراطيين » .

إن تاريخ حر كتنا القريب يتعرض الآن للشعوذة نفسها التي تعرضت لها رسالة بيلنسكي إلى غوغول وتاريخ الأدب الروسي الاجتماعي .

- ٢ -

إن الهجوم الذي يشن على صفحات « الفيخي » لا يستهدف بالفعل إلا تلك الاتليغنسيا التي عبرت عن الحركة الديمقراطية ، ويستهدفها فقط بمقدار ما كانت شريكة حقيقية في هذه الحركة . (الفيخي) نشن هجوماً محموماً على الاتليغنسيا بالضبط ، « لكون هذه الفئة القليلة العاملة في السر قد برزت إلى عالم الوجود وكسبت كثيراً من المريدين ، واصبحت ، لفترة ما ، ذات تأثير فكري ، لا بل ذات قدرة فعلية » (١٧٦) . كان الليبراليون يتعاطفون مع الاتليغنسيا ويساندونها في بعض الاحيان سراً ، مادامت فئة صغيرة تعمل في السر فقط ،

مادامت لم تكسب كثيراً من المريدین، ما دامت لم تصبح قادرة فعلاً . وهذا يعني أن الليبرالي كان يتعاطف مع الديمقراطية ما دامت هذه لم تحرك الجماهير الحقيقية ، إذ انها لم تكن تخدم ، بدون إشراك الجماهير ، إلا أهداف الليبرالي الأنانية ، ولم تكن تساعد إلا على وصول الأوساط العليا من البرجوازية الليبرالية إلى السلطة .

إلا ان الليبرالي تخلى عن الديمقراطية ، حين جذبت اليها الجماهير التي بدأت تحقق اهدافها وتدافع عن مصالحها . ان الكاديت يشنون ، في الواقع ، حرباً على الحركة الديمقراطية للجماهير ، وهم يسترون ذلك بصراخهم ضد المثقفين الديمقراطيين . وإليكم واحداً من الامثلة الظاهرة العديدة على ذلك . يعلن الكاديت في « الفيخي » أن الحركة الاجتماعية العظيمة في فرنسا أواخر القرن الثامن عشر هي « ثورة مثقفين استمرت زمناً كافياً وكشفت عن امكاناتها الروحية كلها ، (٥٧) هذا جميل ، أليس كذلك ؟ الحركة الفرنسية في أواخر القرن الثامن عشر لا تمثل ، وأرجوكم أن تروا ذلك ، نموذجاً لا عمق حركة ديمقراطية جماهيرية وأوسعها ، بل نموذجاً لثورة « مثقفين » ! وبما أن المهام الديمقراطية لم تتحقق في أي زمان أو مكان دون حركة متجانسة ، فمن الواضح تماماً ان قادة الليبرالية الفكرين يقطعون صلتهم بالديمقراطية بالذات .

إن « الفيخي » تنعى على الانتليغسيا الروسية على وجه الضبط كونها تعبيراً عن كل حركة ديمقراطية ورفيقاً ضرورياً لها . « لقد تم بسرعة مذهلة تلقح الراديكالية الاجتماعية للغرائز الشعبية (*) بالراديكالية السياسية لافكار المثقفين » (١٤١) ، ولم يكن هذا « خطيئة سياسية أو خطيئة تكتيكية فقط ،

(*) « غرائز الجماهير الشعبية التي تأملت كثيراً » — نجد هذه العبارة بعد سطرين من الصفحة نفسها .

بل كانت هناك خطيئة اخلاقية » . فلا يمكن أن تكون حركة ديمقراطية ، حيث لا توجد جماهير شعبية تأملت كثيراً . وتميز الحركة الديمقراطية عن « العصيان » بكونها تم ، بالضبط ، تحت شعار افكار سياسية راديكالية معينة . ليست الحركة الديمقراطية والافكار الديمقراطية مخطئة سياسياً وغير مناسبة تكتيكياً فحسب ، بل مخطئة أخلاقياً أيضاً - هذا هو محتوى فكرة « الفيخي » الحقيقي ، وهو محتوى لا يختلف في شيء عن افكار بايدانوستسيف الحقيقية . إلا أن بايدانوستسيف قال ما يقوله امثال ستروفي وإيزغوييف وفرانك وشركاهم بشكل أصرح وأشرف .

وعند ما تبدأ « الفيخي » اعطاء تحديد اذق لمضمون افكار « المثقفين » البغيضة ، تتحدث بالطبع عن الافكار « اليسارية » بعامة ، والماركسية والشعبية بخاصة ، فتتهم الشعبين « بحبهم الكاذب للفلاح » والماركسيين « بحبهم الكاذب للبروليتاري » (٩) ، ثم تذرو أولاء وأولئك هباء « لتعبد للشعب » (٥٩، ٥٩-٦٠) . إن الله ، بالنسبة للمثقف البغيض ، « هو الشعب » ، وهدفه الأوحيد هو سعادة الاكثرية ، (١٥٩) . « إن الخطب العاصفة ، التي تفوهت بها الكتلة اليسارية الملحدة » ، هي اكثر ما يذكره الكاديت بولغاكوف من الدوما النازية ، واكثر ما يثير استياءه . ولا يوجد ادنى ريب في ان بولغاكوف عبر هنا تعبيراً اوضح من سواه عن النفسية العامة للكاديت وعن مكنون افكار حزبهم كله .

إن طمس الفروق بين الشعبية والماركسية ليس أمر عرضياً ، بل حتماً بالنسبة للبرالي . وهو ليس « هفوة » أديب (يعرف ، على أي حال ، هذه الفروق تماماً) ، بل تعبيراً منطقياً عن ماهية الليبرالية حالياً . إذ ان البرجوازية الليبرالية في روسيا لا تبغض ولا تخاف ، في الوقت الراهن ، الحركة الاشتراكية للطبقة العاملة في روسيا ، بقدر ما تبغض وتخاف حركة العمال والفلاحين الديمقراطية ، أي ما هو مشترك بين الشعبية والديمقراطية ، ألا وهو الدفاع عن الديمقراطية عن

طريق التوجه إلى الجماهير . إن ما يميز الفترة الراهنة هو أن الليبرالية في روسيا تحولت تحولاً حاسماً ضد الديمقراطية . فمن الطبيعي تماماً ألا تنهما الفروق الموجودة داخل الحركة الديمقراطية ولا الأهداف النهائية والابعاد أو الآفاق التي يهد لها تحقيق الديمقراطية ..

« الفيخي » تعج بكلمات من نوع « التعبد للشعب » . وهذا ليس عجباً ، إذ لم يبق أمام البرجوازية الليبرالية التي تخاف الشعب إلا أن تقيم الدنيا وتقعدها بصراخها عن « تعبد الديمقراطيين للشعب » . إن التراجع لا يمكن تغطيته إلا بقرع الطبول قرعاً قوياً بنوع خاص . وبالفعل ، لا يمكن نكران أن الدوما الأولى والثانية عبرتا ، في أشخاص نواب الفلاحين والعمال بالضبط ، عن المطالب والمصالح والآراء الحقيقية للجماهير العمال والفلاحين . وهؤلاء النواب « المتقفون » (*) بالذات هم الذين اثاروا في نفوس الكاديت حقداً على « اليساريين » لا حدود له لفضحهم تراجعات الكاديت المستمرة عن الديمقراطية .

ولا يمكننا بالفعل أن ننكر « النظام الانتخابي الديمقراطي » (**) . ومع هذا لا يشك أي سياسي شريف في أنه لو جرت انتخابات وفق أحكام هذا النظام ، أي انتخابات ديمقراطية حقاً ، لكانت الاكثوية الساحقة إلى جانب نواب جماعات العمل ونواب الحزب العمالي .

ولا يبقى أمام البرجوازية الليبرالية ، التي ادارت وجهها إلى الوراء ، إلا أن

(*) ان تشويه « الفيخي » للتعني العادي لكلمة « مثقف » لمضحك . إذ يكفيننا أن نتصفح جداول نواب الدوما الأولى والثانية حتى نرى فوراً أن الاكثوية الساحقة من الفلاحين هي عند جماعات العمل ، وأن اكثوية العمال في الحزب الاشتراكي الديمقراطي ، وأن جمهور المثقفين البرجوازيين يتركز في الكاديت .

(**) كان هذا النظام الانتخابي يتضمن أربعة مطالب : حق الانتخاب العام والمتساوي والمباشر والسري .

تغطي انفصالها عن الديمقراطية بكلمات تقتبسها من «موسكوفسكي فيدوموسي» و «نوفوي فرميا». وهذه الكلمات ترصع مجموعة «فيخي» كلها .

الفيخي تيار متصل من الأقطار يصب على الديمقراطية . فمن المفهوم إذاً ان يخف كتاب «نوفوي فرميا» روزانوف ومينشكوف وستولين إلى معانقة (الفيخي) . ومن المفهوم أيضاً ان يستبد الانهار بأناتولي فولينسكي من مؤلف قادة الليبرالية هذا .

وتكتب الفيخي قائلة : عندما كان المثقف يفكر في واجبه نحو الشعب ، لم يكن يخطر له على بال أبداً أن فكرة المسؤولية (التي يفترضها هذا الواجب) يجب أن توجه لآله ، أي المثقف فحسب ، بل إلى الشعب أيضاً (١٣٩) . كان الديمقراطي يفكر في توسيع حقوق الشعب وحرية مجسداً هذه الفكرة بكلامه عن « واجب » الطبقات العليا . لكنه لم يكن في وسع الديمقراطي ، ولن يكون في وسعه ، ان يفكر في امكانية الحديث عن «مسؤولية» الشعب أمام الطبقات الحاكمة في بلد ما قبل «الاصلاح» أو في بلد «دستور» الثالث من حزيران (٧٩) . وحتى يستطيع الديمقراطي أو دعي الديمقراطية أن « يفكر » في هذا ، لابد له من ان يتحول نهائياً إلى ليبرالي معاد للثورة .

ونقرأ في (الفيخي) ما يلي : إن الانانية وتوكيد الذات قوة عظيمة . وهي ، بالضبط ، التي تصنع من البرجوازية الغربية أداة جادة لا واعية لقضية الله على الأرض (٩٥) . وهذا ليس إلا رواية مصححة للعبارة الشهيرة «Enrichissez Vous» (٨٠) اغتنوا ! ، أو لعبارتنا الروسية « اعتمادنا على الاقوياء » . عندما كانت البرجوازية تساعد الشعب في نضاله طلباً للحرية ، كانت تعلن هذا النضال قضية الهية . وعندما خافت الشعب وتحولت إلى مساندة كافة اساليب القرون الوسطى الموجهة ضد الشعب ، صارت تسمى « الأنانية » والإثراء والسياسة

الخارجية الشوفينية الخ قضية إلهية . هذا ما كان في كل مكان من أوروبا ، وهذا ما يتكرر الآن في روسيا .

« كانت على الثورة أن تنتهي شكلاً ومضموناً بوثيقة السابع عشر من أكتوبر ، — هذه هي بداية الأوكتوبرية ونهايتها ، أي برنامج البرجوازية المعادية للثورة . هذا ما كان يردده الأوكتوبريون ، ووفقه علناً يعملون . في حين أن الكاديت كانوا يعملون ما يعمله الأولون وإنما بالسري (وابتداء من السابع عشر من أكتوبر) ، لكنهم كانوا يرغبون في الوقت نفسه في التظاهر بأنهم ديمقراطيون . ولهذا ، فالتمييز الكامل والواضح والصريح بين الديمقراطيين والمتردين أمر في غاية النفع والضرورة لانتصار قضية الديمقراطية . ويجب استغلال « الفيخي » لهذه القضية الضرورية . فالمرتد ايزغوييف يكتب ما يلي : « يجب أن تكون فينا الجرأة لنعرف ، أخيراً ، أن الغالية العظمى من النواب في دومانا ، باستثناء ثلاثين أو أربعين من الكاديت والأوكتوبريين ، لم يكن عندها من المعارف ما يمكنها من قيادة روسيا وإعادة بنائها » (٢٠٨) . طبعاً . فمن أين للنواب المويجيك أو العمال أن يأخذوا على عاتقهم هذه المهمة . من الضروري إذاً أن تكون في الدوما أغلبية من الكاديت والأوكتوبريين ، وبالتالي أن تقوم دوما ثالثة تأمناً لهذه الأغلبية ..

ولكي يفهم الشعب ومن يتعبدون له كامل « مسؤوليتهم » أمام المتقلدين زمام الأمور في الدوما الثالثة ، وفي روسيا الدوما الثالثة ، يجب أن ندعو الشعب مع انطون فولينسكي ، إلى « التوبة » (الفيخي ، ٢٦) ، وإلى « الرضوخ » ، (٤٩) ، وإلى النضال ضد « عجرفة المثقف » (٥٢) ، وإلى « الطاعة » (٥٥) وإلى « تناول الطعام البسيط والغليظ بحسب وصايا موسى العشر » (٥١) ، وإلى مكافحة « جمهرة الأبالسة التي دخلت جسد روسيا العملاق » (٦٨) . فإذا كان الفلاحون ينتخبون جماعات العمل والعمال الاستراكيين الديمقراطيين ، فما هذا إلا

وسوسة شيطانية ، إذ ان الشعب يكنّ ، بطبيعته ، كما اكتشف هذا منذ أمد طويل كاتكوف وبويدا نوستيف ، « بغضاً للمثقفين » (٨٨)؛ إقرأ : الديمقراطية) .
 من واجب المواطنين الروس اذاً - كما تعلمنا « الفيجي » - « أن يباركوا هذه السلطة التي نحمينا ، « نحن المثقفين » ، وهي وحدها التي نحمينا مجراها وسجونها من غلبة الشعب » (٨٨) .

هذا الخطاب جيد لأنه صريح ، ومفيد لأنه يكشف الماهية الحقيقية لسياسة حزب الكاديت كله خلال سنوات ١٩٠٥ - ١٩٠٩ . وهذا الخطاب جيد ، لأنه يكشف بإيجاز ووضوح روح « الفيجي » . « والفيجي » جيدة ، لأنها تكشف روح السياسة الفعلية للبراليين الروس بمن فيهم الكاديت . ولهذا السبب كان نقاش الكاديت مع (الفيجي) ونجليّ الكاديت عن « الفيجي » رياء متصلاً ولغوياً لا نفع فيه . إذ ان الكاديت ، بوصفهم جماعة ، حزباً ، قوة اجتماعية ، مارسوا ويمارسون سياسة الفيجي ذاتها . ان الدعوة للمشاركة في دوما بوليغين^(٨١) في آب وأيلول من عام ١٩٠٥ ، وخيانة قضية الديمقراطية في آخر هذه السنة نفسها ، والخوف المنتظم من الشعب والحركة الشعبية والنضال المنتظم ضدّ العمال والفلاحين في الدوما الأولى والثانية ، والتصويت لصالح الميزانية وخطب كارأولوف عن الدين ، وبيريزوفسكي عن المسألة الزراعية في الدوما الثالثة ، والسفر الى لندن^(٨٢) - هذه كلها علامات لا حصر لها على هذه السياسة ، وعلى مثل هذه السياسة التي تدعو اليها « الفيجي » ، فكريّاً .

ولن نستطيع الديمقراطية الروسية أن تخطو خطوة واحدة الى الأمام ما لم تفهم جوهر هذه السياسة ، وما لم تفهم جذورها الطبقة .

١٩٠٩ / ١٢ / ١٣

ج ١٩ ، ص ١٦٧ - ١٧٥

من مقال

« جماعة » فيريود « (٨٣)

أصدرت جماعة فيريود في باريس « مجموعة من المقالات حول المسائل الدورية » بعنوان « فيريود ». وبصدر كراس الرقيق ساجين (« في مسألة بعث الحزب ») الذي نشره على نفقته الخاصة ، وبصدر البيان الذي وقعته جماعة « فيريود » ، والبرنامج الذي أقرته ، توفر للحزب الآن من المعطيات ما يكفي للحكم على الفيرويين .

يتميز برنامج الفيرويين بالخواص الثلاث التالية : أولاً ، إنهم أول من يطرح ، من بين جماعات حزبنا وفئاته كلها ، فلسفة ويطرحها تحت اسم مستعار . « الثقافة البروليتارية » ، « الفلسفة البروليتارية » - هذا ما يتضمنه برنامجهم . وما يختفي تحت هذا الاسم المستعار هو الماخية أي الدفاع عن المثالية الفلسفية بأشكالها المختلفة (من تجربة انتقادية وتجربة احادية الخ ..) . وأعلنت هذه المجموعة ، ثانياً ، أن الأوتروفيه ^(٨٤) « لون مشروع » في المجال السياسي ، وأخبرت أن لا يوافقون على تحديد مهام الحزب بالنسبة لمجلس الدوما . وقد عرض هذا التحديد في برنامج الفيرويين بغموض وتشويش لا يمكن معها وصف هذا التحديد إلا بأنه مداراة لأفكار الأوتروفين . والخاصة الثالثة والأخيرة هي أن البرنامج دان بحزم الانشقاق وطالب بتوحيد مختلف الفئات وصرها في الحزب .

وهكذا يكون حاصل ما لدينا ، إذا بدأنا من النقطة الأخيرة ، رغبة طيبة جداً ورغبتان أخريان مغلفتان باتجاه فكري وسياسي رديء جداً ، تعبران عن الانفصال عن الماركسية ، وعن إخضاع البروليتاريا للسياسة والايديولوجيا البرجوازيتين . ويظهر كتاب « فيريود » جلياً النتائج التي فحصل عليها من هذا الخليط .

فكسيموف ، صاحب المقالة الافتتاحية ، يلتزم بثبات بدبلوماسية البرنامج ، حين يتحدث عن « الثقافة البروليتارية » دون أن يوضح ما يقصده بهذه العبارة . إن اللعب « بالغمضة » في مقال يزعم صاحبه انه كتبه لعرض الآراء بصورة شعبية مبسطة لأمر يفتأ العين . فأني تبسيط هذا وأي شعبية هذه ، إذا كان لا يوجد قارئ واحد ، باستثناء الذين يعرفون مكسيموف شخصياً أو الذين يتابعون كل مراحل النقاش الدائر حول الماخية أو بسببها ، يستطيع ان يفهم المعنى الحقيقي لعبارة كهذه ؟ وأي شعبية هذه ، عندما يتحدث مكسيموف نفسه في الصفحة الرابعة من الكتاب عن « خطر المنحدرين من الانتليغنسيا على الاشتراكية البروليتارية » ، أولئك الذين يتقبلون دون تمحيص أفكار العلم والفلسفة البرجوازيين غير الصحيحة والضارة بالبروليتاريا ويدعون اليها ... ؟

النقاط الثلاث من وضع مكسيموف . فهل تعني هذه النقاط صمتاً خجولاً ؟ لا ندرى . لكننا نعرف يقيناً ان الحديث في مقال « شعبي مبسط » عن ضرر « الفلسفة البرجوازية » على البروليتاريا ، دون ان تحدد بدقة ووضوح الفلسفة المقصودة بالضبط ، معناه اللجوء الى أسوأ انواع الدبلوماسية الانشاقية . فإذا كنتم تعتبرون مسألة الفلسفة البرجوازية مسألة هامة ، وكنتم تطرحونها في المقالة الافتتاحية « لكتاب مبسط » ، لتكن عندكم الرجولة إذاً لأن تتحدثوا بصراحة . دافعوا عن أفكاركم ولا تخفوها .

ونحرق الرفيق ساجين ، بوصفه « إنساناً عملياً » على ما يبدو ، دبلوماسية

مكسيموف بكثير من قلة التهذيب (٧) . فهو يطالب في الصفحة (٣١) من كراسه بتأمين « حرية الفكر الثوري والفلسفي التامة لأعضاء الحزب » .

إنه لشعار انتهازي تماماً هذا الشعار، لم يطرحه إلا الانتهازيون، الانتهازيون داخل الأحزاب الاشتراكية في مختلف البلدان ، ولم يكن يعني بالفعل شيئاً سوى « حرية » إفساد الطبقة العاملة بالأيديولوجيا البرجوازية . نحن نطالب الدولة (وليس الحزب) « بحرية الفكر » (إقرأ : حرية الصحافة والقول والمعتقد) تماماً كما نطالب بحرية الاتحادات . أما حزب البروليتاريا فاتحاد حرّ قام للنضال ضد « أفكار » (إقرأ : أيديولوجيا) البرجوازية، وللدفاع عن شيء واحد محدد وتطبيقه في الحياة ، ألا وهو النظرة الماركسية الى العالم . هذه هي الفباؤنا . وقد أنسى مكسيموف وساجين وشركاهما هذه الألف باء زيف موضوعتهم السياسية . فزيف موقفهم السياسي ، لاريأؤم الشخصي، هو الذي ولد عندهم المناداة بالشعارات البرجوازية . وفحوى هذا الزيف أن بعض الفيريويدين يريدون بكل جوارحهم جرّ البروليتاريا الى الوواء ، الى افكار الفلسفة البرجوازية (الماخية) ، وبعضهم الآخر لا مبالٍ بالفلسفة ، يطالب فقط « بالحرية التامة » ... للماخية . ولهذا نراهم جميعاً مجبرين على المداورة والتشويش واللعب « بالغميضة » والتمسك بالشعارات البرجوازية .

وماذا تعني عملياً « حرية الفكر الثوري التامة » ؟ لا شيء ، اللهم إلا

(٧) في كتاب فيريود يثرثر انسان عملي آخر هو عامل النسيج البطربرجي إ. ن. بشكل غير دبلوماسي بناداً فيقول ، « يجب القول بالمناسبة إن كتاب ييلنوف « النظرة الموحدة » (monistique) بشكل خاص قد يثير تصوراً غير صحيح عن المادية التاريخية . أه بالطبع ! فأصح « تصور عن المادية التاريخية » تعطيه ، طبعاً ، كتب الماخيين وبناء الله الروس . ومن من الفيريويدين لا يعرف ذلك ؟ ومن أين لكتاب تربى عليه جيل كامل من الماركسيين الروس ان يضارع مؤلفات أمثال يوشكيفتش وبوغدانوف ولونانتشارسكي الفلسفية ؟

حورية اعتناق الأفكار الأوتروفية والنصف فوضوية وغيرها . اي اننا نجد هنا الأفكار نفسها التي عبر عنها الفييربوديون في برامجهم بالجملة التالية ، وهي الاعتراف بالأوتروفية « لوناً شرعياً » ونجد أنفسنا مرة أخرى أمام افكار تصاغ بدبلوماسية نافية ، ومرة أخرى أمام لعب « بالغمضة » ، ومرة أخرى أمام نفاق يفسره تفسيراً كاملاً الموقف الفكري والسياسي الزائف القائل : نحن لسنا ماخين ، لكننا أنصار إعطاء « الحرية التامة » للماخية (في الحزب) ؛ نحن لسنا أوتروفيين ، لكننا أنصار إعطاء « الحرية التامة » للون الأوتروفي أو « للفكر الثوري » بوجه عام ! وبلغ التشويش غايته عندما يعلن اثنان من الفييربوديين (ساجين والعامل أر .) بحزم وبتوقعها الشخصي عن رأيها في أهمية استخدام الامكانيات المشروعة ومنصة الدوما وضرورة ذلك ، إذ يقول العامل أر . : « على الديمقراطيين الاستراكيين ان يناضلوا ضد من يحرض (من ذا الذي يحرض ايها الرفيق ؟ أليسوا فييربوديكم ؟) على عدم استخدام الامكانيات الشرعية المتوفرة أياً كان هذا الاستخدام (عجباً !) ، لأن هذا الشكل من الأعمال ليس اشتراكياً ديمقراطياً (ص ٤٨ - ٥٩ من الكتاب) . وهذا هو ذا الرفيق أر . نفسه يشتم « البروليتاري » ^(٨٥) (في عدد سابق) بعنف ، في الوقت الذي يردد فيه كلمات البلاشفة أنصار اتجاه « البروليتاري » ، لأنها صبغت الفييربوديين بالوان رهيبية كما يزعم . اليكم ما يسمى بتراجع المرء على طول الخط ، بالتخلي عن مواقعه كلها ، بإدانة أصدقائه الفييربوديين الذين اتخذوا ذات يوم قراراً بمقاطعة مؤتمر الأطباء مثلاً ، وإدانتهم على صفحات الجرائد (دون أن يصرح بذلك مباشرة في هذه المرة أيضاً) ، ثم تغطية تراجعه واستسلامه بدق طبول الحرب . يالها من دبلوماسية انشاقية نافية ! ..

طبع في ١٩١٠/٩/١٢

ج ٩ ص ٣١٢ - ٣١٥

حملة أخرمم علم الديمقراطية

لم يلق (الفيخي) ، وهو الكتاب الذي اشتهر شهرة ملطخة بالعار وحظي بنجاح هائل في اوساط المجتمع البرجوازي الليبرالي المشبع بنزعات الردة ، ما يكفي من الرد والتقييم العميق في معسكر الديمقراطية .

وقد حدث هذا ، لأن فترة نجاح (الفيخي) تطابقت مع فترة كادت فيها الصحافة الديمقراطية « العلنية » أن تكون مخنوقة تماماً .

والآن يعاود السيد شيبيتين إصدار طبعة جديدة من « الفيخي » في «روسكاياميسل » (آب) . وهذا طبيعي جداً من لسان حال الفيخوفين الذي يحمره رئيس المرتدين السيد ستروفي . وبالمقابل سيكون طبيعياً جداً من الديمقراطية ، وعلى الأخص الديمقراطية العمالية ، ان حاولت أن تعوض ولو القليل مما يتوجب عليها نحو الفيخوفين .

- ١ -

لقد خرج عليا السيد شيبيتين ، من حيث الشكل ، « برسالة » متواضعة « من فرنسا » يتحدث فيها عن الروس في باريس ، إلا أن هذا الشكل المتواضع يخفي ، في الواقع ، « مناقشة » محددة تماماً لثورة ١٩٠٥ الروسية وللديمقراطية الروسية . يقول هذا الفيخوفي : « لا زلنا نذكر كلنا هذا العام المقلق » (هكذا إذا ! مقلق بالنسبة لمن ايها السيد الليبرالي الجزيل الاحترام ! ؟) ، المضطرب والمشوش كله ، عام ١٩٠٥ .. » .

« مضطرب ومشوش كله » ! كم من القذارة واوحال المستنقعات يجب ان يكون في نفس إنسان يستطيع ان يكتب امثال هذه الكلمات . لقد اطلق اعداء ثورة عام ١٨٤٨ الالمانيون على هذا العام اسم « العام المجنون » . وها هو ذا الكاديت من مجلة « روسكاياميسل » يعبر عن الفكرة نفسها ، او قل الذعر الرعديد والبليد نفسه .

وسنواجهه ببعض الوقائع ، وأكثرها موضوعية « وتواضعاً » . لقد ارتفعت رواتب العمال في هذا العام كما لم ترتفع من قبل أبداً ، وتدنّت أسعار إيجار الأرض . كانت مختلف أشكال توحيد العمال حتى الحدم منهم بنجاح لم نعهده من قبل ، وأخذ الشعب ، الجماهير ، « الطبقات الدنيا » تقرأ ملايين المنشورات الرخيصة التي تعالج مواضيع سياسية بنهم لم نعرفه روسيا حتى الآن .

لقد هتف نيكرا سوف في الزمن الغابر :

. . . هل سيأتي الوقت ،

(أسرع أسرع أيها الحبيب !)

حين يحمل الشعب من السوق

لا بلوخر ولا الميلورد الغبي ،

بل بيلنسكي وغوغول ؟

وها هو ذا « الوقت » ، الذي طالما حين إليه أحد الديمقراطيين الروس القدامي ، قد أتى . فترك الناس تجارة الشوفان الى تجارة أخرى أربح ، هي الاتجار بالكراريس الديمقراطية الرخيصة الثمن . لقد أصبح الكتاب الديمقراطي الصغير سلعة السوق . وهذا الأدب الجديد الذي يغمر السوق مشبع بأفكار بيلنسكي وغوغول التي جعلتها أثربن على قلب نيكرا سوف وقلب كل انسان شريف في روسيا . . .

... ياله من « اضطراب » ! هكذا هتف الخنزير الليبرالي المغرور ودعي العلم والثقافة (لكنه ليس في حقيقة الأمر إلا خنزيراً قذراً وبشعاً ومكتزراً شحماً) . هكذا هتف ، وهو يرى هذا « الشعب » يحمل من السوق فعلاً . . . رسالة بيلنسكي إلى غوغول .

لكن هذه الرسالة ليست ، على وجه الدقة ، إلا رسالة « مثقف » ، كما أعلنت « الفيخي » وسط عاصفة من تصفيق روزا نوف من جماعة « نوفوبي فرييا » وانطون - فولينسكي .

ياله من منظر معيب ! - يقول الديمقراطي من بين أفضل الشعبين . وياله من منظر تتعظ منه ! - نتابع نحن قائلين . ياله من منبه لأوثك الذين كانوا ينظرون نظرة عاطفية إلى مسائل الديمقراطية ، وياله من شاهد لكل ما هو حيّ وقويّ في أوساط الحركة الديمقراطية ، يكنس دون رحمة الأوهام الأبولوموفية العفنة !

خيبة الأمل في الليبرالية أمر ينفع من كان مشغولاً بها في وقت من الأوقات . أمّا من يودّ أن يتذكر تاريخ الليبرالية الروسية القديم ، فيسرى في موقف الليبرالي كافلين من الديمقراطي تشرنشفسكي صورة دقيقة جداً لموقف حزب الكاديت ، المكون من البرجوازيين الليبراليين ، من الحركة الديمقراطية الروسية الجماهيرية . لقد « وجدت » البرجوازية الليبرالية في روسيا « نفسها » ، أو قل على الأصح وجدت ذنبها . أو لم يحن الوقت بعد للديمقراطية في روسيا أن تجد رأسها ؟

وإنه لأمر لا يطاق بنوع خاص أن نرى أشخاصاً تافهين كشيبيتيف وستروفي وغريديسكول وغيرهم من جماعة الكاديت يتمسكون بأذيال نيكرا سوف وشيدرين وغيرهما . الحقيقة أن نيكرا سوف كان يتأرجح بين تشرنشفسكي

والليبراليين بسبب ضعفه الشخصي . لكن عواطفه كلها كانت الى جانب
تشرنيشفسكي . وبسبب ضعفه الشخصي هذا كانت له أبيات داري فيها الليبراليين
وتزلف إليهم ، لكنه بكى هو نفسه « خطاياهم » وندم عليها علناً :

لم أتاجر بشعري ولكن صدف ،
حين عبس القدر الذي لا يرحم ،
أن لا مست يدي . . .

نعمة نشاراً في فيثاري

« نعمة نشار » - هكذا سُمِّي نيكرا سوف خطاياهم ، خطايا التزلف الى
الليبرالية . أما شيدرين فقد سخر سخرة لا رحمة فيها من الليبراليين ، ووصمهم الى
الأبد بعبارته الشهيرة : « بمقتضى السفالة ^(٨٦) » .

لكن سأخت هذه العبارة بالنسبة لأمثال شيبتييف وغريديسكول
وغيرهما (*) من الفيخوفين ! القضية الآن لم تعد أبدأ في أن يالف هؤلاء السادة
السفالة ! الأمر أبعد من هذا بكثير ، فقد بنوا ، هم أنفسهم الآن ، نظريتهم
في السفالة بمبادرتهم الشخصية ، وكما يحلو لهم ، وانطلاقاً من الكنتيجة الجديدة
والنظريات « الأوروبية » الاخرى الشائعة الآن .

- ٢ -

« عام ١٩٠٥ المشوش كله » ، يكتب السيد شيبتييف ، « لقد اختلط كل
شيء وتشوش في هذه البلبلة العامة وانعدام النظام » .

نستطيع أن نقدم ، في هذه النقطة ، بعض الاعتراضات النظرية . فنحن

(*) قد يعترض بعضهم قائلاً ان غريديسكول ، كميلوكوف وشركاه ، جادلوا
الفيخي . أجل لكنهم بقوا فيخوفيين مع ذلك (انظر البرافدا عدد ٨٥) (٨٧) .

نعتقد أنه يجب الحكم على الحوادث التاريخية بحركات الجماهير والطبقات في مجموعها، لا بأمزجة أشخاص او مجموعات .

إن الفلاحين والعمال يشكلون اكبر جمهور في روسيا . ففيم يمكننا ان نرى « البلبلة المتصلة وعدم النظام » بالنسبة لهذا الجمهور من السكان ؟ ان الامر على العكس تماماً ، اذ تشهد الوقائع الموضوعية بشكل لا يدحض انه جرت في هذه الجماهير بالذات عملية فرز ناجحة وواسعة بشكل لم نعهده من قبل ، عملية وضعت حداً والى الابد « للتشويش وانعدام النظام » .

فحتى هذا العهد كانت عناصر الانسحاق الابوي ، وعناصر الديمقراطية في اوساط « عامة الشعب » ، « تختلط وتتداخل » بالفعل « في هذا التشويش العام » . تشهد على هذا وقائع موضوعية كامكانية ظهور الزوبانوفية^(٨٨) والغابونية^(٨٩) . عام ١٩٠٥ هو الذي وضع الى الابد حداً لهذا « التشويش » ، اذ لم يعهد تاريخ روسيا عهداً ، كهذا العهد ، انجلت فيه فعلاً لا قولاً العلائق التي عقدها الركود القديم وبقايا الاقطاعية القديمة بمثل هذا الوضوح المتناهي . ولم تعهد روسيا عهداً ، كهذا العهد ، تمايزت فيه الطبقات وتحدت فيه جماهير السكان واختبرت فيه نظريات « المثقفين » وبرامجهم بأعمال الملايين من الناس بهذا الشكل البين الجلي .

فكيف لقيت هذه الوقائع التاريخية ، التي لا تدحض ، هذا التشويه الكبير في راس هذا الكاتب المتعلم والليبرالي من جماعة « روسكيا ميسل » ؟ يمكن شرح الموضوع ببساطة متناهية : إن هذا الفيخوفي يفرض على الشعب كله امزجته الذاتية . لقد كان ، هو شخصياً ، وجماعته كلها - الانتليغنسيا البرجوازية الليبرالية - في وضع « مشوش » و « مضطرب تماماً » . ولذا يلقي هذا الليبرالي الذنب على الجماهير ويحملها ما يشعر به من استياء نشأ ، بشكل طبيعي ، من هذا التشويش ومن فضح الجماهير دناءة الليبرالية .

او لم يكن وضع الليبراليين مشوشاً بالفعل في حزيران عام ١٩٠٥ ؟ او بعد السادس من آب ، حين اخذوا يدعون الى دوما بوليفين ، بينما تجاهلها الشعب عملياً ونجاولها ؟ او في اكتوبر عام ١٩٠٥ ، حين اضطروا ان يعلنوا ، ترفلاً ، ان الاضراب « مجيد » ، مع انهم كانوا بالامس فقط يقاومونه ؟ او في تشرين الثاني عام ١٩٠٥ ، حين برز عجز الليبرالية البائس كله متجلياً بواقع صارخ جداً هو زيارة ستروفي لفيتي ؟

وسيرى الفيخوفي شبيثيف ، اذا تفضل بقراءة كتيب الفيخوفي ايزبورغيف عن ستوليين ، كيف اضطرو ايزغوييف الى الاعتراف بهذا « التشويش » في وضع الكاديت « بين نارين » في الدوما الاولى والثانية ؛ وكان ظهور هذا « التشويش » ، وهذا العجز في الليبرالية حتمياً ، اذ لم يكن لها سند جماهيري لا في اوساط البرجوازية من فوق ، ولا في اوساط الفلاحين من تحت .

يختم السيد شبيثيف محكماته حول تاريخ الثورة في روسيا بهذه الدرة :

« . . . لم يستمر هذا التشوش طويلاً على اي حال ، فقد تحررت الاوساط العليا شيئاً فشيئاً مما تملكها من خوف كاد يكون ذعراً . فجهزت « حملات تأديبية » ، وحركت عدالة الرصاص بعد ان انتهت الى هذه النتيجة البسيطة ، وهي ان سرية من الجنود افعل من الكلمات الثورية كلها . وفاقت النتائج كل توقع ، اذ دمرت الثورة ومحقت خلال سنتين او ثلاث لدرجة اضطرت معها احياناً بعض مؤسسات المباحث ان توهم الناس بوجودها . . . » .

وإذ كنا استطعنا أن نعلق على محاكمات المؤلف السابقة ببعض التعليقات النظرية ، فإننا لا نملك الآن هذه الامكانية ، وعلينا أن نكتفي بأن نسمر هذه المحاكمات المجيدة بقوة على عمود ، ونرفعها عالياً عالياً قدر ما نستطيع ، حتى يتمكن الناس من أن يروها حتى ابعد مدى ممكن . . .

ونستطيع ، على أي حال ، أن نوجه سؤالاً آخر إلى القارئ : هل من العجيب أن تستشهد « غولوس موسكو » (« صوت موسكو ») الاوكتوبرية « ونوفوبي فرميا » (الزمن الجديد) الإبيدوشكية القومية المتعصبة بشيبتيف وهما تشهقان إعجاباً ؟ فبماذا يختلف ، في الواقع ، التقييم التاريخي الذي اعطته هذه المجلة (الدستورية الديمقراطية) عن التقييم الذي قدمته الطبعتان اللتان اشرنا إليهما سابقاً .

- ٣ -

تحتل مقالات السيد شيبتيف حول حياة المغتربين الحيز الأكبر من كتابه . وعلينا ، كي نجد شيئاً لهذه المقالات ، أن نقبّ في مجلة (روسكي فيسينيك)^(٩٠) في عهد كتكوف ، ونأخذ من هناك الروايات التي تصف نبلاء كرمين ، وفلاحين بسطاء القلب راضين ، ووحوشاً مستاءة وثوريين لثاماً أشبه بالغيلان .

لقد راقب السيد شيبتيف باريس (إن كان راقبها فعلاً) بعيني إنسان تافه ، حاقداً على الديمقراطية ، لم ير في أول ظهور جماهيري للكتاب الديمقراطي في روسيا إلا « اضطراباً » .

من المعروف أن كل إنسان يرى في الخارج ما يريد ، هو ، أن يراه ؛ أو بكلمة أخرى ، يرى نفسه في الوضع الجديد . فنصير المائة السود يرى في الخارج ديبلوماسيين وجنرالات واقطاعيين ممتازين ، ورجل البوليس السري يرى رجال بوليس كرماء . ويرى الروسي الليبرالي المرتد في باريس خادמות ذوات نوايا طيبة وأصحاب دكاكين (عملين) (٥) يعلمون الثوري الروسي أن « العواطف الانسانية

(*) انظر « روسكاياميسل » العدد ٨ ، ١٩١٢ ، ص ١٣٩ .

والغريبة كثيراً ما طغت على متطلبات الشخصية الانسانية ، و كثيراً ما كان هذا على حساب التقدم العام والتطور الثقافي لبلدنا كله « (*) .

من له نفسية الخادم يهتم اكبر الاهتمام ، طبعاً ، بما يسود جوّ الخدم من نعمة وفضائح . وصاحب الدكان او خادم النزل لا يلاحظ ، بالطبع ، المسائل الفكرية التي تناقش في التقارير والصحافة الصادرة في باريس باللغة الروسية . ومن أين له أن يرى أنه قد طرحت في هذه الصحافة ومنذ عام ١٩٠٨ المسائل المتعلقة بماهية نظام الثالث من حزيران الاجتماعية ، وبالجدور الطبقية للتيارات الجديدة في الحركة الديمقراطية الخ (٩١) ، وهي المسائل التي وجدت طريقها فبا بعد إلى الصحافة ، التي تقوم عليها « حراسة مشددة » ، بشكل مجتزئ وأضيق وأشد تشويهاً .

لن يستطيع الحانوتي او الخادم ، او من له نفسيتها ، ان يلاحظ هذه المسائل او يفهمها مهما تزيى بزي « المثقفين » . اما إذا كان هذا الخادم يحمل اسم « كاتب اجتماعي » في مجلة ليبرالية ، فلسوف يتجاهل قضايا فكرية عظيمة لم تطرح بصراحة ووضوح إلا في باريس . لكن « هذا الكاتب » سيخبركم بالتفصيل ما تعرفه حجرات الخدم .

وسيخبركم هذا الكاديتي الشريف على صفحات مجلة السيد الاشرف ستروفي ان « مهاجرة بغياً نعيصة اخرجت من شقة امرأة ثورية معروفة جداً في باريس » ، « وان ذلك لم يتم بدون تدخل من البوليس » ، وان « العاطلين » اثاروا فضيحة جديدة في احدى الحفلات الراقصة الخيرية ، وان ناسخاً في أحد البيوت التي يعرفها السيد شيبتييف « قد استدان مبلغاً كبيراً من المال ثم اخذ يماطل في تسديده » ، وان المهاجرين « ينهضون في الساعة الثانية عشرة ويأوون الى فراشهم في الثانية او الثالثة بعد منتصف الليل » ، وان استقبال الضيوف والضيحيج والمناقشات والفوضى تملأ نهارهم كله .

(*) المصدر السابق نفسه ص ١٥٣ .

وتقص عليك بحملة السيد الكاديتي ستروفي هذا كله بتلذذ مفصلاً
« مُفلفلاً » مزيناً بالصور بشكل لا يقل سوءاً عما يفعله مينشيكوف وروزانوف
من محوري « نوفوبي فرميا » .

« اعطني مالا او اصفعك » - على هذا الشكل العدائي السافر اصبحت
العلاقات بين الاوساط العليا والدنيا من المهاجرين . والحقيقة ان هذا الشكل
من العلاقات لم ينتشر انتشاراً واسعاً ، اذ لا يمثل « التيار المتطرف في الاوساط
الدنيا » الا ما يقارب العشرين شخصاً من عناصر يشك في امرها ، قد تكون
يد ذكية خفية هي التي توجهها ... (هذا يكتب الكاديتي المتعلم في مجلة السيد
ستروفي) .

توقف عند هذه المحاكات أيها القارئ، وفكر في الفرق بين الخادم العادي
والخادم الكاتب . الخادم العادي (ونحن نقصد بالطبع الخادم البسيط ، مستثنين
العناصر الواعية التي أخذت بوجهة نظر طبقية وتبحث عن مخرج لها من وضعها
كخادم) إنسان ساذج ، غير متعلم ، وأمي على الغالب وغير متطور ، يُغفر له
ميله الساذج الى الثرثرة بكل ما يفهمه بسرعة ، وبما هو أقرب الى قلبه . أما
الخادم - الكاتب فإنسان « متعلم » يُستقبل في أرقى الصالونات ، ويفهم أن عدد
هؤلاء المبتزّين المجرمين في اوساط المهاجرين ضئيل جداً (حوالي عشرين مهاجراً
من اصل آلاف المهاجرين) ، لا بل يفهم ان ما يوجه هؤلاء المبتزّين « قديكون
يداً ذكية » - من مشرب شاي اتحاد الشعب الروسي (٩٢) .

ويتصرف الكاتب الخادم تصرف « المتعلمين » ، على الرغم من انه يعرف
هذا كله . آه ، انه يعرف كيف يقتفي الآثار ، وكيف يعرض البضاعة من
وجهها ! فهو ليس كاتباً صغيراً مأجوراً من جماعة المئة السود . كلا ، إنه ابعد
الناس عن ذلك . ولقد اشار هو نفسه الى امكانية وجود شخص ما يوجه هؤلاء

المبتزين القلائل ، لكنه لا يتكلم في الوقت نفسه الا عن هؤلاء المبتزين وعن الفضائح وعن عدم ايفاء الديون .

ولم تذهب مدرسة « نوفوي فريميا » سدى بالنسبة لكتاب «روسكاميسل» .
فها هو ذا سوفورين (من جماعة « نوفوي فريميا » يتشدد بأنه لا يتلقى إعانات،
وان ما يفعله فقط هو « انه يعرف » كيف يعزف النغم المناسب .

« والروسكاميسل » لا تتلقى إعانات - اعوذ بالله ! لكنها تعرف فقط
كيف تعزف النغم الذي يحلو لجماعة نوفوي فريميا « ولقبضايات » غوتشكوف .

- ٤ -

اجل ، توجد كثير من الصعاب في اوساط المهاجرين . ففيها ، وفيها
وحدها ، طرحت في سني الهدوء والركود الاجتماعي والثقافي ، اهم المسائل المبدئية
المتعلقة بالديمقراطية الروسية كلها . وفي هذه الاوساط من الفقر والحاجة اكثر مما
في غيرها . وعظيمة فيها على الاخص نسبة المنتحرين ، وعظيمة فيها بصورة رهبة
لا تصدق نسبة مَنْ كيانهم كله عبارة عن جمجرة من الاعصاب المريضة . وهل
يمكن ان تكون الامور غير ما هي عليه في اوساط اناس معذبين ؟

ان الناس يختلفون في اهتمامهم عندما يجدون انفسهم في اوساط المغتربين .
فبعضهم يهتم بالطرح الصريح لاهم المسائل المبدئية في السياسة ، وبعضهم الآخر
بأخبار فضيحة تقع في حفلة رقص او بناسخ غير امين او باستياء المهاجرين من
نمط حياتهم وسط البوابين واصحاب الدكاكين . . . فلكل منهم اهتماماته الخاصة .

وعلى الرغم من ذلك ، لا يتألك المرء نفسه ، وهو يعاني وطأة حياة
المهاجرين المعذبة ، الكريمة ، المتوترة الى حد المرض ، ويفكر في حياة السادة
امثال شيبتييف وستروفي وايزغوييف وشركاهم ، عن القول : يا لها من سعادة

لا حدود لها ، اننا لسنا من مجتمع « هؤلاء الشرفاء » ، من مجتمع يدخله هؤلاء
الاشخاص وتُمد فيه اليايدي إليهم !

ففي (مجتمع الشرفاء) هذا لا تحدث ، على الأرجح ، اي فضائح .
تكاد المومسات لا تدخلن الى شقق هؤلاء السادة بصفة رفاق ، بل يبقين في
شقق اخرى .

والعاطلون عن العمل لا يثيرون الفضائح في الحفلات الراقصة التي تقيمها
هذه الجماعة . فحفلاتهم الراقصة وقورة رزينة ، ولكل شيء وقته : المومسات (من
العاطلين) يبقين في شقة ، وتدور حفلات الرقص في شقة اخرى . وإذا ما وظف
هؤلاء السادة ناسخين لديهم ، فلا يسمحون ابداً بهذا الفجور ، وهو ان يأخذوا الناسخ
المال مقدماً ثم يتجراً على المhapلة .

الفضائح بسبب المال لا يمكن ان تحدث عندهم . فليس حولهم جمهور
جائع ، معذب ، متوتر الاعصاب ومستعد للإقدام على الانتحار . وإذا كانت
(الملايين تتآخى) اليوم مع (العلم) في شخص السيد ستروفي وشركاه ، وغداً
مع لقب النيابة في شخص السيد غولوفين وشركاه ، وبعد غد مع لقب النيابة
والمحاماة في شخص السيد ماكلاكوف (٩٣) وشركاه ، فما هو الشيء الفاضح في هذا؟

وهذا كله دليل نبل وكرم محدد . فما هو وجه السؤ اذا كان ما يوجهه
السادة امثال غريديسكول وشيبيتيف وشركاهما في كتاباتهم ضد الديمقراطية يرضي
امثال ريبوشنسكي الخ . . . ؟ فستروفي لا يتلقى اعانات ، بل هو يعزف
(تلقائياً) النغم الملائم ! ولن يكون في مقدور احد القول ان (روسكاياميسل)
محظية امثال ريبوشنسكي . ولن يخطر على بال احد ان يقارن اللذة التي يوفرها بعض
الكتاب لا مثال السيد ريبوشنسكي باللذة التي كانت توفرها للاقطاعيين في
قديم الزمان الصبايا الاقنان وهن يحككن اعقابهن .

وما ذنب السيد ستروفي أو السيد غريديسكول أو السيد شيبيتيف الخ ..
بالفعل ، إذا كانت كتاباتهم وخطبهم التي يعبرون فيها عن قناعاتهم بمثابة حكاية عقاب
للتاجر أو الاقطاعي الروسي الحاقدا على الثورة ؟

وإن الفضيحة في أن يحصل النائب السابق السيد غولوفين على التزام رابع ؟
لقد تخلى عن لقب «النائب» !! إذا ، عندما كان نائباً لم يكن الالتزام موجوداً ،
بل كان يثباً . وعندما حصل على هذا الالتزام تخلى عن النيابة . أليس واضحاً أن
هذه القضية نظيفة ؟

أوليس من الواضح أيضاً ان النمامين وحدهم يستطيعون أن يشيروا إلى
ما كلاكوف بإصبع الاتهام ؟ لقد دافع عن تاغيف « انسجاماً مع قناعته » ، كما
صرح هو نفسه في رسالة له نشرها في « ريتش » ! ولا يوجد أدنى شك في أن أي
بوابة باريسية أو أي حانوتي باريس لن يجد أي شيء - أي شيء ذميم ، محرج ،
فاضح على الإطلاق - في نمط حياة هذا الجمهور الكاديتي المحترم وفي اعماله .

- ٥ -

وتستحق محاكمة السيد شيبيتيف الرئيسية العامة للامور أن نردها كاملة :
« لقد طغت العواطف الانسانية والغيرية حتى الآن ، وخصوصاً في الاوساط
المشاركة في الثورة على حاجات الشخصية ، وعلى حساب التقدم والتطور الثقافي العام
لبلدنا كله ، في كثير من الاحيان . وجعلنا السعي الى « المنفعة العامة » ، وإلى
« خير الشعب كله » ، ننسى انفسنا ومطالبنا وحاجاتنا الشخصية ، ونسأها لدرجة
لم تستطع معها اكثر عواطفنا ومساعدنا صفة اجتماعية أن تتحقق بشكل ممل
ايجابي (!!) مبدع وواع تماماً ، بل أدت بصورة محتومة إلى اشكال سلبية من
التضحية بالنفس . ولم يقتصر الأمر على هذا المجال ، بل تعداه إلى العلاقات اليومية
العادية ، فكان « الضمير المريض » الذي يضخم هذا الظلم إلى البطولة والتضحية

من جهة ، وعدم التقدير الكافي للحياة نفسها ، الناتج عن المستوى المنحط لثقافتنا من جهة أخرى ، يرهقان ارهاقاً مستمراً ومتعدد الاشكال الحاجات الشخصية . وكانت النتيجة ازدواجية مستمرة وإدراكاً متصلاً لعدم صواب الحياة أو حتى لإلغائها ، وسعيّاً دائماً للتضحية بالنفس ومساعدة المعدمين والمحرومين ، ثم الاندراج في « قائمة المالكين » . هذا واقع انعكس انعكاساً بارزاً وكاملاً في أدبنا .

ونحن لا نستطيع ان نرى ما يشبه ذلك في آراء الشعب الافرنسي واعرافه ...»

إن ما أوردها هو تعليق على تصريحات السيد غريديسكول السياسية والمنهجية التي طبعتها «ريتش» بدون أي تحفظ، والتي ذكرت «البرافدا» (عدد ٨) «الريتش» بها عندما أرادت هذه أن تتناساها .

إن ما أوردها سابقاً تريد لما قالت (فيخي) وتمة له . وعليها ، مرة أخرى ، وبإمكاننا أن نفتتح من نموذج محاكمة كهذه ان « فيخي » تتظاهر فقط بمحاربة « المثقفين » في حين أنها تحارب الديمقراطية بالفعل ، متخيلة تخلياً تاماً عن الديمقراطية .

وعليها ان نؤكد على وحدة « الفيخي » وغريديسكول « ريتش » تأكيداً خاصاً الآن ، في أيام الانتخابات ، حيث يحاول الكاديت بكل قوامه وبتظاهره بالديمقراطية أن يمحوا ويطمسوا فعلاً المسائل السياسية المبدئية والمهمة كلها . واحدى المهام العملية الحيوية المطروحة أمام الحركة الديمقراطية هي ان تطرح هذه المسائل في الاجتماعات الانتخابية ، وان تشرح لأوسع جمهور ممكن معنى ومغزى خطب السيد شيبتييف والسادة الفيخوفين ، وان تفضح رياء «ريتش» والسادة أمثال ميلوكوف ، عندما يحاولون نفوذ ايديهم من المسؤولية وتحميلها « روسكاياميسل » ، مع ان اعضاء حزب الكاديت يكتبون فيها .

إن « النقاش » مع الفيخوفين وبما حكة السادة امثال غريد بسكول وميلو كوف لهم لا يستهدفان إلا تحويل الانظار ، وليس إلا تمويهاً مرئياً للتضامن المبدئي العميق القائم بين حزب الكاديت كله وبين « الفيخي » . هل من الممكن ، في الواقع ، « مناقشة » الموضوعات الاساسية للمقطع الذي اوردناه سابقاً ؟ وهل يمكن للمرء أن يبقى في حزب واحد مع أناس لهم هذه النظرات ، ثم لا يتحمل مسؤولية كاملة عن مثل هذه الدعوة إلى التخلي القاطع عن ابسط مبادئ الديمقراطية ، أي ديمقراطية ؟

إن من يعمي المسألة هم الذين يرضون بطرحها على طريقة الفيخي ، في عبارات تعارض « الفردية » « بالغيرية » الخ . والمعنى السياسي لهذه الجمل واضح كل الوضوح : إنه انعطاف ضد الديمقراطية ، انعطاف نحو الليبرالية المعادية للثورة . وعلينا ان نفهم ان هذا الانعطاف ليس صدفة ، بل نتيجة وضع البرجوازية الطبقي . وعلينا ان نستخلص من هنا النتائج السياسية الضرورية حول تميز الديمقراطية الواضح نسبياً عن الليبرالية . وبدون وعي هذه الحقائق وبدون نشرها نشرأواسعاً بين جماهير السكان ، لا يمكننا ان نتحدث عن اي خطوة جدية إلى الامام .

طبع في ٢ و ٩ ايلول ١٩١٢ .

ج ٢٢ ص ٨٢ - ٩٣

نقد

لكتاب ن . أ . روباكين « بين الكتب » الجزء الثاني (دار النشر
ناووكا) موسكو - ١٩١٣ (الطبعة الثانية)

هذا الجزء الضخم الذي يقع في ٩٣٠ صفحة من الحجم الكبير والطباعة الدقيقة على عمودين في بعض الاحيان عبارة عن « تجربة لاستعراض غنى المؤلفات الروسية وارتباطه بتاريخ الافكار العلمية الفلسفية والأدبية الاجتماعية » . هذا مانجده في العنوان الثانوي للكتاب .

يشمل الجزء الثاني من الكتاب الذي نستعرضه مجالات مختلفة في العلوم الاجتماعية ، ومنها الاشتراكية في اوربا الغربية وفي روسيا . وليس من ناغل القول ان كتاباً من هذا النوع ذو اهمية بالغة ، وان تصميم الكتاب كان بمجمله صحيحاً . وبافعل لا يمكن تقديم عرض معقول « لغنى المؤلفات الروسية » ، تقديم مرجع للتشقيف الذاتي والمكتبات ، إلا بربطه بتاريخ الافكار . ومن الضروري على وجه الخصوص اعطاء « ملاحظات مبدئية » حول كل قسم (وهذا ما يفعله المؤلف) مع استعراض عام للموضوع ، وعرض دقيق لكل تيار فكري ثم كتابة قائمة بالكتب التي تعالج موضوع هذا القسم وكل تيار فكري فيه .

لقد بذل المؤلف ومعاونوه العديديون الذين ورد ذكرهم في مقدمة الكتاب جهداً عظيماً ، وبدأوا عملاً قيماً جداً تمنى له من اعماق قلوبنا النمو والتطور عمقاً واتساعاً . وبما هو قيم بنوع خاص أن المؤلف لا يسقط

لا الكتب الأجنبية ولا الكتب التي لوحقت . إن أي مكتبة محترمة لن تستغني بعد اليوم عن كتاب السيد روباكين هذا .

أما عيبا الكتاب فهي انتقائية مؤلفه وعد لجوئه الواسع بما فيه الكفاية إلى الأخصائيين لمساعدته على الكتابة في مسائل معينة (أو بالأحرى ، لجوئه الضعيف الذي لا زال في أوله إلى هؤلاء الأخصائيين) .

ويتلخص العيب الأول في فكرة المؤلف المسبقة والغريبة معاً عن « النقاش » ، إذ يعلن في المقدمة « أنه لم يشترك يوماً في المناقشات ، لاعتقاده أن النقاش في اغلب الاحيان وسيلة من افضل الوسائل لتعمية الحقيقة عن طريق مختلف أنواع الانفعالات الانسانية » . إن المؤلف لا يفتن ، أولاً ، إلى أنه لم يجر أبداً بحث انساني عن الحقيقة « دون انفعالات انسانية » ، وأنه لا وجود لمثل هذا البحث ، ولا يمكن أن يكون له من وجود . وينسى المؤلف ، ثانياً ، أنه يريد أن يعرض « لتاريخ الفكر » . وما تاريخ الفكر إلا تاريخ تعاقب هذه الفكر وبالتالي صراعاها . فواحد من أمرين : أو الوقوف موقفاً لا واعيأ من صراع الفكر - ومن الصعب عندئذ كتابة تاريخها (بله المشاركة في هذا الصراع) ؛ أو التخلي عن الادعاء « بعدم المشاركة أبداً في أي مناقشات » . إني افتح ، على سبيل المثال ، الكتاب وانظر إلى (الملاحظات المبدئية) حول نظرية الاقتصاد السياسي ، فأرى فوراً أن الكاتب يتملص من هذه المعضلة ، أولاً بالمناقشة الخفية (وهو نوع من النقاش له عيوب النقاش كلها، دون أن تكون له واحدة من حسناته الكبيرة) ، وثانياً بدفاعه عن الانتقائية .

فالسيد روباكين « يسمع لنفسه » ، وهو يعرض « موجز » بواغدانوف ، أن يشير إلى الشبه « الطريف » بين واحد من استنتاجات المؤلف « الماركسي » وبين فكرة ميخايلوفسكي الشهيرة عن « التقدم » (ص ٨١) . آه ، أيها السيد روباكين « الذي لم يشترك أبداً في أي مناقشات » ! . .

ويتغنى السيد روباكين قبل ذلك بصفحة واحدة «بالروح العلمية الصارمة والتحليل العميق والموقف الانتقادي من اهم النظريات» وهي الصفات التي يتحلى بها ... من تظنون ؟ . . . التي يتحلى بها الانتقائي النموذجي السيد توغان - بارانوفسكي !! . إن السيد روباكين يضطر هو نفسه للاعتراف بأن هذا الاستاذ يناصر الماركسية قليلاً و (نظرية المنفعة القصوى) قليلاً ، ثم يدعوه ، مع هذا ، «اشتراكياً» !!! الاتعني كتابة شيء فظيع كهذا مناقشة مواجهة ضد الاشتراكية تتم بأسلوب صورة ممكنة ؟

فلو ان السيد روباكين قسم ما كتبه مقدمة لموضوع الاقتصاد السياسي (وهو يناهز ثمانين الف كلمة أي كراساً كاملاً) إلى اربعة اقسام ، وعهد بكتابتها إلى واحد من المائة السود وإلى ليبرالي وشعبي وماركسي ، لقامت مناقشة مفتوحة إلى مدى اوسع ، ولعثر ٩٩٩ من الف قارئ على الحقيقة بشكل اسهل واسرع .

لقد طبق روباكين هذه الطريقة - وهي دعوة بمثلي (المناقشات) إلى التعاون في وضع الكتاب - في مسألة البلشفية والمنشفية ، فخصص نصف صفحة لي ونصف صفحة اخرى لمارتوف . اما من جهتي ، فاني راض تماماً عن عرض ل . مارتوف : عن إقراره ، مثلاً ، بأن التصفوية تعود إلى محاولات « إنشاء حزب عمالي علني » ، « وإلى الموقف السلبي من التنظيمات السرية الباقية » ، (ص ٧٧١ - ٧٧٢) ، او عن اعترافه بأن « المنشفية لم تر من امكانية مشعرة امام البروليتاريا للمشاركة في الازمة الراهنة » (اي ازمة - عام ١٩٠٥) « إلا مساعدة الديمقراطية البرجوازية الليبرالية في محاولاتها ابعاد الفئة الرجعية من الطبقات الغنية عن السلطة - وهي مساعدة يجب على البروليتاريا ان تحققها مع احتفاظها باستقلالها السياسي التام » (٧٧٢) .

ولكن ما ان يتولى السيد روباكين نفسه اتمام المقالة المتعلقة بالمنشقة
حتى تحدث اخطاء ، كتأكيده ان اكسيلرود وبليخانوف « تركا » التصفيين معاً
(٢٧٢) . إني لا احمل السيد روباكين مسؤولية خاصة عن حتمية وقوع مثل
هذه الاخطاء في كتاب اولي ومتعدد الجوانب كهذا الكتاب . إلا انه لا يسعني
في الوقت نفسه إلا ان اتمنى على المؤلف ان يتبع طريقة اخرى تقوم على دعوة
بمثلي التيارات المتلفة في مجالات المعرفة كلها الى المشاركة في وضع الكتاب .
فلن يفيد المؤلف من ذلك الا دقة وكلاً وموضوعية ، ولن تخسر من ذلك إلا
الانتقائية والنقاش الحفي .

طبع في نيسان ١٩١٤

ج ٢٥ ، ص ١١١ - ١١٤



الى ا. ف. أرمند

ابنتا الصديقة العزيزة ! انصحك بالخاح ان تكتبي تصميم كراسك بتفصيل اوفى ، والا سيكون فيه كثير من الامور الغامضة . وعلي انت ابادرك فوراً بواحد من آرائي ، فانصحك بإسقاط المقطع الثالث وهو « مطلب الحرية في الحب (المطلب النسائي) » . فهو ليس ، في الواقع ، مطلباً بروتيتارياً، بل مطلباً برجوازياً .

ماذا تعنين بهذا فعلاً؟ ماذا يمكن فهمه من هذا القول ؟

- ١ - هل هو التحرر من الحسابات المادية (المالية) في قضية الحب ؟
 - ٢ - هل هو التحرر من المهوم المادية ؟
 - ٣ - من الاوهام الدينية ؟
 - ٤ - من منع الوالد الخ . . ؟
 - ٥ - من الاوهام الاجتماعية ؟
 - ٦ - من ضيق الوسط (الفلاحى أو البرجوارى الصغير أو وسط المثقفين البرجوازيين) ؟
 - ٧ - من قيود القانون والمحكمة والبوليس ؟
 - ٨ - مما هو جدي في الحب ؟
 - ٨ - من انحجاب الاطفال ؟
 - ١٠ - حرية العهر ؟ الخ
- لقد اوردت كثيراً من الفروق (لاكلها بالطبع) . وإنك لتعنين بالطبع الاعداد من ١ - ٧ او شيئاً ما من قبيل هذه الاعداد ، لا الأرقام من ٨ - ١٠ . ولكن عليك ان تختاري معنى آخر للأرقام من ١ - ٧ ، إذ ان حرية الحب

لا تعبر عن هذه الفكرة بدقة .

وسيفهم قراء كراسك « حرية الحب » بوجه عام على انها حتماً شيء ما ورد في الأرقام من ٨ - ١٠ ، وذلك خلافاً لارادتك ذاتها .

ولأن أكثر طبقات المجتمع ثروة وصخباً « ووجاهة » تعني « بحرية الحب » الأرقام من ٨ - ١٠ بالضبط ، فليس هذا المطلب مطلباً بروتيتارياً بل مطلباً برجوازياً .

إن ما يهم البروليتاريا أكثر من أي شيء آخر هما الرقمان ١-٢ ، ثم الأرقام من ١-٧ ، وهي لا تعني « حرية الحب » بنوع خاص .

ليست القضية فيما « تريدون أن تعنيه » بهذا المطلب ذاتياً ، بل في المنطق الموضوعي للعلاقات الطبقية في قضية الحب .
أشد على يدك بكل ودّ .

ف. أو

برن ١٧ / ١ / ١٩١٥

ج ٤٩ ص ٥١ - ٥٢

الى ا. ف. أرمند

أيها الصديقة العزيزة ! أعتذ عن تأخري في الإجابة : لقد أردت ان اكتب اليك البارحة ولكنني تأخرت، ولم يعد لدي متسع من الوقت لأجلس الى الطاولة .

لقد وجدت ، بمناسبة مشروع كراسك ، أن « مطلب حرية الحب » مطلب غير واضح ، وأنه في الوضع الاجتماعي المعاصر مطلب برجوازي ، لا بروتاري (وقد اكدت على ذلك بقولي إن القضية قضية علاقات طبقية . موضوعية ، لا قضية رغباتك الذاتية) .
إنك لا توافقيني على ذلك .

حسن . فلنبحث الأمر مرة أخرى .

لقد أوردت نحواً من عشرة تفسيرات محتملة (وحتمية في هذا الوضع من العداء الطبقي) لكي أوضح ما هو غامض . وأشارت في الوقت نفسه الى أن النقاط ١ - ٧ ستكون نموذجية ومميزة بالنسبة للبروليتاريات ، والنقاط ٨ - ١٠ بالنسبة للبرجوازيات .

فإذا أردت ان تدخلي ما أوردت ، عليك ان تبيني : (١) أن هذه التفسيرات غير صحيحة (وعليك عندئذ ان تستبدليها بأخرى او ان تشيرى اليها) ، او (٢) انها غير كاملة (وعليك عندئذ ان تضيفي اليها ما ينقصها) ، او (٣) انها لا تنقسم الى بروتارية وبرجوازية .

إنك لا تفعلين شيئاً من هذا كله . فأنت لا تتطرقين أبداً الى النقاط من ١ - ٧ . فهل يعني هذا أنك تعترفين (بوجه عام) بصحتها ؟ (ان ما تكتبينه عن بغاء البروليتاريات واستعبادهن : « عدم قدرتهن على ان يقلن : كلا » ، ينطبق تماماً على النقاط ١ - ٧ . ولا يمكن ان يكون بيننا أي خلاف حول ذلك) .

كما لا تعارضين في ان هذا تفسير بروليتاري . إذا تبقى النقاط من ٨ - ١٠ . فأنت لا « تفهمينها كثيراً » و « تعترضين » : « لا افهم كيف يمكن (هكذا نكتبين !) تشبيه (؟؟؟ !) الحب بالنقطة العاشرة ...

إذا ، انا الذي « يشبه » ، فتهأت لتوبيخي وتحطيمي ؟

فكيف هذا ؟ وما هذا ؟

البرجوازيات يفهمن بحرية الحب النقاط ٨ - ١٠ . هذه هي نظريتي .

فهل تنكرينها ؟ قولي إذا : ماذا تفهم السيدات البرجوازيات من حرية الحب ؟

إنك لا تقولين شيئاً من هذا . ألا تبرهن الحياة والأدب على ان البرجوازيات يفهمن منها ما اوردته . يبرهنان تماماً ! وأنت تعترفين صامتة بذلك .

وإذا كان الأمر كذلك ، فالقضية في وضعهن الطبقي . « ودحضهن » أمر يكاد يكون ساذجاً وبسيطاً . وعليك بالمقابل ان تبرزي وجهة النظر البروليتارية وتعارضها بوجهات نظرهن . كما عليك ان تأخذي بالحسبان هذا الواقع الموضوعي ، وإلا سيجتزئ المقاطع التي تناسبهن من كراسك وسيأولنها على طريقتهن فيكون كراسك بمثابة ماء لطاحونتهن ، وسيشوهن افكارك امام العمال « وسيلبلن » افكارهم (بعد ان يزرعن الخوف فيهم من انك تحملين اليهم افكاراً غريبة) فهن يسيرون الكثير من الصحف الخ ...

أما أنت فتنتقلين إلى « المهجوم » علي ، بعد أن نسيت تماماً وجهة النظر الموضوعية والبروليتارية ، وكأني « اسبه » حرية الحب بالنقاط ٨ - ١٠ . غريب والله أمرك غريب .

« حتى الشهوة والعلاقة العابرة » « أكثر شاعرية وطهراً » من « قبل حب فارغة » يتبادلها زوجان (مبتذلان) . هكذا نكتبين . وهكذا تهينين للكتابة في كراسك . وهذا شيء رائع .

فهل هذه المقارنة منطقية ؟ إن قبل الزوجين المبتذلين الفارغة من الحب قدرة . أو افكك على ذلك . فبماذا كان يجب عليك أن تقابلها ؛ كان عليك أن تقابلها بقبل حب ؛ أمّا أنت فتقابلينها « بشهوة عابرة » (لماذا شهوة وليس حباً ، ولماذا عابرة ؟) . والنتيجة المنطقية أنك تعارضين قبل الزوجين الفارغة من الحب بالقبل العابرة الفارغة من الحب ... غريب ! أليس من الأفضل بالنسبة لكراس اعد للجمهور الواسع أن تعارضي الزواج الفلاحي البرجوازي الصغير (النقطتان السادسة والخامسة عندي) ، المبتذل والقذر الذي لا يقوم على الحب ، بالزواج البروليتاري المدني القائم على الحب (مع إضافة أن العلاقة القائمة على شهوة عابرة قد تكون قدرة وقد تكون طاهرة ، إذ ان لم يكن لك غنى عن ذلك) . أمّا ما عندك فليس مقابلة بين نماذج طبقية ، بل شيء يشبه حالة خاصة بمكنة الحدوث بالطبع . ولكن ، هل المسألة في الحالات الخاصة ، الشاذة ؟ فإذا تناولت موضوعاً وليكن : القبل القدرة في الزواج والطاهرة في العلاقة العابرة (وهذه حالة خاصة ، حادثة طارئة) ، عليك أن تعالجه في رواية (ففحوى المسألة كلها هنا في الوضع الفردي ، في تحليل اخلاق الناذج المعطاة ونفسيتها) . أمّا في كراس !؟

لقد فهمت تماماً فكري حول عدم ملاءمة الاستشهاد بكبي^(٩٤) ، فقلت إنه من « غير المعقول » أن تلعي دور « دكتور في الحب » . بالضبط . أمّا دور « دكتور في العلاقة العابرة النخ » ؟

الحقيقة أنني لا أرغب في المباحثة . وكنت على استعداد لانت آرمي رسالتي هذه جانباً بكل طيبة خاطر، وأؤجل الحوض في هذه الموضوع حتى نلتقي، لولا رغبتني في أن يكون الكراس جيداً ، حتى لا يستطيع أي كان أن يقتطف منه جملاً لا تسرك (وتكفي أحياناً جملة واحدة لتكون كملعة قطران في برميل ...) ، ثم يأول أفكارك تأويلاً لا تريدنه . إني موقن أنك كتبت ما كتبت ، خلافاً لإرادتك ، هنا أيضاً ، وإذا كنت ابعت لك هذه الرسالة، فما ذلك إلا لسبب واحد فقط ، هو أنها قد تكون مناسبة أفضل من الأحاديث، تمحصين من خلالها مشروعك . فالمشروع شيء هام جداً .

ألا يوجد بين معارفك استراكية فرنسية ؟ ترجي لها نقاطي من ١ - ١٠ وملاحظاتك حول « الشهوة العابرة » السخ . (ادعي أنك تترجمينها عن اللغة الانكليزية) ، وانظري إليها واستمعي إليها بانتباه شديد . إنها لتجربة صغيرة أن يسمع المرء ما يقوله الآخرون ممن ليس لهم علاقة مباشرة بالموضوع : ما هي انطباعاتهم وماذا يتوقعون من الكراس ؟

أشد على يدك واتمنى أن يخفّ وجع رأسك وتعافى بسرعة .

ق . أو

برن ٢٤ / ١ / ١٩١٥

ج ٤٩ ، ص ٥٤ - ٥٧

ممن رسالة الى

م. أ. أوليانوفا

١٩٠١ / ٢ / ٢٠

... هل تترددن إلى المسرح ؟ ما هي مسرحية تشيخوف الجديدة هذه .
« الأخوات الثلاث » ؟ هل شاهدتها وماذا وجدت ؟ لقد قرأت تعليقاً عليها في
الصحف . إن فناني المسرح الفني (ذي اسعار الدخول الزهيدة) يمثلون بشكل
رائع . ولا زلت أذكر بسرور زيارتي له في العام الماضي مع المسكين كولومب .

ميونخ

ج ٤٥ ص ٢٤٠

من رسالة الى

م. أ. أوليانوفا

١٩٠٢ / ٢ / ٤

... حضرنا منذ مدة وجيزة ، والمرّة الأولى في هذا الشتاء ، حفلة
موسيقية جيدة ، وكنا راضين جداً وخصوصاً عن آخر سمفونية لتشيكوفسكي
(السمفوني الباتيتيك) . هل تقام عندنا في سمارا حفلات موسيقية جيدة ؟ كنّا
مرّة واحدة في أحد المسارح الألمانية - كم اود لو اذهب الى « المسرح الفني »
الروسي لأشاهد مسرحية غوريكي « في القاع » ...

لندن

ج ٥٥ ، ص ٢٢٩

من رسالة الى أ. ف لونا تشارسكي

... يجب علينا اعطاء وصف (أدبي نقدي) حي وحاد ودقيق ومسهب للمائة السود هؤلاء^(٩٥) . فهذا الزيف هو الأساس عند ل. م (هل قرأت هذه الفضيحة الشنيعة في العدد ١٠٧ ؟ سفارتس يرد عليها بمقال . ولا أدري إذا كان الأمر يستحق ذلك) وعند ستاروفير أيضاً . أعتقد ان من الواجب جمع عدد من أمثال هذه المقالات والكراسات وتسليط الضوء على الكذب الفاضح فيها ، وكشفه بشكل لا يستطيع معه احد ان يتعلم من مسؤوليته ، ثم التشهير به على انه من « أدب المائة السود » . لقد قدمت جماعة «نوفيا ايسكرا» (ايسكرا الجديدة) مواد كثيرة في هذا الشأن. فإذا عاجلنا هذه المواد بتمعن ، والقينا الضوء على هذه الأساليب الدنيئة في الافتراء والنميمة الخ . . . لتظهر في كامل روعتها نكون قد توصلنا الى شي قوي جداً . « فتليجات ل. م » الشخصية ، الغامضة ، تكفي وحدها مثلاً على السفالة اللامتناهية !!

قد أتولى بنفسي الموضوع الأول ، لكن ليس الآن وليس في وقت قريب . فليس لدي وقت الآن (وقد يتأخر الموضوع تماماً) .

أما الموضوع الثاني فليس بودي أن أتولاه ، واعتقد أنك ، انت وحدك ، تستطيع ذلك . إنه عمل غير سار ، تنن لا شك في ذلك — لكننا لسنا من ذوي السواعد البيضاء البضة ، بل نحن صحفيون . وترك « السفالة والسم » دون التشهير بها أمر لا يجوز بالنسبة لكتاب الاشتراكية الديمقراطية .

فكر في هذا واكتب لي ..

بين ١٥ و ١٩/٨/١٩٠٥ جنيف ج ٤٧ ص ٥٨

من رسالة الى أ.ف. لونا تشارسكي

... ثم بخصوص الانشقاق مرة أخرى . انت لم تفهمني ، وليس من ضرورة لانتظاري، فالموضوعان مختلفان . الموضوع الاول يتعلق بقصة (نحاول أن نسويها) ، أما الثاني فبدراسة عن اساليبهم في النقاش دراسة أدبية نقدية وليكن موضوعها فرضاً « الأدب الرخيص » . علينا ان نحلل في هذه الدراسة ، وفي عدة فصول تشكل كراساً كاملاً ، تفاهة ستاروفير ومارتوف وغيرهما هذه في نقاشهم مع « البروليتاري » ، وما يتردد من حديث حول الأكتورية أو الأقلية ، الخ . . استشهد في عملك هذا بأقوالهم . شهر بهم لطويقتهم الوضيعة في الحرب . اجعل منهم نموذجاً . ارسم لهم صورة تكون ملء قامتهم مستشهداً بأقوالهم ذاتها . واعتقد أنك ستنجح لو أجهدت نفسك قليلاً في جميع الاستشهادات .

جنيف أواخر آب ١٩٠٥

ج ٧ ص ٦٣

(دوشيتشكا) الاشتراكية الديمقراطية

يتابع الرفيق ستاروفير الذي تحييه « الأوسفوبوجدينيي » ، (٩٦) في « الاسكرا » الجديدة الندم على خطاياه التي اقترفها (عن عدم فهم) بمشاركته في « الاسكرا » القديمة . يشبه الرفيق ستاروفير شهاً كبيراً بطل قصة تشيخوف « دوشيتشكا » . كانت دوشيتشكا تعيش في أول الأمر مع رئيس جوقة وكانت تقول : انا نخرج ، أنا وفانيتشكا ، مسرحيات جدية . ثم عاشت مع تاجر أخشاب فصارت تقول : انا مستاءان، أنا وفاسيتشكا ، من الضريبة العالية على الحشب . وأخيراً عاشت مع طبيب بيطري فصارت تقول : انا نداوي الخول ، أنا وكوليتشكا . وهكذا يفعل الرفيق ستاروفير . « شتمت مع لينين ، مارتينوف والآن « اشم مع مارتينوف ، لينين .

في أحضان من ستكونين غداً يا دوشيتشكا الاشتراكية الديمقراطية الغالية ؟

كتب بعد ٢٤ أيلول (٧ ت ١) ١٩٠٥

ج ١١ ص ٢٨١

من رسالة

إلى هيئة تحرير صحيفة « البرافدا »

... بخصوص ديمان بيديني استمروا في الوقوف الى جانبه . لانجعلوا ،
أيها الرفاق ، من نقاط الضعف الانساني موضعاً للانتقاد المستمر ! فالموهبة شيء
نادر ، وعلينا أن نساعدنا بحيلة و بانتظام . إنكم ستقترفون خطيئة ، وخطيئة
كبيرة (أكبر بمائة مرة من مختلف « الخطايا » الشخصية ، إذا كان لهذه من
وجود . . .) بحق الديمقراطية العالمية ، ان لم تستميلوا موهوباً الى جانبكم
وان لم تساعدوه . لقد كانت المنازعات تافهة ، لكن القضية كبيرة . فكروا
في هذا ! . . .

... نحية خاصة إلى فيتيمسكي ، فقد كانت مقالته عن الصحافة العالمية
والديمقراطية العالمية الموجهة ضد الليبراليين فاجحة جداً ! ! . أما « ايدولوجيا »
بوغدانوف فشرطة على الأرجح . واعدكم أن أبرهن على ذلك بشكل دقيق ! !
إن الماركسيين يسرون بازدياد نسخ الجريدة عندما يزداد عدد المقالات
الماركسية ، لا المقالات الموجهة ضد الماركسية . إننا نريد صحيفة فكر
ماركسي ، لا فكر ماخوي (والعاملون في البرافدا وقراؤها يريدونه ، أليس
كذلك ؟

كتبت في أيار (بعد الخامس والعشرين

منه) عام ١٩١٣

ج ٨٤ ص ١٨٢ - ١٨٣

من رسالة الى ا.ف.أرمند

انتهيت لتوي من قراءة رواية فينيتشكو^(٩٧) الجديدة التي بعثت بها إلي أيتها الصديقة العزيزة . هذا هو الملص والغباء - أن تكدر أكبر عدد ممكن من «الأهوال» ، فتوحد بين « الخطيئة » ، «الزهري» ، «الجريمة» (من النوع الذي لا نراه إلا في الروايات فقط) وبين ابتزاز الأموال بحجة كتمان السر (مع تحويل أخت الشخص الذي يجري ابتزازه الى خلية) ومقاضاة الطبيب ! وهذا كله يجري لأناس مصابين بالمستيريا ، غربي الاطوار يدعون أن لهم نظرية « خاصة » في تنظيم المومسات . إن هذا التنظيم لا يشكل بذاته أي سوء . لكن الكاتب بالذات ، لكن فينيتشكو نفسه يجعل منه أمراً غير معقول يلوكه مثلثاً به ويجعل منه غواية .

قيل في « ريتش » ان الرواية تقليد لدوستوفسكي ، وان هذا أمر جيد بحد ذاته . في رأيي ان التقليد موجود ، وهو تقليد رديء جداً لدوستوفسكي الرديء جداً . يحدث في الحياة وبشكل إفرادي كل ما يصفه فينيتشكو من « أهوال » ، لكن أن نجمع هذه الفظائع كلها ، معا وبهذه الصورة ، معناه أننا نرمم الفظائع رسماً وديناً ، أننا نلهب خيالنا وخيال القارئ دون طائل ، أننا نضرب بالمطرقة على رؤوسنا ورؤوس القراء .

لقد حدث لي ذات مرة أن أمضيت ليلة مع رفيق مصاب بهذيان السكران . وحاولت مرة أخرى اقناع رفيق حاول الانتحار (حاولت اقناعه بعد محاولة

الانتحار مباشرة) ، وقد انتحر فعلاً بعد عدة سنوات . وكلتا الذكرين على
طريقة فينيتشكو ، إلا أنها ليستا في الحالتين إلا قطعتين صغيرتين من حياة
هذين الرفيقين . أما هذا الفينيتشكو ، الغبي والدعي الفظ والمعجب بنفسه ،
فقد قدم لنا مجموعة كاملة من الأحوال المتتالية ، نوعاً من « الفظائع ببسين » .
بررر . . . هراء ، قذارة . اسف لأنني هدرت وقتي في قراءة هذه الرواية .

بارونين . كتب في حزيران ، قبل

الخامس منه عام ١٩١٤

ج ٤٨ ، ص ٢٩٤ - ٢٩٥

✱ ✱ ✱

ملحظات

- ١ - كتب لينين مقال « مصادر الماركسية الثلاثة ومكوناتها الثلاثة » عام ١٩١٣ بمناسبة الذكرى الثلاثين لوفاة كارل ماركس .
- ٢ - بدأ لينين كتابة « المادية والتجريبية الانتقادية » في شباط عام ١٩٠٨ في جنيف . وفي أيار - حزيران من العام نفسه غادر لينين جنيف الى لندن بحثاً عن المؤلفات التي يحتاج اليها في المتحف البريطاني . انتهى لينين من كتابه في تشرين الأول عام ١٩٠٨ ، وصدر الكتاب في أيار عام ١٩٠٩ .
- ٣ - انظر ف . انغلز « لودفيغ فيورباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الالمانية » .
- ٤ - المصدر السابق .
- ٥ - « المجلة الحولية الافرنسية - الالمانية » ظهرت في باريس عام ١٨٤٤ بإشراف ماركس وروغني . لم يصدر منها الا عدد واحد .
- ٦ - راجع رسالة ماركس المذكورة ومقدمة انغلز للطبعة الانكليزية لكتاب « تطور الاشتراكية من الطوباوية الى العلم » .
- ٧ - يقصد لينين مجموعة مقالات لبازاروف ولوناتشارسكي وبوغدانوف وبيرمان وبوشكيفتش وغيلفوند ظهرت عام ١٩٠٨ بشكل كتاب يحمل اسم « مقالات في فلسفة الماركسية » .
- ٨ - كان هذا المقطع « اسهام في مسألة الديالكتيك » تعميماً قام به لينين عندما كان منهمكاً في معالجة المسائل الفلسفية بين عامي ١٩١٤-١٩١٥ .

٩ - « روسكوبي بوغاتسكو » (الثروة الروسية) مجلة شهرية صدرت من عام ١٨٧٦ حتى منتصف عام ١٩١٨ في بطرسبرغ . أصبحت منذ اوائل التسعينات لسان حال الشعيين الليبراليين ، وكان محررها كريفنكو وميخايلوفسكي . التف حولها كتاب اصبحوا فيما بعد اعضاء بارزين في احزاب الاشتراكيين الثوريين والاشتراكيين الشعيين وجماعات العمل في الدومات الحكومية . في عام ١٩٠٦ أصبحت المجلة لسان حال الحزب الاشتراكي الشعبي النصف كاديتي . كانت المجلة تنادي بالابتعاد عن النضال الثوري ، كما شنت نضالاً عنيفاً ضد الماركسية والماركسين الروس .

١٠ - « فيسينيك اوروبا » (بشير اوروبا) مجلة شهرية تاريخية وسياسية وادبية صدرت في بطرسبرغ من عام ١٨٦٦ وحتى صيف ١٩١٨ . كانت تبشر بأفكار البرجوازية الليبرالية الروسية .

١١ - ظهر المقال في العدد الثاني عشر من الصحيفة البلشفية العلنية « نوبايا جيزن » (الحياة الجديدة) بعد عودة لينين من الغربه الى بطرسبرغ في تشرين الثاني عام ١٩٠٥ . وبعد عودة لينين صارت الصحيفة تحت اشراف لينين المباشرة واصبحت عملياً لسان حال الحزب الاشتراكي الديمقراطي العالمي الروسي . وقد شارك في تحرير الصحيفة فوروفسكي ولونا تشارسكي وغوركي الذي قدم لها مساعدة مادية كبيرة .

١٢ - المقصود هنا اضراب تشرين الأول السياسي العام ، عام ١٩٠٥ ، وهو الاضراب الذي اصدر القيصر اتره اعلاناً بمنح الشعب الحريات العامة .

١٣ - لسان حال النواب العمال .

١٤ - « سيفيرنايا برافدا » (حقيقة الشمال) احدى تسميات جريدة البرافدا .

١٥ - « دزفين » (الجرس) مجلة شهرية علنية . كانت قومية متطرفة وذات

اتجاه منشفيكي . صدرت باللغة الأوكرانية في كييف في عام ١٩١٣ و ١٩١٤ وكان تروتسكي أحد محرريها .

١٦ - منظمة معادية للثورة تضم الاقطاعيين . تشكلت في ايار عام ١٩٠٦ . كان كان للاتحاد تأثير كبير على سياسة الحكومة وكان يمل عليها القوانين لصالح الاقطاعيين . دخل عدد كبير من اعضائه في سوفيت الدولة في فترة الدومال الثالثة كما احتلوا مراكز قيادية في منظمات المائة السودالرجعية

١٧ - يقصد لينين المجلة الليبرالية « الحق » (عدد آب ١٩١٣) .

١٨ - « كولو كول » (الجرس) صحيفة سياسية صدرت بشعار « أنادي الأحياء » بإشراف غرتسن وأوغاريوف في لندن من اول تموز عام ١٨٥٧ حتى نيسان ١٨٦٥ ثم في جنيف من ايار ١٨٦٥ حتى تموز ١٨٦٧ كانت الكولو كول في مقدمة الصحافة الثورية غير المراقبة ، وكانت توزع سراً في روسيا .

١٩ - جماعة « تحرير العمل » اول مجموعة ماركسية روسية . اسسها بليخانوف في جنيف عام ١٨٨٣ ، وقامت بعمل كبير في نشر افكار الماركسية ، وترجمة مؤلفاتها الى الروسية وعرضها بأسلوب مبسط .

٢٠ - اسكرا (الشرارة) اول صحيفة ماركسية غير شرعية تصدر لعموم روسيا . اسسها لينين عام ١٩٠٠ .

٢١ - « رابوتشي » (العامل) اول صحيفة اشتراكية ديمقراطية روسية غير شرعية ، صدرت في بطرسبرغ من كانون الثاني الى تموز عام ١٨٨٥ .

٢٢ - رابوتشي ليستوك (الورقة العالمية) صحيفة غير شرعية ، لسان حال « اتحاد النضال من اجل تحرير الطبقة العاملة » . صدر منها عددان : الأول في روسيا في شباط عام ١٨٩٧ ، والثاني في جنيف في ايلول عام ١٨٩٧ . طرحت الصحيفة مهمة توحيد نضال الطبقة العاملة الاقتصادي مع المهام السياسية العريضة ، وضرورة انشاء حزب عمالي .

- ٢٣ - «رابوتشاياميسل» (الفكر العمالي) - صحيفة انصار المذهب الاقتصادي. انتقد لينين افكارها بوصفها صيغة روسية لافكار الانتهازية الدولية .
- ٢٤ - «رابوتشي ديلا» (القضية العمالية) هي مجلة «الاقتصاديين» . كانت تصدر بشكل غير دوري عن «اتحاد الاشتراكيين الديمقراطيين الروس» في الخارج . صدر منها ١٢ عدداً بين عامي ١٨٩٩ و ١٩٠٢ .
- ٢٥ - «رابوتنيك» (العمل) صدرت بين عامي ١٨٩٦ - ١٨٩٩ في جنيف باشراف جماعة تحرير العمل .
- ٢٦ - «فيربود» (الى الامام) صحيفة بلشفية غير شرعية تأسست في جنيف وصدر منها ١٨ عدداً من ١٩٠٥/١/٣ حتى ١٩٠٥/٥/١٨ . كان لينين منظمها وملهم فكرها ومديرها ، وكان يشارك في تحريرها فوروفسكي واولمنسكي ولونا تشارسكي . قال لينين عنها : ان اتجاه «فيربود» هو اتجاه «الاسكرا» القديمة . وقد لعبت الصحيفة دوراً عظيماً في الاعداد للمؤتمر الثالث للحزب وفي طرح اهم المسائل المتعلقة بثورة عام ١٩٠٥ .
- ٢٧ - «ناتشالو» (البداية) صحيفة يومية منشفية شرعية . صدرت في بطرسبرغ من تشرين الثاني حتى كانون الاول عام ١٩٠٥ . صدر منها ١٦ عدداً
- ٢٨ - فولنا (الموج) صحيفة يومية بلشفية شرعية صدر منها ٢٥ عدداً في بطرسبرغ ابتداء من ٩ ايار عام ١٩٠٦ .
- ٢٩ - «انخو» (الصدى) صحيفة يومية بلشفية شرعية صدرت في بطرسبرغ من ٥ / ٧ حتى ٧ / ٢٠ عام ١٩٠٦ بدلاً من صحيفة «فيربود» التي منعها الحكومة . كان لينين محررها الفعلي .
- ٣٠ - «نارودنايا دوما» (الدوما الشعبية) صحيفة يومية منشفية صدر منها ١٢ عدداً في بطرسبرغ بين شهري آذار وحزيران ١٩٠٧ .

- ٣١ - انظر مقال «في المسألة الاجتماعية في روسيا» الذي يعطي فيه انغلازوصفا لسكالدين .
- ٣٢ - اضطر لينين ،وهو يتحدث عن « التراث الفكري » لستينات القرن التاسع عشر ، أن يستشهد بسكالدين لأسباب تتعلق بالرقابة . والحقيقة ان لينين كان يعتبر تشرنيشفسكي اham يمثل « للتراث » وقد ورد ذلك في رسالته إلى بوتريسوف في ١/٢٦/١٨٩٩ . انظر المؤلفات الكاملة ج٤٦ ، ص ١٨-١٩ .
- ٣٣ - أوتيتشيفسنيي زايبسكي (المذكرات الوطنية) مجلة سياسية أدبية ظهرت في بطرسبرغ عام ١٧٢٠ وأصبحت منذ عام ١٨٣٩ افضل مجلة تقدمية . شارك في اعمالها كل من بيلنسكي وغرتسن وغرانوفسكي وأوغاريوف وآخرون . أخذت أهمية المجلة تتضاءل بعد خروج بيلنسكي من هيئة تحريرها عام ١٨٤٦ . عرفت المجلة عهد ازدهار ثان منذ عام ١٨٦٨ عندما اشرف عليها نيكرا سوف وسالتيكوف شيدرين . وفي هذا الوقت التف حول المجلة المثقفون الديمقراطيون الثوريون . بعد موت نيكرا سوف أصبح للشعبين النفوذ الأقوى في المجلة . تعرضت المجلة فترات عديدة في حياتها للملاحقة ثم اغلقتها الحكومة عام ١٨٨٤ .
- ٣٤ - مجلس ادارة مستقل شكل قبل الثورة في المناطق ، كانت غالبية الاعضاء فيه من النبلاء الاقطاعيين .
- ٣٥ - الصحيفة الزراعية - هي لسان حال وزارة الزراعة واملاك الدولة
- ٣٦ - يورد لينين هنا كلمات من كتاب سكالدين الآنف الذكر .
- ٣٧ - « نوفوبي سلوفا » (الكلمة الجديدة) مجلة علمية أدبية سياسية شهرية . اصدرها الشعبيون الليبراليون في بطرسبرغ منذ عام ١٨٩٤ ثم اشرف عليها « الماركسيون الشرعيون » (ستروفي وتوغان بارانوفسكي منذ بداية عام ١٨٩٧) . نشر فيها لينين مقالين عندما كان في المنفى في سيبيريا (اسهام في وصف الرومنطيقية الاقتصادية وحول ملاحظة وردت في صحيفة) . كما كتب فيها بليخانوف وزاسوليتش ومارتوف وغوركي وغيرهم . اغلقت الحكومة القيصرية المجلة في كانون الأول عام ١٨٩٧ .

٣٨ - بورد لينين هنا مقطوعاً من مقال بيساريف « شطحات فكر غير ناضج » .
٣٩ - صدر الكراس في جنيف عام ١٨٩٨ بعنوان « اسهام في مسألة مهمام الاشتراكية الديمقراطية الروسية وتكتيكها » .

٤٠ - القى لينين المحاضرات حول « النظرة الماركسية إلى المسألة الزراعية في أوروبا وفي روسيا » في باريس في المدرسة الروسية العليا للعلوم الاجتماعية في شهر شباط عام ١٩٠٣ .

٤١ - يقصد لينين مقال كارل ماركس (مشروع قرار بالغاء اعمال السخرة (الاقطاعية) ومقال انغاز (مناقشات حول المسألة البولونية في فرنكفورت) .
٤٢، ٤٣، ٤٤ - انظر المؤلفات الكاملة للينين الجزء ٢٣ الصفحات ١٩٢ - ١٩٣ ٥٨٧ - ٥٩٠ ، ٥٨٢ .

٤٥ - كريدو (قانون ايمان ، برنامج) اعلنت أصدرته جماعة (المذهب الاقتصادي) ومن هذه الجماعة بروكوبفيتش و كوسكوف وغيرهما الذين اصبحوا فيما بعد من الكاديت (الكاديت هم اعضاء الحزب الديمقراطي الدستوري الذي انتسب اليه ممثلو البرجوازية والملاكين العقاريين والمثقفون البرجوازيون) .

٤٦ - يقصد لينين كتاب شيدرين : مقالات من خارج البلاد .

٤٧ - عنوان مقالة كتبها تشرنيشفسكي في نقد قصة تورغنيف (آسيا) .

٤٨ - لهذه الملاحظات اهمية خاصة لأنها تبين تطور بليخانوف الفكري من جهة ، وتبين من جهة أخرى التأثير الذي أحدثته اتجاهات الكاتب المنشفية في تقييمه لتراث الديمقراطي الثوري الروسي العظيم تشرنيشفسكي .

٤٩ - كتب المقال بلغة إيزوب لأسباب تتعلق بالرقابة : فالحزب يسمى في المقال بالمجموع أو القديم ، كما يلحق لينين تلميحات بعيداً إلى المؤتمر الخامس للحزب واجتماع اللجنة المركزية الخ ... صدر المقال في مجلة (ميل) (الفكر) وهي مجلة بلشفية شرعية شهرية تعنى بالفلسفة والعلوم الاقتصادية والاجتماعية . صدرت في موسكو في كانون الأول عام ١٩١٠ بمبادرة

لينين للنضال ضد الصحف التصفوية . صدر منها خمسة اعداد .

٥٠ - ناشازاربا (فجرنا) مجلة شهرية - منشفية تصفوية علنية صدرت في اعوام ١٩١٠ - ١٩١٤ ، تشكل حولها المركز الرئيسي للتصفويين . (جيزن) « الحياة » مجلة المناشفة التصفويين صدرت في أواخر عام ١٩١٠ في موسكو بدلاً من مجلة (البعث) التي اغلقت .

٥١ - يورد لينين ابسانا للشاعر الروسي نيكرا سوف من مؤلف (مشاهد من الملهاة الغنائية (صبد الدب) .

٥٢ - حدد مرسوم التاسع من تشرين الثاني عام ١٩٠٦ وقانون ١٤ حزيران عام ١٩١٠ قواعد خروج الفلاحين من المشاعة وتمليكهم الأرض .

٥٣ - يورد لينين كلمات فولغين بطل رواية تشرنيشفسكي (المقدمة) .

٥٤ - ٥٥ - يورد لينين كلمات غرتسن نفسه .

٥٦ - الاتحاد الفلاحي اعامة روسيا - منظمة ديمقراطية ثورية نشأت عام ١٩٠٥ ، كانت تطالب بدعوة الجمعية العامة للاجتماع في الحال والغاء الملكية الخاصة للأرض ، وبصادرة املاك الدولة والكنائس والأديرة وغيرها وتوزيعها على الفلاحين . اظهر اتحاد الفلاحين الكثير من التردد والمواقف الوسطية في دفاعه عن هذه المطالب ، لوقوعه تحت تأثير الاشتراكيين الثوريين والليبراليين .

٥٧ - بولياردنايا زفيزدا (نجم القطب) مجموعة أدبية سياسية أصدر غرتسن الأجزاء الثلاثة الأولى منها ثم اشترك معه أوغاريفوف في اصدار بقية الأجزاء في لندن بين عامي ١٨٥٥ - ١٨٦٢ ثم صدر الجزء الثامن والأخير في جنيف عام ١٨٦٨ . لعبت بولياردنايا زفيزدا دوراً كبيراً في تطوير الأدب التقدمي والفكر الاجتماعي الروسيين .

٥٨ - يورد لينين مقطعاً من مقالة غوتسن « ن . غ تشرنيشفسكي » .

٥٩ - الكلام لغرتسن .

٦٠ - الكلام لغرتسن .

٦١ - كانت الانتفاضة في قرية بيزدن من مقاطعة قازان جواباً على مرسوم ١٦ شباط عام ١٨٦١ المتعلق بشروط الفاء حق القناة . امتنع الفلاحون ، بناء على نداء انطون بيتروف الذي قاد الحركة ، عن القيام بأعمال السخرة ودفع الجزية للاقطاعيين ، كما أخذوا القمح من مخازن الاقطاعيين ورفضوا التوقيع على الصكوك التي تحدد مقدار قطع الأرض والجزية ... انتشرت الاضطرابات إلى ٧٥ نقطة مأهولة في مقاطعات سامارا وقازان وسيمبير . سحقت الانتفاضة بمنتهى الوحشية (قتل أكثر من ٩٠ شخصاً وجرح أكثر من ٣٥٠) ، وشق انطون بيتروف (. وصف غرتسن هذه المأساة في صحيفة « الكولوكول » .

٦٢ - الكلام لغرتسن .

٦٣ - جماعة العمل - مجموعة من الديمقراطيين البرجوازيين الصغار اسسها نواب الفلاحين في الدوما الأولى في نيسان عام ١٩٠٦ .

طالب اصحاب جماعة العمل بإنهاء كل التقييدات الطبقية والقومية ، وجعل الادارة ديمقراطية في المدن والقرى واعطاء حق الانتخاب للجميع . أما في المسألة الزراعية فقد كان برنامج الجماعة ينطلق من المبادئ الشعبية .

٦٤ - الفكر الصحيح - احدى تسميات صحيفة « جيفاياميسل » (الفكر الحي) وهي صحيفة شعبية يسارية (اشتراكية ثورية) صدرت في بطرسبرغ بين عامي ١٩١٣ و ١٩١٤ .

٦٥ - يقصد لينين الملكية .

٦٦ - « ريتش » (الكلام) صحيفة يومية ، لسان حال الكاديت .
الكاديت - اعضاء الحزب الدستوري الديمقراطي وهو حزب البرجوازية الملكية الليبرالية الرئيسي في روسيا . تأسس في أوكتوبر عام ١٩٠٥ وكان يضم ممثلي البرجوازية والاقطاعيين والمتقنين البرجوازيين (ستروفي وغيره) . ساند الكاديت موقف القيصر في الحرب الامبريالية الأولى ، وحاولوا انقاذ القيصرية اثناء ثورة شباط البرجوازية الديمقراطية ، ثم

انضموا إلى صفوف البيض بعد انتصار ثورة أكتوبر الاشتراكية ،
واشتركوا مع المتدخلين الأجانب في الاعمال المناهضة للسلطة السوفيتية .
٦٧ - الايات لنيكراسوف من قصيدته الشعرية الكبيرة « من يحيا سعيداً في
روسيا ؟ » (اغنية غريشا « روسيا ») .

٦٨ - أو النار ودنايا فوليا (باللغة الروسية) - منظمة شعبية سياسية سرية نشأت
عام ١٨٧٩ لتخوض نضالاً ثورياً ضد الحكم القيصري الاستبدادي .
قضت الحكومة على هذه المنظمة بعد قتل القيصر اسكندر الثاني في آذار
عام ١٨٨١ على ايدي اعضاء المنظمة المذكورة مباشرة . ولم تؤد المحاولات
المتعددة لاحياء هذا التنظيم إلى نتيجة . ثم اعدم الذي شاركوا في
الاعداد لمحاولة اغتيال اسكندر الثالث عام ١٨٨٧ (أ . إ . أوليانوف
وشيفيربوف وغيرهما) وكانوا يستلهمون في ذلك مبادئ النارودنايا فوليا
القديمة . أشار لينين إلى أن أعضاء النارودنايا فوليا قاموا بدور هائل في
في تاريخ الحركة الثورية في روسيا ، على الرغم من ضالة الفئات الاجتماعية
التي كانت تسانداهم .

٦٩ - حرم ليف تولستوي من الكنيسة الارثوذكسية بقرار صادر عن الجمع
المقدس ما بين ٢٠ و ٢٢ شباط عام ١٩٠١ . وفي الوقت نفسه منعت
الحكومة مناقشة هذا القرار في الصحف ، كما منعت نشر مقالات التحية الموجهة
إلى تولستوي بمناسبة هذا القرار . فصارت رسائل التعاطف التي بعث بها
العمال والفلاحون والمهاجرون السياسيون ورجال المجتمع الأجانب وحتى
بعض رجال الدين ترد مباشرة إلى تولستوي لمدة عدة أشهر .
وفي أواسط آذار بعث تولستوي إلى هيئات تحرير الصحف رسالة يشكر
فيها الجميع « من كبار الموظفين حتى اصغر العمال » على تعاطفهم معه . وينهي
تولستوي رسالته بقوله : « إنني لا اعزو وهذا العطف إلى أهمية نشاطي بقدر ما اعزوه
إلى ذكاء المجتمع المقدس وحسن اختياره لوقت اصدار القرار » .

٧٠ - المقصود هو البرقية التي أرسلها النواب الاشتراكيون الديمقراطيون في

الدوما الثالثة ل ن . غ . تشيرتيكوف، وهو واحد من أقرب أصدقاء تولستوي واتباعه وقد جاء فيها : إن المجموعة الاشتراكية البرلمانية ، وهي تعرب عن مشاعر البروليتاريا الروسية والعالية ، لتشعر بالأسى العميق لفقد فنان عبقرى ومناضل مظفر لا يمل ضد الكنيسة الرسمية ، عدو للتعسف والعبودية رفع صوته عالياً ضد حكم الاعداء، وصديق للمضطهدين» .

٧١ - يقصد لينين الفصل الثالث من « بيان الحزب الشيوعي » الذي أصدره ماركس وانغلز .

- ٧٢ - صدر المقال في المجموعة البلشفية « صوت الحياة » .
- ٧٣ - (الراسخ) - صحيفة يومية لم تكن تنتمي رسمياً إلى أي حزب ، إلا أنها كانت في الواقع لسان حال الكاديت اليساريين كما شارك المناشفة في تحريرها .
- ٧٤ - يقصد لينين الاضراب السياسي العام الذي حدث عام ١٩٠٥ .
- ٧٥ - حزب التجدد السلمي - منظمة برجوازية اقطاعية ملكية دستورية تشكلت عام ١٩٠٦ . وكانت تجمع بين الأوكتوبريين اليساريين والكاديت اليمينيين . كان حزب التجدد السلمي قريباً من الأوكتوبرية من حيث برنامجه . وكان لينين يسمي هذا الحزب « حزب النهب السلمي » .
- ٧٦ - يورد لينين أحياناً من شعر غوته .

٧٧ - فيخي (المعالم) مجموعة صدرت عن الكاديت في موسكو في ربيع عام ١٩٠٩ تضم مقالات ليرديايف وبولغاكوف وستروفي وغيرهم من ممثلي البرجوازية الليبرالية المعادية للثورة . حاول الفيخوفيون في سلسلة مقالات عن المثقفين الروس النيل من التقاليد الديمقراطية الثورية لحركة التحرر في روسيا ، ولأفضل ممثلي الشعب الروسي بمن فيهم تشرنشفسكي ودوبرالدوف وبيساريف . كما شنعوا في مقالاتهم على حركة عام ١٩٠٥ الثورية ، وشكروا الحكومة القيصرية لأنها انقذت (بحراياها وسجونها) البرجوازية من (غضبة الشعب) وأهابوا بالمثقفين خدمة القيصر .

٧٨ - (النشرات الموسكوفية) - مجلة اسبوعية صدرت منذ عام ١٧٥٦ .
انتقلت منذ ستينات القرن الماضي إلى كاتكوف واصبحت المعبرة عن
آراء فئات اكثر الاقطاعيين ورجال الدين المناصرين للملكية رجعية . منذ عام
١٩٠٥ أصبحت من أهم صحف جماعة المائنة السود . اغلقت بعد ثورة اكتوبر .
٧٩ - دستور الثالث من حزيران قانون انتخابي اصدرته الحكومة القيصرية
في الوقت الذي طردت فيه الدوما الثانية . كان من شأن القانون الجديد
أن يزيد من عدد ممثلي الاقطاعيين والبرجوازية الصناعية التجارية في الدوما ،
كما قلص عدد ممثلي الفلاحين والعمال إلى حد كبير . وحرّم هذا القانون
قسماً كبيراً من سكان روسيا الاسيوية حق الانتخاب وقلص الى
الضعفين عدد ممثلي بولونيا والقوقاز . وكان من نتيجة هذا القانون أن
الدوما الثالثة التي انتخبت بموجبه واجتمعت في ١٩٠٧ كانت كاديّية
مفرقة في الرجعية .

٨٠ - (إغتنوا تصبحوا ناخبين) - كلمات غيزو في رده على طلب تخفيض
رسم الانتخاب .

٨١ - دوما بوليغين - « هيئة تمثيلية » استشارية وعدت الحكومة بدعوتها في عام
١٩٠٥ . اعدت قانون الدوما لجنة برئاسة بوليغين وزير الداخلية ، ومنحت
حقوق الانتخاب إلى الاقطاعيين والرأسماليين وعدد قليل من الفلاحين
اصحاب الاراضي الصغيرة . خصص في هذا القانون ٥١ مقعداً من أصل
١٢٢ مقعداً للفلاحين ، أما العمال والمتقنون الديمقراطيون والنساء
والعسكريون وعدد من القوميات الأخرى فلم يعطوا حق الانتخاب .
قاطع البلاشفة هذه الدوما ولم تستطع الحكومة دعوتها إلى الاجتماع .
قضت ثورة ١٩٠٥ على هذه الدوما .

٨٢ - يدور الحديث هنا عن سفر وفد يمثل اعضاء الدوما من اليمينيين المعتدلين
حتى الكاديّ ، وعن خطاب زعيم حزب الكاديّ ميلوكوف الذي ألقاه
في حفلة أقامها رئيس بلدية لندن على شرف الوفد . قال ميلوكوف :

و مادامت في روسيا جمعية تشريعية تشرف على الميزانية ، فإن المعارضة تبقى معارضة جلالته لا معارضة لجلالته » . وقد سهل هذا الخطاب على القيص الحصول على قروض أجنبية .

٨٣ - جماعة الفيبيود - جماعة تضم أعضاء المجموعة المعادية للحزب والبلاشفة من تصفيين وبناء الله وانصار نظرية التجربة الاحادية - تشكلت هذه الجماعة عام ١٩٠٩ بمبادرة من بوغدانوف . كانت لها جريدتها الناطفة باسمها هي « فيبيود » (إلى الأمام) ومن هنا هذه التسمية جماعة فيبيود أو الفيبيوديون .

اتحد الفيبيوديون مع المناشفة عام ١٩١٢ ضد البلاشفة في كتلة واحدة معادية للحزب (كتلة آب) . انهار الفيبيوديون بالفعل عام ١٩١٣ . وانتهوا نهائياً عام ١٩١٧ بعد ثورة شباط .

٨٤ - الأوتروفية اتجاه انتهازي ظهر في صفوف البلاشفة بعد ثورة عام ١٩٠٥ يدعو إلى سحب البلاشفة من الدوما ورفض الأشكال الشرعية في نشاط الحزب . كان هذا التيار يطبق بالفعل سياسة تهدف إلى عزل الحزب عن الجماهير .

٨٥ - « البروليتاري » صحيفة غير شرعية اسسها البلاشفة بعد المؤتمر الرابع للحزب . كانت لسان حال البلاشفة عملياً . صدرت منذ عام ١٩٠٦ وحتى عام ١٩٠٩ في فنلندا أولاً ثم في جنيف وباريس . كان لينين رئيس تحريرها الدائم .

٨٦ - العبارة مأخوذة من اسطورة شيدين الهجائية « الليبرالي » .

٨٧ - « البرافدا » (الحقيقة) صحيفة يومية شرعية ذات اتجاه بلشفي صدرت منذ ٥ ايار ١٩١٢ . كان لينين يضطلع بمهمة إدارتها فكرياً ويكتب فيها يومياً تقريباً ويعطي توجيهاته لهيئة التحرير كما نشر فيها غوركي بعضاً من مؤلفاته .

كانت البرافدا على الدوام عرضة للملاحقات . في ٢١ تموز ١٩١٤ أغلقت الصحيفة . استأنفت صدورها بعد ثورة شباط البرجوازية الديمقراطية

عام ١٩١٧. وأصبحت منذ ١٨ آذار من العام نفسه الناطقة الرسمية الرئيسية باسم الحزب. انضم لينين إلى هيئة تحرير البرافدا بعد وصوله إلى بطرسبرغ. اضطرت الصحيفة إلى تغيير اسمها عدة مرات بسبب ملاحقات الحكومة الموقته وذلك ما بين تموز وتشرين الأول عام ١٩١٧. وبعد انتصار الثورة الاشتراكية استعادت اسمها السابق .

٨٨ - الزوباتوفية أو الاشتراكية البوليسية - تنظيم للاتحادات العمالية قام به البوليس بمبادرة زوباتوف رئيس الامن في موسكو . كان الهدف من هذا التنظيم تحويل العمال عن النشاط الثوري . اعتبر البلاشفة أن من الضروري اشتراك العمال في هذه الاتحادات ليتمكنوا من فضحها واستمالة العمال إلى النضال الثوري .

٨٩ - الغابونية شكل من اشكال الزوباتوفية . نظم الحوري المستفز غابون جمعيات عمالية بتفويض من الشرطة . كان الهدف المعلن من انشاء هذه الجمعيات تلبية مطالب العمال الدينية والأخلاقية والثقافية والتنويرية . قاد غابون مسيرة عمالية لتقديم التماس إلى القصر في ٩ كانون ثاني ١٩٠٥ . كانت المسيرة ذات اغراض استفزازية . وقد اطلق البوليس النار على المتظاهرين بأمر من القصر نيقولا الثاني . وردّ المتظاهرون على النار بإقامة المتاريس . وهكذا كان التاسع من كانون الثاني بداية الثورة الروسية الأولى .

٩٠ - (بشير روسيا) مجلة سياسية وأدبية صدرت في موسكو ثم في بطرسبرغ من عام ١٨٥٦ حتى عام ١٩٠٦ . رأس كتكوف تحريرها منذ عام ١٨٥٦ حتى ١٨٨٧ . كان اتجاه الصحيفة ليبرالياً معتدلاً في أول الأمر ، ثم أصبحت لسان حال الرجعية الاقطاعية منذ ستينات القرن الماضي .

٩١ - يقصد لينين مقالاته التي ظهرت في « البروليتاري » عام ١٩٠٨ .

٩٢ - اتحاد الشعب الروسي منظمة رجعية متطرفة جداً تضم انصار الملكية تشكلت في تشرين الثاني عام ١٩٠٥ لمكافحة الحركة الثورية . كانت تضم الاقطاعيين وكبار اصحاب العقارات وكبار رجال الشرطة والدين والبرجوازية الصغيرة في المدن وعناصر اجرامية . كان للاتحاد صحافته وكان يعتمد الإرهاب وسيلة لتحقيق أغراضه .

انقسم الاتحاد إلى منظمتين بعد طرد الدوما الثانية : احدهما برئاسة بوريشكيفتس والأخرى برئاسة دوبروفين . صفي الاتحاد اثناء ثورة شباط عام ١٩١٧ .

٩٣ - يدور الحديث هنا عن الوقائع التالية : عقدت في موسكو فيما بين شهري تشرين الثاني وكانون الأول من عام ١٩٠٨ اجتماعات مغلقة بين كبار الصناعيين وبين زعماء الكاديت .

في تشرين الأول عام ١٩١٠ تخلى عضو الدوما الثالثة غلوفين عن عضويته في المجلس حتى يستطيع المشاركة في التزام الخطوط الحديدية . وفي آذار عام ١٩١٢ تولى ماكلاكوف على الرغم من عضويته النيابة الدفاع عن تأنييف احد كبار رجال صناعة النفط المتهم بتعذيب احد موظفيه المهندس بيبوتوف .

٩٤ - ايلين كي كاتبة سويدية برجوازية صاحبة كتب في مسائل الحركة النسائية وتربية الأطفال .

٩٥ - يقصد لينين المناشقة من جماعة « الإسكرا » الجديدة الذين حاولوا تبرير تكتيكهم الانتهازي الانشقافي في « الإسكرا » وغيرها .

٩٦ - « التحرير » مجلة نصف شهرية كانت تأخذ بموقف البرجوازية الملكية الليبرالية . صدرت من عام ١٩٠٢ إلى ١٩٠٥ خارج البلاد . شكل محرروها نواة حزب الكاديت .

٩٧ - يقصد لينين رواية فينيتشكو « وصايا الآباء » . فينيتشكو كاتب اوكراني (١٨٨٠ - ١٩٥٠) .



الفهرس

الصفحة	الموضوع
٣	المسائل العامة
٥	مصادر الماركسية الثلاثة ومكوناتها الثلاثة
١٢	من كتاب « المادية والتجريبية الانتقادية »
٣٠	اسهام في مسألة الديالكتيك
٣٥	الدفاتر الفلسفية
٣٦	من ملخص كتاب هيغل « علم المنطق »
٤٠	من ملخص كتاب ارسطو « الميتافيزيكا »
٤١	من ملخص كتاب فيورباخ « محاضرات في ماهية الدين »
٤٢	من مؤلفه « من هم اصدقاء الشعب » وكيف يحاربون الاشتراكيين الديمقراطيين
٤٧	من مقال « المستوى الاقتصادي للشعبية ونقده في كتاب السيد ستروفي
٤٩	من مؤلف المسألة الزراعية و « نقاد ماركس »
٥١	التنظيم الحزبي والأدب الحزبي
٥٨	من مقال « الحزب الاشتراكي والثورية غير الحزبية »
٦٤ ..	لمصلحة من ؟
٦٦	من مقال « الاحصاء وعلم الاجتماع »
٦٨	الثقافة القومية من مقال « ملاحظات انتقادية حول المسألة القومية
٨١	بصدد كرامة الروس القومية
٨٦	من كتاب « ما العمل ؟ »
٨٧	دور مختلف الفئات والطبقات في حركة التحرر
٩١	من ماضي الصحافة العالمية في روسيا
١٠٢	من كتاب « افلاس الاممية الثانية »
١٠٤	من كتاب « مرض اليسارية » الطفولي في الشيوعية

في الشعبين والديمقراطيين الثوريين

١٠٧

من مقال « المحتوي الاقتصادي للشعبية وانعكاسه في

١٠٩

كتاب السيد ستروفي »

١١٢

من مقال « أي تراث نرفض ؟

١٣٨

من مؤلف « ما العمل ؟ »

١٤١

من مقال « اتجاه مفهوم في الاشتراكية الديمقراطية الروسية

١٤٣

النظرة الماركسية إلى المسألة الزراعية في أوروبا وفي روسيا

١٤٧

من مقال « الاشتراكية البرجوازية الصغيرة والاشتراكية البروليتارية »

١٤٩

من مقال « بليخانوف وفاسيليوف »

١٥١

من مقال « عندما تسمع حكم الغبي »

١٥٢

من أي زاوية انتقد ن . غ . تشرنيشفسكي الكنتية

١٥٥

الافتاتر الفلسفية (من ملخص كتاب فيورباخ « محاضرات في ماهية الدين »)

١٥٦

من مقال « في مبييل أي شيء نناضل »

١٥٧

ملاحظات على كتاب بليخانوف « ن . غ . تشرنيشفسكي »

١٦٢

من مقال « تصفويونا »

١٦٤

« الإصلاح الزراعي » والثورة البروليتارية الفلاحية

١٧٥

في ذكرى غرتسن

١٨٤

طوباوتيان

١٩٠

من مقال في « الشعبية »

١٩٢

الشعبيون عن ن . ك . ميخايلوفسكي

١٩٧

اجتماع سوفيت بيتروغراد (من ردّ على سؤال خطي)

١٩٨

من خطاب « خداع الشعب بشعاري الحرية والمساواة »

٢٠٠

من مقال « في التعاون »

٢٠٣

في تولستوي

٢٠٥

لييف تولستوي مرآة للثورة الروسية

٢١١

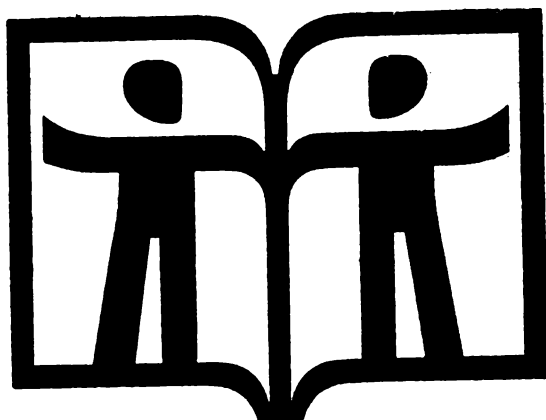
ل . ن . تولستوي

٢١٧	ل . ن . تولستوي والحركة العمالية المعاصرة
٢٢١	تولستوي والنضال البروليتاري
٢٢٣	تولستوي وعصره
٢٢٨	من مقال « حول الحملة الانتخابية والبرنامج الانتخابي »
٢٢٩	من مقالات وخطب ورسائل ما قبل أكتوبر
٢٣٠	من مقال « اتجاه مفهوم في الاشتراكية الديمقراطية الروسية »
٢٣٢	في ذكرى الأمير غيدين (ماذا يعلم الشعب « ديمقراطيون » اللاعزبيون ؟)
٢٤١	بصدد « الفيخي »
٢٥١	من مقال « جماعة فييريود »
٢٥٥	حملة أخرى على الديمقراطية
٢٦٩	نقد كتاب روباكين « بين الكتب »
٢٧٣	إلى إ. ف . أرمند
٢٧٥	إلى إ. ف . أرمند
٢٧٩	من رسالة إلى م . أ . أوليانوفا
٢٨٠	من رسالة إلى م . أ . أوليانوفا
٢٨١	من رسالة إلى أ . ف . لوناتشارسكي
٢٨٢	من رسالة إلى أ . ف . لوناتشارسكي
٢٨٣	« دوشيتشكا » الاشتراكية الديمقراطية
٢٨٤	من رسالة الى هيئة تحرير البرافدا
٢٨٥	من رسالة إلى إ . ف . أرمند
٢٨٧	ملاحظات



العام الدولي للكتاب

١٩٧٢



تم طبع هذا الكتاب من منشورات وزارة الثقافة والارشاد القومي في
الجمهورية العربية السورية بمناسبة العام الدولي للكتاب .

١٩٧٢ / ١٢ / ٢٠٠٠

نضع بين أيدي القراء الوثائق الكاملة
لمفهوم لينين حول مسائل الأدب والفن
وعلم الجمال، وآرائه حول الأدباء والشعراء
في روسيا وخارجها، ممن قرأ لهم وأبدى
ملاحظات حول نتائجهم .

ان كتاب « لينين في الأدب والفن » ،
المترجم عن اللغة الروسية مباشرة، يرتدي
أهمية خاصة بالنسبة لمجموع أعماله وكذلك
بالنسبة للقارئ العربي ، لأنه ينشر للمرة
الأولى في اللغة العربية .

وقد ضم الكتاب كل ما قاله او كتبه
لينين ، وكل مادونه على شكل ملاحظات
أو هوامش في مؤلفاته ورسائله حول
المسائل الأدبية والفنية .